يهود مصر من الازدهار إلى الشتات

محمد أبو الغار

إهداء

إلى الوطنيين المصريين من كل الأديان

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر الجزيل للدكتور رفعت السعيد الذي أعارني كتاب (الصحافة الصهيونية في مصر) بقلم عواطف عبد الرحمن وكتاب (يهودي في القاهرة) بقلم شحاتة هارون وقدمني إلى الأساتذة: يوسف درويش وألبير أرييه ويوسف حزان وهنري كوهين، لإجراء حوارات معهم.

والأستاذ يوسف (سوسو) حزان على إهدائي المرجع الكبير (اليهود المصريون في فرنسا) (بالفرنسية)، ومجموعة صور قديمة تخص اليهود المصريين، والأستاذ ألبير أوديز على إهدائي كتابه (أمثال مصرية بقلم يهودي مصري) (بالفرنسية)، والدكتور أسامة شوقي على إعارتي رواية (أدا أهاروني) (بالإنجليزية)، والأستاذ أحمد فؤاد الذي أعارني

كتاب (الولد الذي ولد مرتين) بقلم فيكتور سميخ، وكتاب (العودة إلى الإسكندرية) بقلم روبير داسا، والأتساذ طلعت بدراوي الذي أعارني كتاب (اليهود القراءون) (بالإنجليزية)، وقدمني إلى الأستاذ سام حكيم.

وأشكر الأستاذ كريم همام الذي أعارني كتاب (القضية الفلسطينية بين مصطفى النحاس وعبد الناصر)، والأستاذ فيكتور سلامة الذي ترجم لي كتاب ألبير أوديز من الفرنسية إلى الإنجليزية، والدكتور هاني سكر الذي قدمني للسيدة مادا ماير، والأستاذ زهير الفار الذي قدمني للسيدة ميشيل، والأستاذ محمد الجندي الذي قدمني للسيدة ديدار فوزي روسانو، والدكتور فؤاد عبد الستار الذي قدمني للسيدة آنى كرم، والدكتور أحمد مرسي على تسهيل مهمة الإطلاع على الصحف والمجلات اليهودية في دار الكتب والوثائق القومية، وللدكتور عبادة كحيلة الذي راجع أصول الكتاب.

وللجميع خالص شكري وتقديري.

مقدمة

منذ بدايات الوعي أفكر دائمًا في مصر وشعبها وتاريخها ومستقبلها، ويشغل بالي دائمًا تاريخ الأقليات فيها، ومنذ سنوات طوال شغلتني فكرة المواطنة، ويرتبط ذلك في ذهني دائمًا بمفهوم المواطنة عند اليهود المصريين، فمنذ طفولتي كان اليهود المصريون يحتلون حيزًا كبيرًا من تفكيري، فحين كان عمري ثماني سنوات أعلنت حرب فلسطين الأولى عام (1948)، وما زلت أذكر أن أنوار منزلنا كانت تطفأ بسبب الغارات الجوية، وأتذكر صورة كبيرة أشارت إليها أمي في الصفحة الأولى من جريدة مصرية لبيت متهدم بسبب قنبلة ألقيت عليه من طائرة إسرائيلية، ولم أكن قد تعلمت القراءة بعد، وفي عام (1956) عندما كنت طالبًا في كلية العلوم أدرس في السنة الإعدادية للطب حدث العدوان الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي على مصر. وفي تلك الفترة حدثني والدي كثيرًا عن اليهود المصريين الذين زاملهم في الدراسة والعمل، ومنهم رئيسه لفترة طويلة في البنك مسيو بتشوتو، وهو من عائلة سكندرية يهودية قديمة وشهيرة، وكان دائمًا يذكر عنه كفاءته وأمانته.

وفي السنة التالية لعدوان (1956) حدثت الهجرة الكبرى لليهود المصريين، وأثار ذلك الكثير من الأحاديث ذات الشجون مع أبي الذي كان أول من أفهمني أن اليهود المصريين ليسوا طائفة واحدة متجانسة، وإنما هم مجموعة من الطوائف بينهم اختلافات كبيرة جدًا وتوحدهم فقط الديانة اليهودية.

وبعد ذلك استمر الصراع العربي الإسرائيلي، وأصبحت مصر تلعب دورًا محوريًا فيه حتى توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، وما زال الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي مستمرًا.

طوال تلك السنوات كنت أفكر في اليهود المصريين، وكان السؤال الذي يشغلني هل كانوا مصريين فعلاً؟ وإذا كانوا كذلك فلماذا تركوا الوطن؟ هل تركوه طواعية أم تحت الضغط عليهم للرحيل؟ وهل حدث هذا الضغط من مصر حكومة؟ أم شعبًا؟ أم من إسرائيل؟ أم من الصهيونية العالمية؟

أم لم يكن هناك ضغط أصلاً وهم الذين فضلوا الرحيل؟

شجعني على ذلك أنه لا توجد دراسات مصرية عما حدث لليهود المصريين في المهجر أيًا كان مكان انتقالهم، وماذا

قالوا عن مصر؟ وماذا كان شعورهم نحوها؟ وهل اختلف هذا الشعور في مختلف الفترات الزمنية اللاحقة؟ وماذا يذكرون عنها؟ هل يشتموننا؟ هل يكرهوننا؟ هل يحبوننا ويحملون في قلوبهم ذكريات جميلة عن حياتهم في مصر؟ كل هذه الأسئلة لم أقرأ إجابة عنها في الدراسات العربية وسوف أحاول أن أجيب عنها في هذا الكتاب.

وعندما اتخذت قراري ببدء الدراسة كنت أعلم أن الأمر سوف يستغرق وقتًا طويلاً ومجهودًا كبيرًا، وبعد بحث سريع وجدت أن مكتبتي بها الكثير من المراجع المصرية اللازمة، واستكملت الباقي من المكتبات العامة وبعض الأصدقاء، أما المراجع الأجنبية فكان الحصول عليها أكثر صعوبة، فكتاب جويل بنيين عن (اليهود المصريين) استطعت شراءه من مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة بعد فترة انتظار دامت عدة أسابيع، وبنيين باحث أكاديمي متميز يعمل في جامعة بيركلي بكاليفورنيا بالولايات المتحدة، وكتابه دراسة جادة محايدة ومتمكنة، وقد أفادتني كثيرًا. أما كتاب كرامر عن (اليهود المصريين)، وهو أطروحة الدكتوراه المقدمة منها إلى جامعة همبرج في ألمانيا فيعد أهم الدراسات وأعمقها عن اليهود

المصريين، لكنها تتوقف عند فترة الخمسينيات الحرجة، وكذلك كتاب إسحاق شامير السفير الإسرائيلي الأسبق في القاهرة، فقد كان الحصول عليهما غاية في الصعوبة، لأنهما كانا قد نفدا منذ سنوات ولم يعد طبعهما، وقد حصلت عليهما عن طريق الإنترنت تحت موقع الكتب المستعملة من مكتبة بارنزونوبلز، وهذه الكتب الثلاثة تعد من أهم المراجع لهذا البحث، وتتميز بالدقة الشديدة وتوخي مصادر البحث والحياد والأمانة في عرض الموضوعات، ويختلف كتاب شامير في جزئية مهمة، هي أنه مقسم إلى موضوعات كتب كلاً منها مؤلف مختلف.

أما بقية المراجع الإنجليزية المهمة فقد بحثت عنها في المكتبات التي تبيع الكتب المستعملة في نيويورك، وحصلت على الكتب الفرنسية من مجموعة اليهود الشيوعيين المصريين في باريس، وساعدني بعض الأصدقاء في ترجمتها. وبعد أن قرأت هذه المراجع جميعًا قمت بعمل ملخصات لكل ما رأيته لازمًا لهذا العمل، وقمت بعدة زيارات إلى دار الكتب والوثائق القومية، وصورت عددًا كبيرًا من صفحات الصحف والمجلات اليهودية التي كانت

تصدر في مصر للاستعانة بها، ثم طلبت من بعض الأصدقاء أن يساعدوني في تنظيم لقاءات مع اليهود المصريين، وقابلت اثني عشر يهوديًا مصريًا يقيمون في جنيف وباريس وفلوريدا، بالإضافة إلى المقيمين في مصر، وطرحت عليهم الأسئلة نفسها، وسجلت الإجابات وعرضتها في أحد فصول الكتاب، وكانت المقابلة تستغرق بين ساعة وثلاث ساعات.

ثم أجريت بحثًا على شبكة الإنترنت لزيارة مواقع لليهود المصريين ولخصت ما نشرته هذه المواقع في أحد فصول الكتاب، وقد حاولت عن طريق الإنترنت الحصول على معلومات عن مؤتمر تم عقده عن اليهود المصريين في يناير (2004) في إسرائيل، لكن للأسف لم يرد على المنظمون، وحاولت الاتصال عن طريق الإنترنت ببعض اليهود المصريين الذين يعيشون في إسرائيل، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل لأنهم لم يرغبوا في الرد علي.

وأخيرًا وقبل أن يخرج الكتاب في صورته النهائية أصابتني الحيرة، فأنا في الأساس باحث أكاديمي في الطب وأعرف جيدًا كيفية كتابة البحث العلمي، وكيفية الإشارة إلى المراجع والهوامش، ولكنني في هذا الكتاب قررت أن أتوجه إلى

القارئ العادي المهتم بتاريخ الوطن، لذا وضعت المراجع كلها في جزء منفصل في نهاية الكتاب، وحاولت بقدر الإمكان تبسيط المادة التاريخية مع عدم الإخلال بالمادة العلمية.

تبقى نقطتان: الأولى أنني لاحظت أنه عند ذكر اليهود في أي شيء تطفو على السطح كلمة العداء للسامية، وأنا بوصفي مصريًا أود أن أقول إنني لا أقبل من الذين اخترعوا العداء للسامية في أوروبا، وطبقوه خلال قرون طويلة بلا هوادة وبكل عنف، أن يعطونا دروسًا نحن الساميين في هذا الموضوع، لأن آباءنا وأجدادنا قد رحبوا باليهود الهاربين من العداء السامي فسكنوا وعملوا في مصر بكل حرية، وكانوا جزءًا مهمًا من المجتمع المصري، حتى حدثت التغيرات السياسية التي أدت إلى هجرة اليهود من مصر، والغرض من هذا الكتاب شرحها بكل أمانة علمية.

أما النقطة الأخيرة فإنني أعتقد أن من واجب كل من الدارس والقارئ أن يراعي عند تقييم الأحداث والكتابات والمواقف السياسية التاريخية، الزمن الذي حدثت فيه هذه الأمور، ففي أوائل القرن العشرين على سبيل المثال كانت مصر ملاذًا

لليهود الهاربين من صعود النازية، ورحبت بهم الحكومة والشعب، واشترك المصريون مع اليهود في أعمال ومشروعات كثيرة، لذا حين نقرأ الآن مقالة لكاتب يهودي في نهاية العشرينيات من القرن العشرين في جريدة مصرية فإنه يجب ألا نحكم عليه بما نشعر به الآن تجاه ما يواجهه الفلسطينيون من عنف وقهر، وإنما يجب أن نقرأه بروح ذلك الوقت، وإذا كانت الحكومة المصرية قد وافقت على إصدار عشرات الصحف اليهودية في الثلاثينيات من القرن العشرين فلا يعني ذلك أن تلك الحكومة كانت خائنة أو متخلفة أو قاصرة في التفكير. وأعتقد أن قراءة التاريخ بفكر الزمن الحالي ومعلوماته، سوف تؤدي إلى خلل في تقييم المواقف والقرارات التي اتخذت في ذلك الوقت. والأمر نفسه ينطبق على طه حسن الذي رأس في الأربعينيات تحرير مجلة مصرية أدبية مهمة وهي الكاتب المصري وكان أصحابها سبعة شركاء كلهم من اليهود بقيادة عائلة هراري، ونحن إذا نظرنا إلى هذا الأمر بعين القرن الواحد والعشرين وفكره ربما يصعق البعض من موقف طه حسين، ولكن بفكر الأربعينيات الليبرالي، مع اعتبار وضع اليهود المصريين

بوصفهم مواطنين، فإن الأمر يعد طبيعيًا.

هذه الدراسة استغرقت الأوقات التي استطعت استخلاصها من وقت البحوث العلمية وممارسة مهنة الطب خلال عامين، وأرجو أن أكون قد وفقت في الإجابة عن أسئلة كثيرة لم تجد بعد جوابًا عن اليهود المصريين.

اليهود المصريون

مذاهبهم الدينية وأصولهم العرقية

يعيش اليهود في مصر منذ زمن سحيق، وحسب ما هو مسجل في الكتب السماوية فإن اليهود طردوا من مصر في تاريخ غير محدد، لكنه يزيد على ألف عام قبل الميلاد، وتحفل التوراة وقصص اليهود وصلواتهم وحفلات طهور أولادهم وحفلات بلوغهم – وهي طقوس مهمة عند اليهود ـ بأغانٍ وقراءات يذكر فيها اسم مصر في العديد من المرات، وأذكر أنني كنت في زيارة لصديقي د. فؤاد عبد الستار في شمال ولاية نيويورك، واصطحبني لحفل بلوغ ابن أحد زملائه من الأطباء اليهود، وكان حفلاً عظيمًا حضره عدد كبير من الناس، وبعد نهاية الحفل الذي تغلب عليه الصفة الدينية بالإضافة إلى الصفة الاحتفالية، اصطف الجميع للأكل وتناول الشراب، إلا أن أكثر ما لفت نظري الأوراق التي وضعت على جميع المقاعد في المحفل اليهودي لقراءتها بالإنجليزية في معظم الوقت، باستثناء عبارات قليلة بالعبرية، وقد تكرر أثناء الاحتفال اسم (مصر) مرات عديدة في كل

القراءات والأناشيد التي استمرت نحو ساعتين، وأخذت أتصفح هذه الأوراق وهالني الأهمية البالغة لمصر عند اليهود، وأعتقد أن اسم (مصر) استمر يلعب دورًا محوريًا في تفكير اليهود وتاريخهم الديني، ولم ولن يمحوه الزمن.

وبعيدًا عن الحوادث التاريخية المذكورة مرات عديدة في الكتب الدينية، فإن علم التاريخ الحديث يشير إلى أن لليهود تواجدًا دائمًا في مصر منذ القرن التاسع الميلادي، وقد ازدهر هذا التواجد في بعض العصور، وتقلص في عصور أخرى حسب تغير الأحوال السياسية للحكام.

- يقول بنيين "إن الجالية اليهودية تكونت عبر مراحل تاريخية طويلة، فقد عاشت في مصر أعداد كبيرة من اليهود قبل دخول الإسلام فيها، وزاد العدد عبر مراحل كثيرة حتى وصل إلى نحو (75) ألف يهودي أو أكثر من ذلك قبل عام (1948)، حين أعلنت دولة إسرائيل".

الطوائف الدينية لليهود المصريين

انقسم اليهود في مصر إلى طائفتين حسب الانتماء الديني،

- رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة بركلي بكاليفورنيا.

كبراهما هي طائفة اليهود الربانيين وكانت تمثل أغلبية اليهود المصريين. وطائفة الربانيين ينتمي إليها معظم اليهود في العالم، وهم يؤمنون بالأسفار التسعة والثلاثين من التوراة (العهد القديم) بالإضافة إلى التلمود الذي يشرح أبحاث أحبار اليهود في شئون العقيدة والقانون والتاريخ الديني، وقد أباحوا تأويل نصوص التوراة وهم يؤمنون بالبعث للصالحين منهم، وكذلك يؤمنون بالمسيح المخاص الذي سوف يأتي آخر الزمان لينقذ الناس ويدخلهم في ديانة النبي موسى. وتقويم الربانيين يعتمد على طريقة الحساب، وليس على التقويم الفلكي. وحيث إن طائفة الربانيين كانت تكون الأغلبية العظمى من اليهود المصريين، وكانت هي الطائفة التي ينطوي تحت لوائها معظم أغنياء اليهود، لذا فإن معظم المعابد اليهودية الكبيرة كانت تابعة لليهود الربانيين، ومعظم العلاقات الاقتصادية والصناعية والسياسية لليهود كانت تقوم بها طائفة الربانيين. وكان لكل طائفة من اليهود الحاخام الخاص بها والمعابد اليهودية الخاصة بها، ومن المعروف أن تقسيم اليهود حسب الطائفة الدينية شيء مختلف تمامًا عن تقسيم اليهود المصريين حسب أصولهم وتوقيت هجرتهم

لمصر.

طائفة اليهود القرائين

لعل أهم طائفة دينية تختص بها مصر هي طائفة اليهود القرائين. وهي طائفة أصغر حجمًا وأقل نفوذًا من الربانيين، وهي طائفة صغيرة بين يهود العالم، وهناك اختلافات عقائدية جوهرية بينهم وبين اليهود الربانيين، لأنهم يؤمنون فقط بالتوراة (العهد القديم) ولا يؤمنون بالتلمود مصدرًا من مصادر الديانة والتعاليم اليهودية، والتلمود هو الكتاب الذي ينظم الحياة اليومية لليهود بناء على تعاليم أحبار اليهود، ويمكن مقارنة التلمود مع الفارق بأحاديث رسول ا صلى ا عليه وسلم، ويمكن تشبيه اليهود القرائين بجماعة من المسلمين يؤمنون بالقرآن لكنهم لا يؤمنون بالحديث.

هذه الطائفة قديمة جدًا، وهناك اعتقاد بأنها نشأت في القرن الثامن الميلادي على يدي مؤسسها عنان، وهو يهودي عراقي عاش في أرض بين النهرين. وعاش بعض القرائين في مدينة الفسطاط التي أصبحت جزءًا من القاهرة بعد ذلك. ويعتقد مراد فرج –وهو محام شهير وشاعر ومثقف من اليهود القرائين ـ أنهم افترقوا عن الربانيين قبل ميلاد

المسيح، واتبعوا السنة القمرية في حساب التقويم مثل المسلمين، مما أدى إلى الاختلاف بينهم وبين الربانيين حتى في تواريخ الأعياد. ويقول مراد القدسي في مرجعه المهم "اليهود القرائين في مصر" الذي نشره بالإنجليزية في الولايات المتحدة إن وجود وثيقة مختومة من عمرو بن العاص عام (641م) تأمر زعماء الجالية اليهودية في مصر بعدم التدخل في شئون طائفة القرائين، تعني أن تاريخ القرائين يرجع إلى ما قبل عنان الذي عاش في القرن الثامن الميلادي.

وتعد طائفة القرائين أقدم جالية يهودية في مصر، فهي موجودة منذ أكثر من ألف سنة، ويتميز القراءون بأنهم يتكلمون العربية بلهجة مصرية سليمة ويكتبونها، ويتحدثون بها في أعمالهم وفي منازلهم، ويعدون أنفسهم أولاد بلد. ويقال إن عمرو بن العاص أعطاهم قطعة أرض في البساتين بعد دخول مصر، وأعفاهم من الجزية. ومعظم القرائين كان يتمتع بالجنسية المصرية.

وكانت العلاقات تاريخيًا متوترة بين اليهود القرائين واليهود الربانيين الذين كانوا يمثلون أغلبية اليهود المصريين، وذلك

منذ عصر الحاخام سعديا الفيومي في القرن التاسع الميلادي الذي نظر إلى ديانة القرائين على أنها هرطقة، وبالرغم من أن طائفة اليهود القرائين كانت أحوالها الاقتصادية ممتازة تاريخيًا، وكانت أعدادها كبيرة، فإن الجالية تقلصت وأصبحت جزءًا صغيرًا مقارنة بالربانيين، وقد بلغ عددهم عام (1948) نحو 5 آلاف نسمة. وكانت لتوانيا في شمالي أوروبا هي المكان الذي استوطن فيه اليهود القراءون هربًا من الإمبراطورية الروسية بوصفهم مارقين على الديانة اليهودية وليسوا يهودًا، وفي عام (1939) اعتبرت وزارة الداخلية الألمانية أن طائفة القرائين من غير اليهود، وبالتالي تفادوا الوقوع تحت وطأة الاضطهاد النازي.

وبالرغم من هذه الخلافات في تعريف طائفة القرائين في أوروبا، فإنهم في مصر كانوا يعدون يهودًا. وبالرغم من أن حاخام القرائين منع التزاوج من اليهود الربانيين، فإن أحد الزعماء المدنيين لطائفة القرائين –وهو المحامي والشاعر الشهير مراد فرج ـ وتلاميذه وحوارييه قد شجعوا على التزوج من اليهود الربانيين والتقارب معهم، وهو ما حدث بالفعل في القرن العشرين. وكانوا يسكنون (حارة اليهود)،

وهي حي كامل من شوارع كثيرة تنقسم إلى جزأين، حارة اليهود القرائين وحارة اليهود الربانيين، وكانوا يعملون في المهن نفسها وكانت علاقاتهم متداخلة.

- وتقول كرامر "إن اليهودية عند القرائين فيها مؤثرات إسلامية، حيث إن هذه الطائفة نشأت في بغداد على يد عنان بن داود إبان مرحلة مهمة من مراحل ازدهار الحضارة الإسلامية، وقد عدوا متطرفين لأنهم يقرأون النصوص الأصلية فقط، لذا أطلق عليهم القراءون، وقد درسوا علم الاجتهاد في الإسلام وطبقوه على التوراة، وكذلك اتفقوا على مبدأ إجماع الأئمة في التفسير، فضلاً عن علم المنطق، واتفقوا على مبادئ عامة تحكمهم بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر، وكانت هناك خلافات أخرى بينهم وبين الربانيين مثل اختلاف طرق الذبح، وكذلك اختلاف طقوس الحياة يوم السبت، وكانوا أيضًا مهتمين بالروحانيات وتحديد العلاقة بينهم وبين الديانات الأخرى، وحرموا التزاوج من خارج الطائفة، ولديهم تقويم يهودي مختلف، وكانوا في

- رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة هامبورج بألمانيا.

أعيادهم وطريقة صلاتهم وتزيينهم لمعابدهم يقعون تحت تأثير إسلامي كبير، فهم مثلاً يخلعون أحذيتهم قبل دخول المعابد ويسجدون أثناء صلاتهم، وبذا تختلف هذه الطائفة في الكثير من طقوسها عن طائفة الربانيين".

في خلال القرن السابع عشر في روسيا معقل اليهود القرائين تم إعلان الانفصال التام عن اليهود الربانيين، ونشأت الطائفة في مصر في عصر الدولة الطولونية، ثم الدولة الفاطمية وتقاربوا وتباعدوا مع بقية الجالية اليهودية في أزمنة مختلفة، خاصة بعد أن تعرضوا لهجمة ضارية من الفيلسوف ورجل الدين اليهودي الشهير موسى بن ميمون.

كان عدد القرائين في مصر نحو خمسة آلاف عام (1948) إلا أن بعض المؤرخين يعتقدون أن العدد الحقيقي ربما يكون أكبر من ذلك، وكان معظمهم يعيش في القاهرة في عطفة اليهود القرائين، وهي على حدود حارة اليهود الأصلية. وكان معظمهم من الفقراء الذين يشتغلون عمالاً وصنايعية في صياغة الذهب والفضلة وصناعة العطور والصرافة والتجارة وأيضًا قومسيونجية. وانتقل من تحسنت أحواله المالية بعد الحرب الأولى ليعيش في العباسية والخرنفش، وكانوا على

عكس بقية اليهود يرسلون أولادهم إلى المدارس المصرية، كما كان القادرون يرسلون أولادهم إلى المدارس الإنجليزية.

وظهرت بعض العائلات الغنية نسبيًا مثل مسعودة وليشع وليفي وكوهين ومرزوق وصالح والطويل والمنجوبي وعبد الواحد. وكان القراءون يعيشون حياة المصريين، يتكلمون العربية، لكن نساءهم لم يكن محجبات مثل المصريات المسلمات. بل بالعكس كُن يظهرن جمالهن، وقد سجل المؤرخ والصحفي رودلف ناسو عام (1904) خمسًا وعشرين حالة من تعدد الزوجات بين القرائين، وكانت أسماء أولادهم: إبراهيم – زكي ـ يوسف ـ مراد ـ صالح ـ عبد الواحد، وهي أسماء عربية وتوراتية، وكانت أغلبية القرائين تحمل الجنسية المصرية فقط. وفي الأربعينيات من القرن العشرين بدأت تزيد حالات الزواج بينهم وبين بقية اليهود، وباستثناء المحامي مراد فرج كان القراءون يبتعدون عن بقية اليهود ولا يختلطون معهم. وكانت علاقتهم باليهود الربانيين محدودة ببعض المؤسسات الخيرية والمدارس.

وفي مقالة طويلة عن ميراث البنت عند الإسرائيليين نشرتها مجلة الكليم (مجلة اليهود القرائين) وكتبها مراد فرج يقول

فيها "إن البنت يحجبها أخوها فلا ترث معه شيئًا، وهو يرث كل التركة حسب الشريعة اليهودية. ويذهب بعض المجتهدين إلى أن تأخذ البنت عشر التركة تستعين به عند الزواج، وإذا كان هناك أكثر من بنت فلا أكثر من العشر لهن جميعًا". وعلى ثلاث صفحات كاملة من المجلة يشرح مراد فرج آيات التوراة التي تفصل نظام ميراث البنت.

تكون المجلس الأعلى للقرائين عام (1901)، وسيطرت عليه بعض العائلات الغنية نسبيًا، حتى بدأ الشباب يتمردون عليه، وأقاموا في العشرينيات اتحاد اليهود القرائين بمصر، وكان مهتمًا بالخدمات الاجتماعية والثقافية، وحاولوا القيام ببعض الإصلاحات الدينية، وقد عبر هذا الاتجاه عن نفسه في بعض المجلات مثل "الاتحاد اليهودي" في العشرينيات، و"الشبان" في الثلاثينيات، و"الكليم" التي ظهرت في الثلاثينيات واستمرت حتى الخمسينيات وكانت مجلة نصف أسبوعية. وقد أصدر القراءون جريدتهم "الكليم" عام (1937) وقد استمرت في الظهور حتى عام (1956) وساهمت في نشر ثقافة اليهود القرائين، وكانت مهتمة بالأمور الوطنية المصرية وانصهار طائفتهم ضمن النسيج المصري، فأمين

ليشع في مقاله الافتتاحي ينتقد حاخام القرائين، لأنه لم يذهب لتهنئة شيخ الأزهر الجديد عام (1946) وطالب بأن تشترك الطائفة في الأعياد والمناسبات القومية المصرية، وكان كثيرًا ما يظهر على غلاف (الكليم) صور كاريكاتيرية لابن البلد رمز الشخصية المصرية، وأبو يعقوب رمز الشخصية اليهودية في إطار فكاهي، وكانت مدارسهم تعلم بالعربية. وكثيرًا ما كانوا ينشرون الأزجال، وكان مراد فرج يكتب الشعر بالعامية والفصحى، وكان يحاول تقليد أحمد شوقي. كما كان رئيس تحرير (الكليم) يوسف كمال، وهو ابن الملحن الكبير داود حسني الذي توفي عام (1937) وكان القراءون يرتدون الملابس البلدية أو الإفرنجية مع الطربوش حسب طبقتهم مثلهم مثل باقي المصريين تمامًا. يقول مراد القدسي في كتابه الذي رصد فيه تاريخ القرائين وحياتهم وعلاقتهم بالأقباط والمسلمين: كان هناك نوع من التنافس في العمل أدى إلى توتر العلاقات بين اليهود القرائين والأقباط. ويقول: الأقباط كانوا يشتغلون كتبة حسابات وماسكي دفاتر عند التجار القرائين، وقد أخذوا منهم منشآتهم بعد هجرتهم. وفي هذا الكتاب يؤرخ مراد القدسي للعائلات القرائية،

ويعرض مجموعة نادرة من الصور لهم، إلا أن الكتاب لا يتعرض لمشاكل الطائفة بالتفصيل في السنوات الحاسمة قبل الهجرة.

ولم يكن القراءون مهتمين بالصهيونية، وباءت محاولات المنظمات الصهيونية في تجنيدهم بالفشل، وكان مراد فرج ينادي بالتقارب بين اليهود الربانيين الذين كانوا يعدون أكثر تقدمًا وتحررًا، وقد هاجر بضع مئات من الشباب القرائين إلى إسرائيل ضد رغبة الحاخام ونصيحته، وكان من ضمن القلة التي انضمت إلى الفكرة الصهيونية موسى مرزوق الذي أعدم في حادثة سوزانا وأخوه يوسف مرزوق، ونظرًا لكونه طبيبًا فقد كان خارج إطار الجماعة، وانضم إلى مجموعة من اليهود الربانيين، لذلك أمكنه أن يصبح صهيونيًا. وبالرغم من أن مراد فرج في كتاباته الأولى كان متعاطفًا ومؤيدًا لإنشاء وطن قومي في فلسطين، إلا أنه لم يرتبط بأي منظمة صهيونية.

الطوائف اليهودية في مصر

بعيدًا عن الطوائف الدينية ينقسم اليهود حسب أصولهم العرقية والإثنية إلى اليهود الشرقيين الذين قطنوا بلاد الشرق

لفترات طويلة، ويدخل في جملتهم اليهود الذين طردوا من أسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر واستوطنوا بلاد البحر الأبيض المتوسط ومنها مصر، وهؤلاء يطلق عليهم اليهود السفارديم، وهناك طائفة اليهود الأشكيناز، وهم اليهود الذين قدموا إلى مصر والشرق عمومًا من شرقي أوروبا.

وعند الحديث عن طائفة السفارديم، سوف أقسمها إلى جزأين، الأول سوف أطلق عليه (اليهود المصريون الأصليون)، وهم الذين عاشوا في مصر على نحو متصل قرونًا طويلة، والجزء الثاني هم (اليهود السفارديم) الذين هاجروا إلى مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

اليهود المصريون الأصليون

ونأتي للسؤال المهم: من هم اليهود المصريون الأصليون؟ والإجابة ليست صعبة كما يظن بعض المؤرخين، فهم اليهود الذين عاشوا على أرض مصر أجيالاً متعددة، تكلموا بلغتها وتشربوا عاداتها وتسموا بأسماء أبنائها ونالهم من الأذى ما نال المصريين وتحسنت أحوالهم كلما عم رخاء نسبي في مصر، هؤلاء هم اليهود المصريون، وقد أخذت بهذا

التعريف الذي لا يخضع لقانون علمي واضح ومحدد، لأنني أرى أن اليهود القرائين وبعض اليهود الربانيين عاشوا في مصر قرونًا طويلة جدًا، وكانوا يتكلمون العربية مثل كل المصريين، ومنهم الفقراء ومتوسطو الحال وبعض الأغنياء، وقد خرج منهم العمال والحرفيون والبائعون المتجولون وأصحاب المحلات في الأزهر –الذين كانوا يلبسون الجلباب البلدي والطربوش ـ والفنيون في الصاغة، ومنهم الملحنون والموسيقيون والمغنون والصحفيون والشعراء والزجالون والممثلون والأطباء والمحاسبون، وقد تكلموا العربية فقط، إلا من حصل منهم على قدر من التعليم مثلهم مثل باقي المصريين تمامًا. لذا فإن طائفة القرائين تعد مصرية صميمة، لكنها تدين بالديانة اليهودية، وكانت هذه الطائفة أقل الطوائف تعاطفًا مع الصهيونية، باستثناء أفراد قلائل اختلطت عندهم مبادئ الصهيونية بالديانة اليهودية، لكن الأغلبية منهم لم تبتعد عن شعورها بالمصرية باستثناءات نادرة.

وتقدر كرامر عدد اليهود المصريين الأصليين الذين عاشوا في مصر قرونًا طويلة بنحو 10 آلاف، أي نحو 15٪ فقط من الجالية اليهودية، وعاش معظمهم في حارة اليهود وبعض

مدن وسط الدلتا. وكان معظم أفراد هذه الجالية الأصلية يشتغلون عمالاً حرفيين، وكانوا في الأغلب من الفقراء. والكثير منهم كان بدون عمل مستمر، وكان البعض يعيش على معونات الأثرياء من الجالية أو المؤسسات الخيرية، كما كان بعضهم شحاذين. وكان اليهود المصريون الأصليون لا يختلفون في شيء عن عامة الشعب المصري. لا في اللغة ولا في الشكل ولا المظهر، ولم تكن لغتهم العربية تحمل أي لكنة أو لهجة مختلفة، وكانوا أولاد بلد حقًا. لكن يبدو أنه لم يكن يوجد اختلاط اجتماعي كبير بينهم وبين المسلمين والأقباط خارج نطاق العمل، وعاشوا في حارة اليهود التي لم تكن بأي حال جيتو مثلما حدث في أوروبا الشرقية، لكنهم كانوا في الكثير من الأحيان يرسلون أولادهم إلى المدارس اليهودية الممولة من أغنياء اليهود. ولم تكن حارة اليهود حكرًا على اليهود، بل كان يسكنها المسلمون والأقباط. ولم يكن يهود الحارة – وهم المصريون الأصليون ـ ممثلين بأي وضع في الطائفة اليهودية أو قيادتها في مصر ولم يكونوا أيضًا ممثلين في أي مجلس محلي. وقد تم تهميشهم بواسطة أغنياء الطائفة من اليهود الذين وفدوا حديثًا على

مصر.

أما يهود الدلتا فقد كانوا ممثلين، ولهم مكانة في المجتمع المحلي، برغم أعدادهم القليلة، وكانت أماكن سكناهم تسمى في هذه القرى والمدن تل اليهود أو خوخة اليهود.

وجدير بالذكر أنه كان هناك تقارب بين الجماعة اليهودية المصرية الحقيقية ومجموعة أخرى من مهاجر المغرب وعدن وكانوا أيضًا فقراء، وعاشوا في السواحل التي هبطوا عليها مثل السويس وبورسعيد والإسكندرية، واستطاع اليهود المهاجرون من هذه المجموعة من الفقراء الأميين الجهلة في خلال جيل واحد أو اثنين التحول من مجموعة شرقية التفكير والتكوين إلى مجموعة مماثلة لليهود الكوزموبوليتان، فتركوا اللغة العربية والثقافة العربية جانبًا وانطلقوا مع اللغات والثقافات الغربية.

سكان حارة اليهود

- يقول جاك حسون المثقف والكاتب اليهودي السكندري الذي ترجع أصوله لأجيال طويلة من قرية خلوة الغلبان

- انظر المراجع الأجنبية.

بجوار المنصورة إن اليهود المصريين يتكونون من عالمين مختلفين، فلدينا مثال عديل اليهودي الشحاذ بجوار حلبة سباق الخيل في الإسكندرية الذي يقول للناس ناصحًا: "انظروا إلى جلبابي، إنني مصري، انظروا إلي جاكتتي إنني خواجة". وهناك على الناحية الأخرى أعداد من اليهود من خريجي المدارس الأجنبية الذين أسسوا أعمالاً ناجحة في مصر، وتوصلوا إلى علاقات متينة مع رجال الأعمال في الغرب، وأصبحوا يعيشون حياة أوروبية تمامًا داخل المجتمع المصري، وهذا الجانب من حياة اليهود في مصر هو الذي تم توثيقه في الصحف الأجنبية. وكذلك تاريخ البنوك والمصارف والشركات في الإسكندرية، وهو الذي كتبت عنه الروايات والقصص، وربما الأفلام، أما الجانب الآخر من الحياة اليهودية القديمة التي أطلق عليها حارة اليهود في القاهرة، وسوق السمك في الإسكندرية. وخوخات اليهود في المحلة الكبرى، ودرب اليهود في المنصورة، وقد تم أيضًا تصوير هذه الأحياء اليهودية في كتابات، مثل وصف نوري فرحي للحي اليهودي في الإسكندرية، ووصفه سوق السمك القديم وحق الجعان وحق النجار وحق الحنبقي التي يزيد

عمر كل منها على مائتين وخمسين عامًا، وكان السكان من الفقراء في هذه الأحياء يستفيدون من المؤسسات الخيرية اليهودية، مثل مؤسسة إدمون هراري في القاهرة، وكانوا يرسلون أطفالهم إلى مدارس الجالية في القاهرة والإسكندرية، وكان معظمهم يتعلمون حتى يصبحوا عمالاً مهرة أو أصحاب محلات صغيرة أو بائعين متجولين، وكانت هذه الطائفة تكون نحو (30 ـ 40٪) من حجم الجالية اليهودية، وكانت مندمجة – بوصفها جزءًا أصيلاً ـ في المجتمع المصري وكان ملبسهم ومأكلهم ومشربهم مشابهًا لبقية المصريين، باستثناء أنهم كانوا محافظين على استمرار الجالية اليهودية نسيجًا منفصلاً في مصل، وكان أحد أمثلته النتيجة التي تحفظ التقويم والأعياد بالشهور اليهودية، وكانت تقاليدهم الدينية مختلفة عن اليهود الذي تغربوا مع الأوروبيين، فكانوا يحتفلون بليلة التوحيد في أول نيسان في المعبد، حيث يبدءون بقراءة الآيات الدينية، ويصلون، والغناء يصدح بالمزامير اليهودية على أنغام الموسيقى الشرقية، وكان الشعر يقرأ ويغنى بالعربية مترجمًا، وفي منتصف الليل يقرأ أكبر الموجودين سدر التوحيد لعبادة ا بالعربية،

وكان يحتوي على عدد كبير من المترادفات الإسلامية، وكان يبدأ بقول (بسم ا الرحمن الرحيم) مثل المسلمين، ويقرأ تسعة وتسعين اسمًا هي أسماء ا الحسنى، وكانت دعواتهم من التوراة مشابهة للدعوات التي يقولها المسلمون، وكانوا يذكرون إبراهيم الخليل وهارون وموسى عليهم السلام، وكانت كلمات الصلوات تملأ القلب والروح بالرهبة والخوف، وربما تعود هذه الصلوات المخيفة إلى عصر ناجيد إبراهيم نجل ابن ميمون. وكان شهر نيسان (سبتمبر) شهر ذكرى الخروج من مصر، يقول حاخام اليهود: "إن النجاة من مصر أعلنت في أول نيسان، وكذلك نجاة بني إسرائيل سوف تأتي أيضًا من مصر في أول نيسان".

وكانوا يحافظون على صيام شوبابين، وهو صيام يومي الاثنين والخميس لمدة ستة أسابيع، وفي السنة الكبيسة تزداد مدة الصيام إلى ثمانية أسابيع. ويعلن بدء الصيام ونهايته في المعبد اليهودي القديم في حارة اليهود، وتتم قراءة خمسة عشر جزءًا من كتاب ديني مرتين حتى يقتلوا الشيطان. وبعد الصلوات يتم ذبح عجل –تشتريه الجماعة اليهودية ـ داخل المعبد، ثم تتم قراءة بعض كلمات موسى.

أما البيوريم فهو عيد ديني فولكلوري يلبس اليهود فيه ملابس جديدة ذات ألوان زاهية، احتفالاً بإنقاذ اليهود من الحاكم العثماني أحمد باشا عام (1524) ميلادية، وكانت الاحتفالات تقرأ بالعربية والعبرية. ومن الاحتفالات رحلة دينية إلى معبد المحلة، وكذلك مولد أبي حصيرة في دميتوه قرب دمنهور. هذه أعياد حارة اليهود، على حين كان اليهود الأغنياء يحضرون الأعياد ذاتها في المعابد اليهودية الفاخرة، حيث غناء الكورال وعزف الموسيقى الكلاسيكية، بحيث يبدو الاحتفال اليهودي مشابهًا للاحتفال الكاثوليكي.

والسؤال المهم كما يقول جاك حسون: ما هي علاقة هؤلاء اليهود بأولئك اليهود؟ يعني علاقة يهود الحارة باليهود الخواجات الذين يسافرون إلى باريس ولندن، وبعضهم حصل على البكوية أو الباشوية، على حين كان يهود الحارة يلبسون القفطان والجلابية ويأكلون الفول والملوخية والقلقاس، ولذا لا يمكن تصنيف اليهود المصريين بوصفهم وحدة واحدة أو نسيج واحد، لأن ذلك مخالف للحقيقة والواقع والتاريخ، فهم مجموعات مختلفة تمامًا في الثقافة والانتماء والحالة الاقتصادية واللغات التي يتحدثونها.

خلوة الغلبان

تقابل إبراهيم أصلان الروائي والكاتب المصري المعروف ضمن مجموعة كبيرة من الأدباء المصريين مع جاك حسون اليهودي الشيوعي المصري الذي ترك مصر عندما كان عمره ستة عشر عامًا إلى باريس، وسأل حسون أصلان: (أنت منين؟) فأجاب: من الكيت كات، وعندئذ قال حسون: أنا من خلوة الغلبان وهي قرية قريبة من المنصورة، وقال حسون لأصلان إن أباه طلب منه عندما يموت أن ينثر حفنة من تراب مصر على قبره، إلا أن حسون لم تتح له الفرصة لأن يفعل ذلك لأبيه، لكن أُتيحت لأمه، فقد زار مصر قبل وفاتها وأحضر ترابًا مصريًا نثره على قبرها بعد الوفاة.

وعندما زار حسون مصر، ذهب بعد أربعين عامًا إلى خلوة الغلبان، ووجد البيت الذي عاش فيه عندما كان طفلاً، ورأي قضبان النافذة التي كان يطل من ورائها مشاهدًا أباه متجهًا إلى المحطة صباح كل يوم، فقد كان يعمل كمساريًا للقطار. وقال حسن لأصلان: مصر جميلة، وقد أفسدت إسرائيل كل شيء، وتوفي جاك حسون بالسرطان في باريس عام 1999.

كان جاك حسون أحد كبار الإخصائيين النفسيين في فرنسا،

وقد ولد في الإسكندرية عام (1936)، واستقر في فرنسا بعد هجرته من مصر عام (1954) وقد زار مصر مرات عديدة، وكان مهتمًا بإنقاذ المقابر اليهودية في البساتين، وكان معروفًا عنه أنه متفتح الفكر وواع بحركة التاريخ، وعندما زار حارة اليهود ومعبد ابن ميمون عام (1983) شعر بسعادة بالغة حين رأى اللافتة التي كُتب عليها (عطفة حسون) ما زالت كما هي في المكان نفسه، حيث كان بيت جده أكبر بيت في هذه العطفة الصغيرة.

ويقول محمود عبد الظاهر: إن حارة اليهود لم تكن حارة بالمعنى الحرفي، فهي في الحقيقة حي كامل فيه شوارع وحواري كثيرة متصلة ببعضها البعض، وتقع في وسط القاهرة بين القاهرة الإسلامية والقاهرة الخديوية وكان يسكن في الحارة أعداد كبيرة من المسلمين والأقباط، وكان سكانها من اليهود مرتبطين بأمرين، أولهما الدخل المحدود، والآخر القرب من مصادر الرزق بالنسبة للحرفيين في الصاغة وغيرها، أما من تحسنت أحواله المادية فقد كان يهجر الحارة إلى عابدين أو باب اللوق أو باب الشعرية أو الجمالية أو الأزبكية أو الدرب الأحمر، ومن ترتفع أحواله المادية أكثر

كان ينتقل إلى العباسية ومصر الجديدة، أما من انضم إلى الأغنياء فكان سكنه الزمالك أو جاردن سيتي، ولم تكن الحارة –كما هو واضح ـ مكانًا إجباريًا ملزمًا لسكن اليهود في أي زمان من التاريخ الحديث لمصر، لذا فإنها لم تكن جيتو يهوديًا مماثلاً للجيتو في أوروبا الشرقية الذي ألزم اليهود بالسكن فيه، وفي الإسكندرية عاش اليهود في مختلف الأحياء حسب وضعهم الاقتصادي، إلا أن فقراءهم كانوا يسكنون ما يعرف باسم سوق السمك.

يهود الإسكندرية

يقول جاك حسون إنه كانت هناك جالية يهودية في الإسكندرية منذ نشأة هذه المدينة وكان عدد يهود الإسكندرية في القرن التاسع عشر نحو أربعة آلاف يهودي ووصل هذا العدد إلى 18 ألفًا في أوائل القرن العشرين وارتفع إلى أربعين ألفًا عام (1948) وكانت الهجرة من اليونان وتركيا وسوريا ولبنان وفلسطين والمغرب، وكذلك إيطاليا وفرنسا.

وفي نهاية القرن التاسع عشر هاجر إلى الإسكندرية عدة آلاف من اليهود الروس، مثل عائلة هانو وبعد ذلك هاجرت مجموعة أخرى عند قيام الثورة البلشفية، وفي أوائل

الثلاثينيات هاجرت مجموعة من يهود سالونيكي والنمسا والمجر وبولندا إلى مصر هربًا من صعود النازية في ألمانيا.
يقول حسون: "إن نصف يهود الإسكندرية كانوا من اليهود المصريين، والنصف الآخر ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام، أولها من اللادينو من سكان البحر الأبيض المتوسط الذين هاجروا من أسبانيا، والثلث الثاني من يهود إيطاليا وشرقي أوروبا، والثلث الثالث من يهود المغرب والشرق الأوسط الذين يتكلمون بالعربية.
كان المستوى الاجتماعي لليهود من جميع الأجناس ممثلاً في جميع الطبقات، فمنهم الفقراء والأغنياء. أما طبقة كبار الأغنياء فكان منهم الأجانب والمصريون، حتى لو كانوا يحملون جوازات سفر أجنبية. وكان معظم اليهود من أصحاب المهن أو التجارة البسيطة أو المتوسطة، قال جاك حسون: إن معظم اليهود كانوا من صغار البورجوازيين.
ونقلاً عن جاك حسون ألقى الصحفي والكاتب نوري فرحي في أوائل القرن العشرين محاضرة عن يهود الإسكندرية، وحكى عن المصريين من اليهود الذين تركوا رشيد وإدكو إلى الإسكندرية، واستوطنوا سوق السمك القديمة، وتكلم عن

البؤس الشديد الذي عانى منه اليهود في حوش الجعان وحوش النجار وحوش الحنبقي.

وقد أنشأ أغنياء اليهود في الإسكندرية مؤسسات اجتماعية لمساعدة الفقراء، مثل المستشفى الإسرائيلي، والمدارس اليهودية التي سهلت حصول اليهود على البكالوريا الفرنسية، وكذلك دارا لليتامى، ولكن الفقر والبطالة أثّرا على جزء من الطائفة اليهودية التي تظاهر شبابها العاطلون أمام دار الطائفة في الإسكندرية بعد الحرب العالمية الأولى، احتجاجًا على عدم مساعدتهم.

يقول حسون: "إنه حين انتقل البارون يعقوب منشه ذو الأصول النمساوية من القاهرة إلى الإسكندرية حاول أن يقوم بتغريب الجالية اليهودية هناك، لكن كانت هناك مقاومة انتهت برفض الجالية تكوين جالية يهودية أخرى يرأسها منشه، بل ورفضوا أن يقوم بدفن الموتى من أتباعه في مدافن اليهود بالإسكندرية، فطلب من الحكومة قطعة أرض لتكون مدفنًا له ولأتباعه، وحصل عليها وأصبح اسمها مدافن منشه، ثم أصبح اسمها بعد ذلك مقابر اليهود رقم (2) بالرغم من اتفاق الجاليتين اليهوديتين بعد ذلك بسبع سنوات على أن

يرأس الجالية الموحدة مناصفة أجنيون المصري ومنشه النمساوي.

وسرعان ما بدأ التحول نحو الحياة الأوروبية واللغات الأجنبية بين الغالبية من يهود الإسكندرية، وحتى المعدمون الذين يسكنون حوش الجعان، انتقلوا تدريجيًا إلى نوع من التعليم والحياة الأوروبية، وبذلك اختلفوا إلى حد كبير عن يهود القاهرة والدلتا الذين كان الكثيرون منهم يعيشون ويفكرون مثل بقية المصريين.

وبعد ذلك أصبح يهود الإسكندرية ينتمون إلى الجزء الأعلى من الطبقة الوسطى، على حين كان هناك كبار أصحاب المتاجر مثل شيكوريل وشملا وهانو، وكبار رجال البنوك مثل موصيري وكورييل، وكبار أصحاب الأراضي والمباني مثل سموحة وتوريل وساش، ورجال الصناعة مثل سالتيل ورولو وهيرلينج وسوارس، ومجموعة من كبار الأطباء والمهندسين والصحفيين والمثقفين وأساتذة الجامعات والمعماريين، مثل لوريا الذي صمم مسجد رمضان يوسف الشهير بالإبراهيمية. وكان اليهود مشاركين في الجمعيات الثقافية والعلمية والنوادي، والكثيرون منهم ضمن أعضاء

مجالس إدارتها، وكانت هناك أعداد كبيرة من المؤسسات الخيرية والمدارس المختلفة التابعة للجمعيات اليهودية، كما كان في الإسكندرية ثمانية معابد يهودية كبيرة.

اليهود السفارديم

حسب التعريف المتداول فإن اليهود السفارديم هم اليهود ذوو الأصل الأسباني الذين طردوا في نهاية القرن الخامس عشر من أسبانيا. وفي هذا الكتاب أردت أن أوضح أن المقصود باليهود السفارديم اليهود المنتشرون في حوض البحر الأبيض المتوسط الذين تجنسوا بجنسيات أوروبية، أو أصبحوا من رعايا الدولة العثمانية بعد طردهم من أسبانيا، وعاشوا فترات طويلة في هذه البلاد قبل هجرتهم إلى مصر، لينضموا إلى اليهود المصريين الأصليين الذين هم –أيضًا ـ من السفارديم، لكنهم من أصول شرقية قديمة.

وبهذا أصبح اليهود السفارديم يجمعون بين فئات وثقافات مختلفة، وأوضاع اجتماعية واقتصادية متباينة للغاية. وكانت الهجرات من اليهود السفارديم وهم الذين قدموا إلى مصر في القرن التاسع عشر يحملون تعليمًا وثقافة وخبرة بالتجارة واتصالات دولية أكبر وأقوى بكثير من خبرات اليهود

المصريين، فسرعان ما أصبحوا قيادة الطائفة في مصر، وكونوا ثروات طائلة في فترات قصيرة، وأصبح الكثيرون منهم أطباء ومهندسين ومحامين، وأغلبهم عدوا أوربيين في الثقافة والتوجه، بالرغم من أنهم يهود سفارديم شرقيين، لأنهم كانوا مختلفين تمامًا عن يهود مصر الأصليين (يهود الحارة). وكانت معرفتهم باللغات الأجنبية عاملاً في نجاحهم.

وطائفة اليهود السفارديم تشبه (الفسيفساء) الموزايك، وتضم طبقة من الأغنياء الذين حضروا إلى مصر منذ مدة طويلة قد ترجع إلى عصر محمد علي وحتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واستثمر جزء كبير منهم أمواله في مصر، واستخدم صلاته بالغرب في طبع مشروعاته الزراعية أو الصناعية في مصر بالطابع الأوروبي المتقدم، واستخدم طرقًا حديثة في الإدارة حققت نجاحات كبير، وقد اندمجت هذه الطبقة تمامًا في طبقة الباشاوات وكبار ملاك الأراضي ورجال الأعمال الوطنيين المصريين، وكانوا شركاء لهم في كثير من الأعمال، وكانت حياتهم مماثلة للشريحة العليا من الطبقة البرجوازية في أوروبا، وهو نمط الحياة الذي حاول قطاع الرأسمالية المصرية الناشئة أن يندمج فيه، واعتقد أن

جانبًا كبيرًا من يهود هذه الطبقة كانوا يحبون مصر، لأنها أعطتهم الأمان والحب والتقدير وتحقيق مكانة في المجتمع وفي جمع المال، وهو ما كان من الصعب تحقيقه في شمالي حوض البحر الأبيض في وسط المنافسة الأوروبية، وكان من المستحيل أن يتحقق لهم هذا النجاح الاقتصادي الكبير إلا بهذا الهامش الواسع من الحرية الذي فاق الحرية التي كانت ممنوحة لأقرانهم المصريين. وبالرغم من أنهم كانوا يساعدون أقرانهم من اليهود الذين عذبوا أو طردوا من أوروبا، وكانوا يتعاطفون بطريقة أو بأخرى مع الحلم بالوطن اليهودي، إلا أنهم كانوا يعرفون بوضوح ويعون أن إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين يتعارض مع مصالحهم الشخصية، لأنه لم يكن ممكنًا أن تستمر مكانتهم المتميزة في مصر في ظل إنشاء دولة إسرائيل، لذا كان معظم يهود هذه الطبقة يعدون مصر مكانهم المفضل، وحتى نهاية الثلاثينيات لم يكن هناك أي هاجس أو قلق بينهم وبين معظم المصريين من الأقباط والمسلمين. وكانت الصدمة شديدة للمصريين عندما علموا بعنف المستوطنين اليهود في معاملة العرب الفلسطينيين وطردهم من ديارهم، وقد اجتاحت المظاهرات

فلسطين، وانتقلت منها إلى القاهرة ومدن عربية أخرى في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن العشرين، والتي بدأت تدق أول مسمار حقيقي في نعش علاقة اليهود بالشعب المصري، وتزامن ذلك من ظهور قوتين جديدتين في المجتمع المصري هما الإخوان المسلمين ومصر الفتاة، وقد أظهرت كلتا القوتين عداءً شديدًا، ليس فقط للصهيونية، وإنما لليهود بصفة عامة، واليهود المصريين بصفة خاصة، وبالرغم من أن تأثير هاتين القوتين لم يكن كبيرًا في ذلك الوقت مقارنة بالحزب الليبرالي الكبير (الوفد) إلا إن صوتهما كان زاعقًا. كما كانت أفعال الصهاينة في فلسطين رهيبة، لذا صادف موقفهما صدى كبيرًا في الشارع المصري، لكنه لم يصل إلى حد الكراهية العنيفة أو العدوان، وخاصة أن هذه الجالية لم تكن محصورة في جيتو، وإنما كانت تعيش في مختلف أحياء القاهرة، كل حسب مستواه الاجتماعي.

أما الطبقة الوسطى من السفارديم فكانت أيضًا داخل المجتمع المصري تعمل في القطاع الخاص، حيث يمتلكون محلات ومصانع وورشًا صغيرة، وكانوا يعملون موظفين في الشركات والبنوك. وكانت لهذه الطبقة تطلعات كثيرة، ونظرًا

لاحتكاكها المباشر بالشعب المصري كانت أول من شعر بتأثير ما يحدث في فلسطين على مشاعر الشعب المصري، وكما كانت هذه الطبقة أول من اتصلت بها وتلاعبت بعواطفها المنظمات الصهيونية في فلسطين والمنظمات المصرية الصهيونية من اليهود الأشكيناز. وكانت هناك نسبة لا بأس بها من هذه الطبقة تريد الانسلاخ من مصريتها، فكانت تحاول دائمًا الالتصاق بالغرب، وكان تعليمها في المدارس الإسرائيلية الفرنسية أحد عوامل جذب هذا القطاع من اليهود المصريين للفكر الصهيوني، حيث كان هناك عدد من المدرسين في هذه المدارس من منظري الفكر الصهيوني، والفكر الاشتراكي في الوقت نفسه.

ويقول بنيين: "حين طرد اليهود من أسبانيا وانتشروا في حوض البحر الأبيض المتوسط كانت لهم محطات مهمة انطلقوا منها إلى بلاد أخرى، مثل المغرب وجنوب إيطاليا وإستانبول، وكانت لغة هؤلاء السفارديم هي الادينو، وهي لغة أسبانية قديمة فيها كلمات عبرية، إلا أن السفارديم تحدثوا أيضًا بلغة البلاد التي استوطنوها، فالكثير منهم تكلم الإيطالية أو التركية أو العربية، وفي القرنين الثامن عشر والتاسع

عشر ازدهرت اللغة الفرنسية بين اليهود عن طريق المدارس اليهودية الإسرائيلية "اليانس" التي انتشرت في حوض البحر الأبيض المتوسط عن طريق هيئة مركزية فرنسية، وأصبحت اللغة الفرنسية اللغة الأولى لكثير من يهود السفارديم، بالإضافة إلى لغة البلد الذي يقطنونه، وبدأ اللادينو تنقرض تدريجيًا. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر هاجر إلى مصر مجموعة من يهود حلب ودمشق وإستانبول والقدس.

ويمثل اليهود السفارديم أغلبية اليهود الذين هاجروا إلى مصر على مراحل متعددة منذ القرن الخامس عشر، لكن الهجرة زادت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مع الازدهار الاقتصادي للأجانب في مصر، نتيجة افتتاح قناة السويس واكتشاف أهمية وضع مصر الجغرافي، وأيضًا بسبب القوانين التي ميزت الأجانب عن المصريين، وأعطتهم فرصًا في الرزق والكسب أكثر من المصريين، مع معاملتهم بنظام قضائي يعطيهم مميزات كثيرة تسهل حياتهم وتمنع عقابهم. وهكذا كون الكثير من اليهود السفارديم ثروات هائلة وأصبحوا من كبار الأغنياء،

وزاولوا أنشطة اقتصادية متعددة، وكانت لهم معابدهم ومستشفياتهم ومدارسهم ومؤسساتهم الخيرية.

اليهود الأشكيناز

بدأ هجرة اليهود الأشكيناز إلى مصر منذ القرن السابع عشر، وكانت هجرة بسيطة من جنوبي روسيا، وفي أواخر القرن التاسع عشر حدثت موجة أخرى من الهجرة من روسيا وبولندا من فقراء الشباب، ثم حدثت هجرة مؤقتة من فلسطين عام (1914) سوف نتحدث عنها بالتفصيل لأهميتها. وبالرغم من ذلك كون اليهود الأشكيناز (8٪) فقط من اليهود المصريين، كان عددهم نحو خمسة آلاف نسمة في أعلى تعداد لليهود المصريين، وكان يسكن معظمهم درب البرابرة، ويتكلم اليديش وهي لغة يهودية قديمة كان يهود شرقي أوروبا يتحدثونها حتى الخمسينيات من القرن العشرين، وقد أصدروا صحيفة باليديش استمرت فترة قصيرة في أول القرن العشرين، وأنشأوا مسرحًا باليديش في أربعينيات القرن العشرين، وكان لهم برنامج في الإذاعة المصرية بلغتهم، وعند وصولهم إلى مصر اشتغلوا في مصانع اف السجائر، ثم عملوا خياطين وصانعي ومصلحي أحذية،

وكذلك علموا في صناعة الذهب والفضة.

وكان اليهود الأشكيناز لا يعرفون العربية ولا يريدون أن يعرفوها، وهؤلاء نتاج الاضطهاد الأوروبي الذي أدى إلى توحش الفكر الصهيوني، ومعظم هذه الطائفة جاءت إلى مصر لتعيش وتعمل بصفة مؤقتة، وعينها وقلبها على فلسطين، ولم تشعر أبدًا بانتمائها إلى مصر، أو حتى بالامتنان لهذا الوطن الذي استضافهم، وكانت هذه الطائفة هي التي كونت في السنوات الأولى لهجرتها خلايا صهيونية في مصر، وهي التي كانت على اتصال دائم بالمستوطنين اليهود في فلسطين، وهي التي ألبت وشجعت وحرضت الطوائف الأخرى من اليهود على نسيان مستقبلهم في مصر والتفكير فقط في إسرائيل، وهي التي ساهمت في العمليات التخريبية وآوت الصهاينة الإرهابيين القادمين من فلسطين.

وكثير من اليهود الأشكيناز وفدوا إلى مصر أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي فترة ما بين الحربين العالميتين حين بدأ تعاظم القوى النازية والفاشية في شرق ووسط أوروبا، ومعظمهم حصل على وظائف في الشركات الأجنبية في مصر، والكثيرون منهم لم يتعلموا العربية ولم يختلطوا

بالمصريين. وضمن هؤلاء الأشكيناز مجموعة آمنت بالماركسية أخذوا على أنفسهم نشر الشيوعية وكونوا بعض خلاياها في مصر، وهذا موضوع سوف نتناوله بالتفصيل في فصل عن اليهود والشيوعية، ومن الغريب أن الأشكيناز كانوا أكثر وعيًا بأهمية الحصول على الجنسية المصرية، فحصل الكثيرون منهم عليها بسهولة، على عكس كثير من السفارديم الذين أقاموا في مصر لعدة أجيال، ولم يرغبوا في الحصول على الجنسية المصرية.

الهجرة المؤقتة ليهود فلسطين إلى مصر

عند اندلاع الحرب العالمية الأولى قامت السلطات العثمانية في فلسطين بترحيل نحو خمسة آلاف صهيوني إلى مصر، ويحكي هذه الواقعة داود يوديلوفلتشي الذي كان أحد اليهود الفلسطينيين، لكنه لم يأت مرحلاً إلى مصر ضمن هذه المجموعة، ولم يكن أيضًا من اليهود المصريين، لكنه كان يعمل بصفة مؤقتة في مصر، لذا كان له وضع جيد ومميز بين الطرفين.

وعندما وصلت هذه المجموعة من اليهود الروس والبولنديين من فلسطين إلى الإسكندرية على ظهر المراكب، قال

سوارس رئيس الجالية اليهودية في الإسكندرية "إن جالية من ألفي يهودي في الإسكندرية لا تستطيع أن تعول 12 ألف مهاجر قدموا إلى مصر فجأة، وقال إن الحل هو التفاهم مع سلطان مصر السلطان حسين كامل الذي كان على علاقة جيدة باليهود". وقام سوارس بالضغط على القنصليات الأجنبية في الإسكندرية لتلعب دورًا في حماية ومساعدة اليهود، وبالفعل تكونت هيئة من محافظ الإسكندرية وعمدتها وعدد من الأعضاء، وبعد تكوين هذه الهيئة هاجمت الصحف المصرية اليهود المصريين، لأنهم لم يقوموا بالرعاية والضيافة الكافية لليهود الصهاينة القادمين من فلسطين، ونجحت خطة سوارس في أن يقنع الحكومات المصرية والأجنبية بحل المشكلة، وكان اليهود القادمين حانقين على اليهود المحليين الذين وصفوا بأنهم لم يقوموا بواجب الضيافة كما يجب، وقد تم وضع اليهود المهجرين في معسكرات مزدحمة وعاشوا حياة بسيطة تعسة.

وقد أنشأت الجالية اليهودية المصرية مدارس لأطفالهم المهاجرين بعد أن تركوا مدارسهم في القدس عام (1915) واستقبلت الأطفال –أيضًا ـ في مدارس هذه الجالية اليهودية

بالإسكندرية. كما أنشأت مدارس للأطفال في معسكر القباري بالورديان، وكان عدد التلاميذ يتعدى الألف تلميذ، وكانت لغة التدريس هي العبرية، وكانت الإنجليزية والعربية لغتين أجنبيتين إضافيتين، واستمرت هذه المدارس مفتوحة لمدة ثلاث سنوات حتى عام (1918) حين عاد اليهود إلى القدس مرة أخرى، وساهم في توفير الأموال اللازمة للمهاجرين يهود القاهرة وإنجلترا والولايات المتحدة، بالإضافة إلى الحكومة المصرية.

وكان اليهود المصريون يعاملون اليهود القادمين من فلسطين بكثير من الحذر والقلق، لأنهم لاحظوا أن هؤلاء اليهود من الصهاينة مختلفون عنهم، فهم لا يفكرون كثيرًا في الدين، وإنما يفكرون في القومية اليهودية واللغة العبرية، الأمر الذي لم يكن له أهمية عند اليهود المصريين، فقد كانوا مختلفين تمامًا وشديدي التدين والمحافظة على الطقوس الدينية ولم يهتموا على الإطلاق بدراسة اللغة العبرية إلا باستثناءات نادرة، والكثيرون منهم في تلك المرحلة التاريخية كانوا يعدون مصر هي وطنهم، واعترض زعماء الجالية اليهودية المصرية على إهمال تدريس الديانة اليهودية في مدارس

المهاجرين، والاعتماد على تدريس الأفكار الحرة، والسماح بالتفكير والمناقشة، وليس الحفظ، وقالوا: "إن اليهودية بهذه الطريقة من التعليم سوف تفقد قيمتها، واليهود لابد أن يدرسوا تفاصيل الديانة اليهودية ويلتزموا بتعاليمها".

الفارق هنا واضح، فهؤلاء يهود يعيشون في مصر ويريدون أن يتعلم أولادهم الدين اليهودي واللغات الأوروبية، ليشقوا طريقهم في الحياة، أما اليهود الأشكيناز من الروس والبولنديين القادمين من فلسطين، فهم رأس الصهيونية وقلبها النابض الذي كان يعمل على تكوين الدولة العبرية، فهم يريدون تعليم أولادهم العبرية لغة قومية، أما الديانة اليهودية فهي شيء ثانوي بالنسبة لهم.

ونعتقد أن طريقة التعليم في النظام الصهيوني كانت متقدمة على النظام التقليدي، واستطاعت أن تخلق جيلاً من الصهاينة الذين يتكلمون لغة واحدة، بالرغم من أصولهم العرقية المتباينة، وقد غرست فيهم الفكرة الصهيونية باعتبارها مبدأ التزموا به وحاربوا من أجله، ويبدو أن هذا النظام في التعليم استمر في إسرائيل وخلق أجيالاً من المتعلمين الذين عرفوا كيف يفكرون ويناقشون ويقتنعون ويقنعون ويحاربون إيمانًا

بالفكرة، مهما كانت هذه الفكرة عدوانية عنصرية وشرسة. أما نحن فقد اكتفينا بالتعليم التقليدي الذي قد يساعد الطالب على التوظف بعد التخرج، لكنه لا يتعلم كيف يناقش ويفكر ويحاور.

والغريب أن المعسكرات المؤقتة لليهود القادمين من فلسطين لم تكن تسع أكثر من 5 آلاف شخص، والباقي إما هربوا إلى ربوع مصر أو عادوا إلى فلسطين أو وجدوا ملجأ لهم بطرقهم الخاصة. وقد ذكر دافيد بن جوريون المؤسس الحقيقي لدولة إسرائيل في مذكراته الكثير عن هذه المجموعة المهاجرة إلى مصر، ويبدو أنه حضر معهم، أو على الأقل قام بزيارتهم لتفقد أحوالهم، وقد نشر المهاجرون إلى مصر خلال إقامتهم القصيرة عددًا واحدًا من مجلة أطلقوا عليها اسم (في الأرض الأجنبية) صدرت عام (1917) وكان رأي اليهود المهاجرين في اليهود المصريين أنهم كسالى ومحافظون للغاية، ولم يتعرضوا لأي متاعب في الحرب، وكان يجب على هؤلاء الأغنياء مساعدة اليهود في البلاد الأخرى الذين أضيروا بسبب الحرب، خاصة يهود فلسطين، واتهموهم بأنهم لم يتحركوا لمساعدتهم ماديًا أو معنويًا،

ووصفوا اليهود المصريين بأنهم ليسوا مهتمين بأمر إنشاء دولة إسرائيلية، رغم أنهم سمعوا عن مجهودات لإحياء اللغة العبرية ومشروعات أخرى في فلسطين، وبالرغم من أن هذه الأفكار وصلت إليهم إلا أنها لم تصل إلى قلوبهم. وقال يهود فلسطين إن اليهود المصريين يفضلون الحياة في الدياسبورا (الشتات) مع الشعب المصري ولا يريدون دولة إسرائيل.

يقول الكاتب أرونوفيتش "إن المهاجرين فشلوا في التأثير على اليهود المصريين لأسباب عدة منها أنهم لم يعيشوا في مصر إلا فترة بسيطة أقصاها ثلاث سنوات، وأنهم كانوا يعتمدون في معيشتهم على مساعدة اليهود المصريين، فلم يكن هناك مجال واسع للضغط عليهم، وحتى المدرسة العبرية التي أنشأوها في الإسكندرية تحولت إلى مدرسة لتدريس كل اللغات"، وقال: "إن اليهود المصريين كانوا محافظين بشدة على التقاليد والاهتمام بالعبادات والاحتفالات الدينية، على حين لم يهتم المهاجرون بذلك، ولم يثق اليهود المصريون فيمن ترك دينه، لذا كان المشروع الصهيوني الذي بدأ عام (1880) بتهجير اليهود وإنشاء المستوطنات وتنظيم الحلقات الصهيونية ضعيف التأثير في مصر، ولم ينجح أبدًا وسط

اليهود المصريين الذين رفضوا بالإجماع تقريبًا أي هجرة إلى فلسطين في تلك المرحلة".

وأعتقد أن تلك المرحلة التاريخية المهمة تبين بوضوح أن الصهيونية الأوروبية الشرقية التي هاجرت إلى فلسطين هي التي أنشأت المستعمرات وأقامت في المستقبل دولة إسرائيل، ولم يكن يخطر على بال اليهود المصريين بأي حال من الأحوال أن يهاجروا إلى الحرب والقتال والحياة في المستوطنات ويتركوا الحياة المريحة والوضع المتميز لهم في مصر. ولم يكن الأمر مرتبطًا فقط بالحياة المميزة في مصر، فقد كانت الفكرة الصهيونية الواضحة وضوح الشمس في الفكر الأوروبي وبين الزعماء الأوائل للصهيونية مرتبطة بالمجتمع المدني العلماني الذي تلعب فيه القومية الدور الرئيسي، ويلعب الدين فيه دورًا هامشيًا غير موجود بين المصريين، فلم يكن معظم الصهاينة متدينين ولا مهتمين بالدين ولا بتعاليم العبادة، وتوجد نسبة كبيرة منهم ملحدة، لا تؤمن بالأديان السماوية، وكان الكثيرون منهم ماركسيين، وكان الهدف تكوين الدولة بالقوة وإحياء اللغة والتراث التاريخي لليهود بوصفه قومية وليس دينًا، على حين كان

اليهود المصريون يدعون ا   أن يتقبل دعواتهم وصلواتهم، وكانت طريقة الخلاص من أي مشاكل هي طريق الإيمان، وكانت الاحتفالات والأدعية والموالد المرتبطة بالدين تعد فلوكلورًا مكملاً للدين، وفي هذا الأمر يشبه اليهود المصريين إلى حد كبير غالبية المسلمين والأقباط الذين يعدون الدين اتصالاً روحيًا بينهم وبين ربهم، ويرحبون بالاحتفالات الدينية أو شبه الدينية والمواسم، كعاشوراء عند الشيعة والاحتفال بليلة الإسراء والمعراج والنصف من شعبان والأعياد وصيام يومي الاثنين والخميس والستة أيام من شوال والمولد والزار عند السنة وما شابه ذلك، والاهتمام بالتمائم والأحجبة والموالد حول الأديرة في ذكرى القديسين الأقباط، لذا كان هناك تشابه كبير بين الاحتفالات الدينية وطرق العبادة بين اليهود المصريين والمسلمين والأقباط المصريين.

أما الجيل الثاني من الأشكيناز فالتحق بالجامعة المصرية وقاموا بوظائف معينة وخاصة في الطب، والقليل منهم كون ثروات كبيرة، لكن الأغلبية كانت من الفقراء ومن متوسطي الحال. وكانت الجالية الكبيرة من اليهود السفارديم على علاقة سيئة بهم.، بسبب تصرفات الأشكيناز التي أساءت إلى

سمعة اليهود المصريين بدخولهم في تجارة الممنوعات وتهريبها وفتح بيوت الدعارة واستيراد المومسات من اليونان والشام وتشغيل بعض اليهوديات للعمل في بيوت الدعارة، وكان اليهود السفارديم يطلقون عليهم الأشرار، وكانوا يعتقدون أنهم يفتقدون القيم الأخلاقية، وقد نشرت بعض مقالات في صحف اليهود السفارديم تهاجم الأشكيناز بعنف.

ويبدو أن العلاقات المتوترة بين السفارديم والأشكيناز التي كانت موجودة في مصر قد ازدادت توترًا داخل إسرائيل بعد هجرة بعض اليهود المصريين السفارديم إلى إسرائيل، فازداد التوتر داخل إسرائيل بين الطائفتين، خاصة بعد أن أصبح الأشكيناز هم أصحاب السلطة، وكان أغنياء السفارديم في القرن العشرين يتكلمون ثلاث أو أربع لغات، وكانوا مندمجين مع علية القوم من الجاليات الأجنبية، وكذلك الباشوات المصريين، وكانت لهم نظرة متعالية علي اليهود الأشكيناز، وكان الأشكيناز رغم كونهم فقراء ينظرون إلى السفارديم على أنهم شرقيون متخلفون.

وتنقل كرامر عن أحد الصحفيين الأشكيناز –الذي وصفته بأنه طويل اللسان ـ في مقالة نشرت عام (1904)

بالإنجليزية يقول فيها: "إن اليهود السفارديم والشرقيين عمومًا يماثلون المصريين في طريقة تفكيرهم وأخلاقهم وعاداتهم التي لم تتغير في جوهرها، فالدماء الشرقية تجري في عروقهم، لكن عليها طبقة رقيقة من الثقافة الكاذبة المتشبهة بالأوروبية، وطريقة تفكيرهم عربية وليست يهودية، وأخلاقهم وعاداتهم شرقية، ومعرفتهم واهتمامهم بالأحوال الاجتماعية والوطنية معدوم (يقصد الوطنية الإسرائيلية). وبين الأغنياء من اليهود المصريين الشرقيين يتوارى الجهل خلف غلالة رقيقة من ثقافة فرنسية مزيفة، ويحاولون التظاهر بها ليخففوا ضعف ثقافتهم وأفكارهم. وعلى حين أنهم غارقون في الأموال فإن فقراءهم محاصرون في الجيتو الذي يعيشون فيه، وهم طيبون، لكنهم مقهورون ومهملون بدون تنمية للذكاء أو تعليم تقدمي أو حتى أي طموح، ويقال إن هؤلاء السفارديم جميعًا متدينون للغاية ويؤمنون بالخرافات ذات الأصل الديني".

ونعتقد من ناحيتنا أن هذه المقالة المهمة من أحد اليهود الأشكيناز المقهورين القادمين من جيتو روسيا وبولندا ورومانيا إلى مصر، حيث نعموا بالحرية وأخذوا يمرحون

ويتعلمون ويكسبون ويشتمون مصر ويشتمون يهودها الأصليين ويحرضونهم ويتهمونهم بأنهم عديمو الوطنية، ويقصدون بذلك الوطنية تجاه الوطن القومي في إسرائيل، وهذه المقالة المبكرة جدًا توضح أنه مهما ادعى المؤرخون غير ذلك فإن تأثير اليهود الأشكيناز على طريقة تفكير اليهود السفارديم –بمختلف أنواعهم ـ كانت مبكرة وقوية ومنظمة، وأنهم لاقوا في مراحل مختلفة بعد ذلك العون الشديد من الصهيونية العالمية التي ضغطت على يهود مصر وفصلتهم عن أرضهم وعن شعبهم، ولم يكن ذلك التأثير سياسيًا فقط، بل كان ثقافيًا أيضًا، فقد ابتعدوا بالتدريج عن اللغة العربية والثقافة المصرية وانفصل اليهود ككل باستثناء اليهود المصريين الأصليين والقرائين عن المجتمع المصري، وأصبح وضعهم مثل وضع الأقليات الأجنبية كاليونانية والإيطالية وغير ذلك.

الصراعات الداخلية بين طوائف اليهود في مصر

كانت طائفة القرائين –كما سبق أن ذكرنا ـ مختلفة تمامًا عن طائفة الربانيين، وكانت العلاقات بينهما يشوبها التوتر في أوقات، والتفاهم في أوقات أخرى، وبالرغم من الاختلاف

المذهبي والفكري الكبير بينهما، إلا أن العدد الصغير لطائفة القرائين قلل فرص الزواج من داخلها وأتاح الزواج بين الطائفتين تفاهمًا أكثر.

• يقول محمود عبد الظاهر: "إن علاقة السفارديم بالأشكيناز كان يشوبها بعض التوتر منذ القرن التاسع عشر، حيث رفضت قيادة طائفة السفارديم إقامة طائفة أشكنازية منفصلة، كما رفضتها الحكومة المصرية في منتصف القرن التاسع عشر، ورفضها بعد ذلك اللورد كرومر في نهاية القرن، وكانت الحكومة المصرية لا تتدخل في الشئون الداخلية للطائفة".

• وكما ذكر لانداو "فإن الحكومة رفضت إقالة موسى قطاوي رئيس الطائفة بناء على طلب مدير مدارس اليانس الإسرائيلية الفرنسية بدعوى إخلاله بواجباته في رعاية الطائفة، وتركت اليهود يحلون مشاكلهم الداخلية بأنفسهم".

• يهود مصر –دراسة في الموقف السياسي (1897-1948) محمود سعيد عبد الظاهر.

• تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية (1517-1914) تحرير يعقوب لاندو.

وحدثت محاولة أخرى لتقليص سلطة رئاسة الطائفة وبالذات عائلة قطاوي، لكنها باءت بالفشل لعدم اهتمام الحكومة بالتدخل في شئون الطائفة، ولأن نفوذ عائلة قطاوي السياسي والمالي استطاع أن يواجه تيارًا قويًا من الجالية اليهودية، منهم أعضاء مجلس إدارة الطائفة. وبالرغم من عدم تدخل الحكومة في الشئون الداخلية للطائفة، إلا أن الحكومات المتعاقبة كانت ترغب في وجود طائفة واحدة لليهود، حتى يمكن التفاهم معها في حالة حدوث مشاكل، وكان ذلك أحد الأسباب التي أدت إلى رفض طلب الأشكيناز تكوين جالية خاصة بهم. وختامًا لهذا الفصل أعتقد –على عكس الكثير من المؤرخين المصريين المحترمين مثل د.عبده قاسم، ود. محمود سعيد عبد الظاهر وغيرهما ـ أن معظم اليهود المصريين –بالرغم من تعاطفهم مع اليهود الأوروبيين المضطهدين وفكرة الوطن القومي لليهود ـ لم يكونوا يؤمنون بأن الصهيونية تشكل حلمًا حقيقيًا لليهود المصريين، بل كان بعضهم يعمل ضدها أحيانًا، لأنه كان يعي بوضوح أن نمو الصهيونية وتغلغلها في فلسطين وامتداد نشاطها إلى مصر يشكل بداية النهاية للوجود اليهودي المصري، وكان

للجالية اليهودية المصرية نفوذ قوي ووضع اقتصادي ممتاز مقارنة بالمصريين عمومًا، ولم تتعرض لأي اضطهاد أو تخويف أو شعور شعبي ضدها، ولم يكن أحد من أفراد الجالية اليهودية يتصور أن الوطن القومي لليهود سوف يصبح دولة كبيرة وغنية وقوية، لذا لم يكن اليهود المصريون يريدون المخاطرة بشيء في علم الغيب، على حين أنهم في مصر في وضع متميز مقارنة باليهود في مختلف أنحاء العالم، واستمر الأمر كذلك حتى منتصف الأربعينيات، حين اشتدت قبضة اليهود المستوطنين على فلسطين، وحين أثاروا الذعر والهلع في أوساط الفلسطينيين.

وتدريجيًا –كما سوف يتضح من سيرة اليهود المصريين في هذا الكتاب ـ انضم عدد أكبر من اليهود لفكرة الصهيونية، وكان ذلك طواعية أو إجبارًا، بسبب الضغط الصهيوني العنيف من ناحية، والضغط الشعبي المصري من ناحية أخرى بعد قيام دولة إسرائيل. وبدأ انهيار كتلة اليهود المصريين وهجرتهم النهائية من مصر، وهو ما سوف نتحدث عنه بالتفصيل في الفصول القادمة.

اليهود والاقتصاد المصري

لعب اليهود دورًا مهمًا في مصر الحديثة التي يمكن أن يعد قدوم الحملة الفرنسية نقطة بداية لها، وكانت دعوة نابليون اليهود إلى الوقوف في صفه ومساعدته وما أبداه من تعاطف مع فكرة إعطاء وطن قومي لليهود، أول بادرة في هذا الاتجاه من قوة أوروبية كبرى، وظهرت الفكرة قبل الدعوة الصهيونية بمدة طويلة. وأثناء حكم محمد علي حدث انفتاح كبير في مصر على الأوروبيين والأرمن ومختلف الجنسيات الأجنبية، وقد بدأ اليهود حينئذ يأخذون وضعًا متميزًا، ووصل عددهم لما يقرب من تسعة آلاف يهودي في عهده، وبدأ الجالية اليهودية تتبوأ مناصب مهمة، وكان أهم هؤلاء اليهود يعقوب مؤسس عائلة قطاوي الشهيرة، وقد تولى منصب رئيس الصرافين وجامعي الضرائب وعدة مناصب توازي منصب وزير الخزانة الآن، وذلك في الفترة الأولى لتأسيس حكم عائلة محمد علي، وخلال خمسة عشر عامًا ارتفع سكان مصر ليصلوا على (9734000) نسمة عام (1897)، وارتفع عدد اليهود بينهم إلى (25200) نسمة، معظمهم في القاهرة والإسكندرية، والباقون في المحلة والمنصورة وطنطا، وقد

زاد عدد اليهود في العقدين التاليين بسبب الهجرة من أقطار الدولة العثمانية إلى مصر.

وفي تعداد عام (1927) أصبح عدد اليهود (55063) نسمة ثم أصبح (64165) في تعداد عام (1947) وهو آخر تعداد قبل هجرة اليهود النهائية من مصر خلال العقد التالي. ومن المعروف أن هناك مصادر تقدر العدد بأكبر من ذلك ليصل إلى نحو (75) ألفًا أو أكثر من ذلك، حيث إن الكثيرين منهم لم يسجلوا أنفسهم في التعداد.

يقول محمود عبد الظاهر: "إن اليهود حتى غير المتمتعين منهم بالجنسية المصرية حرصوا على إعادة استثمار رؤوس أموالهم في مصر، مستفيدين من مناخ التسامح، ولعبوا دورًا في إنتاج رأس المال الوطني، لكن لصالحهم الشخصي، وقد نتج عن ذلك تملك اليهود ثلث الشركات المسجلة في مصلحة الشركات في ظل الاقتصاد الحر والمفتوح في فترة ما قبل الثورة الذي كان يتيح حرية التملك. والمعروف أن بقية الشركات كان يملك معظمها الأجانب من غير المصريين واستثمروا أموالهم فيها، لأن فرصة الربح الكبير كانت متاحة، بالإضافة إلى الفساد الذي ساعدهم على تكديس

الثروات. وقانون الامتيازات الأجنبية الذي أعفاهم من الضرائب، ولم يحدث تهريب للأموال إلى الخارج إلا في النصف الثاني من الأربعينيات، حين أدرك جميع الأجانب واليهود أن الوضع لا يمكن أن يستمر بهذا الشكل، وأن المصريين لابد أن يأخذوا نصيبهم من ثروة بلادهم، فبدءوا في تهريب أموالهم وتصفية شركاتهم".

كان الكثير من المؤرخين في الفترة الناصرية يهاجمون بضراوة فكرة سيطرة رأس المال الأجنبي بصفة عامة واليهودي بصفة خاصة على الاقتصاد المصري، وكان الشعب المصري كله سعيدًا بعودة الحق إلى أصحابه، لأن السيطرة الاقتصادية الأجنبية كانت ساحقة، لكننا لو نظرنا إلى وضعنا الحالي لوجدنا أن الموقف يحاكي الموقف في الأربعينيات، فها هي الشركات المصرية الناجحة كلها مملوكة للأجانب، وأصبح رأس المال الأجنبي حاليًا يسيطر فعلاً على مصر والمصريين، وضمنه رأس المال الإسرائيلي، وأضحت سيطرة بعض الدول الأجنبية التي تبدي روح العداء لمصر واضحة، وبعضها قد يضمر أفكارًا تؤدي إلى تدمير الاقتصاد المصري، على حين كان النشاط

الرأسمالي السابق للثورة يلعب فيه المصريون –حتى لو كانوا يهودًا ـ دورًا كبيرًا. ولقد كانت الدعوة إلى تمصير الاقتصاد المصري قوية جدًا منذ بداية الأربعينيات، وتحققت إلى حد كبير خلال حقبة الخمسينيات والستينيات.

يقول بنيين: "إن أهم عوامل قلق الوطنيين المصريين من معاهدة السلام مع إسرائيل والبدء في التبادل التجاري والصناعي معها هو الخوف من سيطرة الاقتصاد الإسرائيلي المتقدم ووثيق الصلة بالاقتصاد الغربي على الاقتصاد المصري الأقل تقدمًا، ويمكن بسهولة المقارنة بما كان يحدث خلال سبعين عامًا من الاحتلال البريطاني، حين سيطر رأس المال الأجنبي واليهودي على الاقتصاد المصري، وما حدث بعد تطبيق سياسة الانفتاح السداح مداح، والتي تزامنت مع فساد عارم وانعدام للشفافية بدأ في عصر السادات واستمر حتى اليوم. وأدت سياسة الانفتاح إلى مشاكل اقتصادية ضخمة. وإلى نهب ثروات الشعب المصري وتهريب أموال البنوك –وهي أموال المصريين ـ إلى الخارج، وسيطرة رأس المال الأجنبي على مقدرات الأمور في مصر مرة أخرى.

• كتب أنس مصطفى كامل في (الأهرام الاقتصادي) سلسلة من المقالات عن الرأسمالية اليهودية والاقتصاد المصري، قال عنها الكاتب: "إنها تحكمت بالتعاون مع الاستعمار في الاقتصاد المصري، وإن معظم اليهود من كبار الرأسماليين لم يكونوا من اليهود المصريين أصلاً".

وفي تقدير أنس كامل أن اليهود والإمبريالية العالمية تحالفوا لإضعاف الجانب الاقتصادي والسياسي المصري، وعدهم المؤلف شيئًا واحدًا، لكن بنيين يعتقد أن أنس كامل يضخم الدور اليهودي في الاقتصاد المصري، والذي كان باعتراف الجميع أكبر بكثير جدًا من نسبة اليهود إلى عدد السكان، لكنه مع ذلك لم يكن المسيطر بهذه الصورة، ويلخص بنيين أيضًا رسالة دكتوراه لنبيل سيد أحمد الذي أجرى بحثًا دقيقًا ومستفيضًا في ملفات مصلحة الشركات، وقال نبيل إن اليهود المصريين تمتعوا بحرية تامة وحياة اقتصادية مريحة، ولم يتعرضوا لأي اضطهاد أو سوء معاملة حتى عام (1948).

• كامل أنيس مصطفى –تاريخ الرأسمالية اليهودية في مصر ـ الأهرام الاقتصادي ـ عدد 23 مارس – 4 مايو (1981).

ويعترض بنيين على مقولة نبيل سيد أحمد "إن رجال الأعمال اليهود المصريين ساهموا في بناء دولة إسرائيل على أرض الوطن الفلسطيني". ويعتقد بنيين –ويؤيده في ذلك الكثيرون ـ أن إسرائيل قامت على أكتاف اليهود الأشكيناز الأوروبيين، ولم تقم على مجهودات اليهود السفارديم من بلاد الشرق، ومنها مصر، وقد شكل السفارديم من البلاد العربية كتلة بشرية ساعدت في رفع أعداد القوى العاملة وأفراد الجيش بعد تكوين إسرائيل وليس قبلها، لكن مساهمتهم في الاقتصاد الإسرائيلي كانت محدودة ويضرب مثلاً بشركة المحاريث والهندسة التي شارك فيها كوربيل الأب وقطاوي وموصيري، وكانت شركة اقتصادية مصرية ناجحة ومهمة للاقتصاد الصناعي والزراعي المصري أولاً وأخيرًا. وكان رأي • سهام نصار وعواطف عبد الرحمن وأنس مصطفى

● موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (1897-1917) سهام نصار، الهيئة المصرية للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين (1993).
الصحافة الصهيونية في مصر (1897-1954) عواطف عبد الرحمن، دار الثقافة الجديدة (1980).

ونبيل سيد أحمد الباحثين في هذا المجال، أن الاقتصاد كان يمكن أن يقوم فقد على أيدي رجال الأعمال من البورجوازية المصرية بعد القضاء على الإقطاع، ويقول كثير من الناصريين وروافد كثيرة من الوطنيين المصريين إن التحالف بين الإقطاع ورأس المال الغربي لم يدفع بالصناعة إلى الإمام، لذا كان طلعت حرب في تحرير الاقتصاد المصري مثالاً مهمًا. ويعتقد بنيين أن هذه المجموعة من الباحثين وضعت اليهود المصريين والأجانب المتمصرين من الاقتصاديين في سلة واحدة غرضها السيطرة على الاقتصاد لمصلحتها وضد مصلحة الوطن.

الاستعمار الاقتصادي

يقول بنيين "إن معظم اليهود المصريين الأصليين في القرن التاسع عشر كانوا فقراء مثل بقية المصريين من مسلمين وأقباط، لكن كانت هناك موجة هجرة من اليهود السفارديم من حوض البحر الأبيض المتوسط الذين يعرفون الفرنسية، وتعلمها أولادهم في المدارس الفرنسية، ثم أعطوهم الخبرة بالتجارة والعلاقات الوثيقة مع العالم الخارجي، وبذا تراكمت الخبرات التي هيأت لهم التفوق في فنون التجارة وأعمال

المصارف على أقرانهم من المصريين المسلمين والأقباط".

وصارت لهم أيضًا علاقات وطيدة مع البيوت التجارية الأجنبية، وحمل الكثيرون منهم جوازات سفر أجنبية أعطتهم مميزات كبيرة في التجارة الدولية.

على أن تحكم الكثيرين من اليهود في نسبة كبيرة من الاقتصاد المصري –حسب رأي بنيين ـ لا يعني أنهم كانوا متواطئين مع الصهيونية العالمية، بل بالعكس، فهو يعتقد أن اليهود الأغنياء من أصحاب الأعمال في مصر كانوا يرفضون الصهيونية بشدة.

● ويعتقد عاصم الدسوقي أن ملاك الأراضي من الإقطاعيين المصريين مسلمين وأقباطًا هم الذين بدءوا الصناعة في مصر، وهم الذين ساهموا في بنك مصر، وأن اهتمام اليهود الأكبر كان بالتجارة، وأن إلغاء المميزات الممنوحة للأجانب عام (1937) أدى إلى تمصير كثير من الأعمال لتصبح مصرية، ويعتبر روبرت فيتاليس أن طلعت حرب لم تكن عنده خطة لمحاربة الاقتصاد الأوروبي في مصر، بل كانت

● نحو فهم طريق مصر الاقتصادي والاجتماعي ـ عاصم الدسوقي ـ دار الكتاب الجامعي (1981).

خطته تقوم على التعاون معهم، كما هو واضح في مشاركته لشركات أجنبية أوروبية، ويعتقد أيضًا أن الكثير من المتمصرين الأجانب تعاونوا مع رجال الصناعة والتجارة المصريين مثل أحمد عبود باشا.

قصة اليهود مع الصناعة المصرية

يعتقد موريس مزراحي "أن اليهود لعبوا دورًا مهمًا في تنمية الاقتصاد المصري"، وذكر عدد الشركات التي أنشأها اليهود المصريون في الفصل الذي كتبه في كتاب شامير السفير السابق لإسرائيل في القاهرة، فقال: "إن شيكوريل أسس سلسلة متاجر شيكوريل وأريكو، وساهمت العائلة في تأسيس بنك مصر"، وكان شيكوريل عضوًا في مجلس إدارته، وعضوًا في الوفد المصري الذي توجه إلى السودان لتنمية العلاقات التجارية بين مصر والسودان، وكان شيكوريل الأب رئيسًا للغرفة التجارية المصرية وقاضيًا في المحكمة المختلطة، وكان شيكوريل الابن آخر رئيس للجالية اليهودية في مصر قبل انقراضها.

وأنشأ سوارس بنكًا، وقام بإصلاح آلاف الأفدنة وزراعتها وبيعها للفلاحين. كما أنشأ أول خط مواصلات داخل القاهرة،

وقد سمى أحد ميادين القاهرة المهمة باسمه، لكنه تغير عام 1922 إلى ميدان مصطفى كامل، وكانت أول شخصية مشهورة من عائلة قطاوي تعود إلى القرن السابع عشر هو يوسف بن إسحاق قطاوي، وقد ألف كتابًا من جزأين عن تاريخ الأسبان، وتاريخ مصر بالعبرية من القرن السادس حتى القرن السابع عشر، وابنه يعقوب قطاوي كان صراف عباس حلمي الأول، واستمر في الوظيفة نفسها في عهدي سعيد وإسماعيل. وفي الجيل التالي يأتي موسى قطاوي باشا الذي كان صاحب بنك ورئيسًا لعدد من الشركات، وقام بتأسيس خط سكة حديد أسوان وشرق الدلتا وشركة ترام وسط القاهرة، وقام ابنه يوسف بتأسيس بنك مصر. كما كان عضوًا في الجمعية التشريعية عام (1915)، وانتخب عن دائرة كوم أمبو في البرلمان الأول بعد ثورة (1919)، وذلك عام (1924)، وعين وزيرًا للمالية عام (1925) وفي العام نفسه اضطر يوسف قطاوي إلى الاستقالة من وزارة أحمد زيور، بسبب إرساله برقية تهنئة بعيد الفطر إلى صديقه سعد زغلول، الأمر الذي أغضب الملك، فآثر قطاوي الاستقالة والاحتفاظ بعلاقات جيدة مع الملك وسعد زغلول.

ثم أصبح قطاوي وزيرًا للمواصلات عام (1927) ثم عضوًا في مجلس الشيوخ حتى وفاته، وخلفه أصلان قطاوي مديرًا للمشروعات الكثيرة للعائلة، وخلف والده عضوًا في مجلس الشيوخ.

كانت عائلة منشه من أصل نمساوي، عاشت في الإسكندرية وحضر عميدها إلى مصر أثناء افتتاح قناة السويس. وبدأ حياته صرافًا في الجيزة ثم اشترك في مشروعات كثيرة.

وكانت عائلة موصيري الشديدة الثراء هي التي أنشأت بنك موصيري الذي كان متخصصًا في الإقراض الزراعي الصناعي. وأنشأت عائلة رولو من الإسكندرية بنك التعمير وسكة حديد حلوان، وأصبح عميدها مديرًا عامًا لبنك مصر.

وكانت توجد عائلات كثيرة يهودية غنية أخرى مثل عائلات إدا وهراري ويوليتي وغيرها.

ومن هذا يتضح أن اليهود المصريين أخذوا الفرصة الكاملة في العمل بحرية في الاقتصاد المصري، وصحيح أنهم أقاموا مشروعات ناجحة، إلا أنهم حققوا أرباحًا طائلة رفعتهم من مصريين فقراء أو متوسطي الحال إلى أكبر أغنياء الوطن، ومع ذلك لم يندمجوا مع المصريين ويذوبوا فيهم كما ذابت

أجناس كثيرة عاشت في مصر.

وفي أربعينيات القرن العشرين مع تغير الظروف في فلسطين، وتغير القوانين في مصر التي أصبحت تساوي بين الجميع، وتعطي الأفضلية في الوظائف للمصريين فقد انخفضت الشركات المصرية في البورصة –والتي كان لليهود حق إدارتها ـ إلى نحو 15٪ عام 1943 ثم إلى 9.6٪ عام 1951 والكثير من الشركات في مصر كان يملكها ويديرها الكثير من الأرمن والإيطاليين واليونانيين والسوريين والمصريين من المسلمين والأقباط واليهود، لكن تمثيل اليهود في الشركات كان بالطبع أكبر كثيرًا من نسبة عددهم في السكان، وواضح من دراسة تاريخ الشركات في مصر أن الكثير من المصريين مسلمين وأقباط تعاونوا مع اليهود المصريين بوصفهم رجال أعمال مثل بقية المصريين.

أصول البرجوازية اليهودية في مصر

يعتقد بنيين أنه منذ عهد الإمبراطورية العثمانية اعتمد رجال الأعمال الفرنسيون على اليهود المحليين في المشاركة في إدارة أعمالهم، وقد حصل الكثير منهم على الجنسية الفرنسية، وبعد فترة أصبح معظمهم من رجال الأعمال

المرموقين، وكان يوسف قطاوي باشا رئيسًا لطائفة السفارديم في فترة ما بين الحربين العالميتين، وبعد أن درس الهندسة أقام مشروعًا ضخمًا ومهمًا لزراعة القصب وصناعة السكر في كوم أمبو، وكان شريكًا في كثير من المشاريع الأخرى مع عائلة سوارس.

وقد بدأ طلعت حرب عميد الاقتصاديين المصريين عمله في الدائرة السنية ثم في دائرة أعمال قطاوي وسوارس، ثم مديرًا لمشروع كوم أمبو، واحتفظ طلعت حرب بعلاقته الوثيقة معهما بعد أن أصبح عضوًا في اللجنة التقديرية للغرفة التجارية مع يوسف شيكوريل ويوسف قطاوي، وعندما أنشأ طلعت حرب عام (1920) بنك مصر شاركه يوسف قطاوي وأصبح نائبًا للرئيس. يقول قطاوي باشا: "إن أصوله المصرية ترجع إلى القرن الثامن الميلادي، وتحت قيادته كان مجلس طائفة السفارديم يتخذ موقفًا مناهضًا للصهيونية". وقد كانت علاقة قطاوي باشا بالقصر وثيقة وحصل على الباشوية، وكان عضوًا في مجلس النواب وفي اللجنة التي كتبت مشروع دستور (1923) وكان وزيرًا وصديقًا لسعد زغلول، وعين في مجلس الشيوخ عام (1927) وكانت

زوجته (أليس سوارس) هي أشبين زواج الملكة نازلي من الملك فؤاد، والملكة فريدة من الملك فاروق.

ولم يكن قطاوي وفديًا، لكنه حافظ على صلة شخصية مع زعماء حزب الأغلبية، وكان توجهه الأساسي الاقتصاد.

ونشأ ابناه أصلان بك ورينيه بك مرتبطين بمصر والعائلة المالكة، وقد استمر ابناه عضوين في مجلسي النواب والشيوخ حتى عام 1953، وطالب ابنه الذي خلف والده في رئاسة طائفة اليهود المصريين بالاندماج في الوطن الأم مصر، ووزع منشورًا قال فيه "إن مصر هي بلادنا والعربية لغتنا، وطالب اليهود بالاشتراك في الحياة السياسية والثقافة المصرية، وكان رينيه قطاوي من أشد المناهضين للصهيونية، وقد شاركت عائلة قطاوي عائلات مصرية كثيرة في مشروعات اقتصادية".

مثال آخر هو ميرنو شيكوريل الذي هاجر من أزمير في منتصف القرن التاسع عشر، واشترك مع طلعت حرب في مشروعاته، واشترك في عضوية المجلس الأعلى لأصحاب الأعمال، أما سلفاتور شيكوريل فقد كان كابتن فريق الشيش المصري في أولمبياد 1928 وساهم بنشاط كبير في جالية

السفارديم، ولم يكن مهتمًا بأمور الصهيونية، وأسس سلسلة محلات شيكوريل وأريكو، التي كانت أكبر وأهم المحلات المصرية للملابس، وهاجرت العائلة إلى فرنسا عام 1957، ونظرًا للموقف الاجتماعي والاقتصادي الكبير لهذه الطبقة اليهودية لم تغادر مصر إلا بعد أن أصبح استمرارها مستحيلاً بعد عدوان 1956.

الحالة الاقتصادية والاجتماعية لليهود المصريين

منذ بدء حكم إسماعيل، وخلال الفترة الأولى من الاحتلال البريطاني، كان القانون واضحًا في إعطاء مميزات للأجانب في مصر، وقد أدى ذلك إلى تحسين أوضاعهم وفرصهم في العمل والربح مقارنة بالمصريين.

ومنذ ظهور القطن المصري طويل التيلة عام 1820، وازدهار زراعة قصب السكر والتصدير الزراعي لكلا المنتجين ظهرت الحاجة إلى وسطاء يعرفون اللغات الأجنبية ولهم اتصالات لتسهيل التعامل، وقد استفادت الجاليات الأجنبية كلها من ذلك، وضمنها الجالية اليهودية التي كان الأغنياء منها يعدون جزءًا من الجاليات الأجنبية، بالرغم من أنهم كانوا مصريين بالمولد والجنسية. وقد أعطت مصر

الأمان والحرية والفرصة الهائلة في التقدم الاقتصادي لليهود بعد طول حرمان في البلاد التي جاءوا منها. وساعد اليهود شبكة علاقاتهم العائلية الدولية ومعرفتهم باللغات ومستوى تعليمهم المرتفع عن بقية المصريين. وهكذا أصبحت مصر الدجاجة التي تبيض ذهبًا لليهود، وبعد أن كانوا مهمشين في البلاد التي هاجروا منها أصبحوا مواطنين فوق العادة في مصر، ولهم مميزات تفوق بكثير ما لدى المصريين أصحاب البلاد.

وقد تغير نظام التعليم عند اليهود في مصر من التعليم التقليدي للمصريين إلى التعليم الغربي، وذلك بمساعدة مدارس الليسيه الإسرائيلية الفرنسية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتى بداية الأربعينيات من القرن العشرين استمرت هذه المدارس في القيام بعملها في المدن والريف المصري في بلاد مثل طنطا وغيرها، وكان معظم اليهود يرسلون أولادهم إلى هذه المدارس الإسرائيلية، حيث يتعلمون الفرنسية، إلا أن كبار الأغنياء كانوا يرسلون أولادهم إلى المدارس الأجنبية الكاثوليكية. وفي عام 1947 كان انتشار التعليم بين اليهود قد أدى إلى انخفاض الأمية بين

اليهود المصريين إلى 5٪ مقارنة بالنسبة المرتفعة جدًا عند المسلمين والأقباط.

ونتج عن ارتفاع مستوى التعليم أن بدأت بعض العائلات اليهودية تكسب مبالغ طائلة من أعمال الصرافة والبنوك، مثل قطاوي وموصيري ومنشه وسوارس وأجينيون،ووظفوا لديهم موظفين يهودًا في معظم الوظائف المتاحة لمساعدة أبناء الجالية من ناحية، ولأنهم الأكثر تعلمًا ومعرفة باللغات من ناحية أخرى.

وقد اشتركت بعض هذه العائلات –بمساعدة رأس مال فرنسي ـ في شراء أجزاء كبيرة من الأراضي المملوكة للأسرة المالكة. فقد اشتروا ما يقرب من نصف مليون فدان، وأقاموا مصانع تكرير السكر. وقد أدار هنري ناعوس اليهودي البريطاني الجنسية –الذي أصبح فيما بعد السير فكتور هراري ـ مشروع كوم أمبو للسكر بكفاءة عالية، حتى أصبح يسيطر تمامًا على إنتاج السكر في مصر. ويعتقد بنيين أن شركة السكر تطورت اقتصاديًا في الملكية والإدارة. لتصبح في معظمها مصرية عام 1947 ويرجع تأميم الشركة في مرحلة لاحقة بعد الثورة يرجع إلى خلاف بين الحكومة

وعبود باشا، وليس له علاقة بملكية يهودية أو أجنبية للشركة. وأنشأ سوارس شركة لنقل المواطنين في مصر، وكذلك خطوط حلوان ومصر وأسيوط وقنا وأسوان للسكة الحديدية. وصعدت عائلة موصيري سلم الاقتصاد بسرعة وأسست بنكين، واشتركت في إدارة نحو 30 شركة كبرى، وقد كان إيلي موصيري صديقًا لإسماعيل صدقي باشا الذي عينه عضوًا في المجلس الاقتصادي المصري. وقد ساعد التزاوج بين العائلات الغنية اليهودية على زيادة الثروة بتحالف رأس المال بين الشركات المختلفة. وقد أسس جوزيف فتا شركة جوزي فيلم عام 1915، وهي الشركة التي أنتجت عددًا كبيرًا من الأفلام المصرية المهمة.

وحتى العائلات اليهودية الشرقية التي هاجرت إلى مصر حديثًا نسبيًا في منتصف القرن التاسع عشر –مثل شملا وشيكوريل ودويك وحاييم ومزراحي ونجار وبتشتو ورمانو وستون وشالوم وسموحة وتوريل وهانو وأروزدي باك وجاتينيو وسيمون أزرت وكوهينيكا أصحاب الصالون الأخضر– استطاعوا كلهم أن يصبحوا من كبار الأغنياء في فترة قصيرة من التجارة، بعد أن امتلكوا جميع متاجر وسط

المدينة ما عدا صيدناوي، وصعدت عائلة شيكوريل سلم الثروة بسرعة فائقة خلال الجيل الثاني. وقد صعد السلم الاجتماعي أجانب آخرون غير اليهود مثل إخوان صيدناوي، وهم من الكاثوليك الشوام.

وكان عدد المحامين اليهود في المحاكم المختلطة اثنين وثمانين محاميًا، أي 14٪ من مجموع المحامين عام 1930، على حين كان هناك محام يهودي واحد في المحاكم المصرية، وقد كان هناك عدد كبير من اليهود المصريين ضمن الوفد المصري في مباحثات معاهدة منترو لإلغاء الامتيازات الأجنبية، منهم المحامي اليهودي زكي عريبي الذي عينه عبد الناصر بعد ذلك في لجنة وضع الدستور، وسيطرت الجالية اليهودية على كل المحلات الصغيرة ومحلات الملابس والمجوهرات سواء في الموسكي أو في وسط القاهرة الحديثة، وكثير منهم كانوا عمالاً فنيين، خاصة اليهود الأشكيناز، وبالرغم من كل ذلك كان ثلث يهود الحارة في ذلك الوقت يعانون من البطالة، وكذلك كان اليهود في الدلتا قد بدأوا يعانون من الفقر والبطالة. وقد ارتفعت الفجوة الاقتصادية بين اليهود الفقراء واليهود الأغنياء، لكن تدريجيًا

ظهرت طبقة متوسطة يهودية تدير المحلات الصغيرة وتعمل في البنوك والشركات اليهودية، وبدأت تطالب بإصلاح أوضاع الجالية ورفع مستوى التعليم ومساعدة الفقراء منهم.

• كانت سلسلة مقالات أنس مصطفى كامل في (الأهرام الاقتصادي) مهمة جدًا، وأوضحت بعض النقاط الغامضة، فقد كانت هناك خلافات كثيرة حول تقدير دور ونسبة الملكية والإدارة اليهودية في الاقتصاد المصري، والتي وصلت ذروتها في فترة ما بين الحربين العالميتين، ويعتقد أنس أنها كانت تتراوح بين 15، 20 بالمائة لليهود المصريين، وكان الأوروبيون يملكون نحو ثلاثين بالمائة، لكن كان منهم بعض اليهود أيضًا، وامتلك الشوام والأرمن واليونانيون نحو عشرين بالمائة، أي أن المصريين كانوا يملكون ويديرون ما لا يزيد على ثلاثين بالمائة من الاقتصاد المصري. وبعيدًا عن الملكية كان اليهود يتحكمون تمامًا في البورصة، وكان عدد العاملين منهم في بورصتي القاهرة والإسكندرية يتراوح

• أنس مصطفى كامل –تاريخ الرأسمالية اليهودية في مصر ـ الأهرام الاقتصادي ـ عددي 23 مارس – 4 مايو عام 1981.

بين خمسة وسبعين وتسعين بالمائة، وكذلك كانت شركات التأمين تدار بالكامل بواسطة اليهود، وبعيدًا عن التجارة وشركات السكر وشركات الخدمات لم يكن اليهود مهتمين بالصناعة التي انتعشت بين الحربين.

وفي عينة عشوائية قامت بها إسرائيل لدراسة الأعمال التي كان يقوم بها المصريون قبل هجرتهم إلى إسرائيل تبين أن 11٪ لم يكن لديهم عمل، و15٪ كانوا يعملون في قطاع الخدمات، 30٪ في التجارة، و44٪ مهنيون ومديرون مسئولون.

ويبدو أن كلا من الإحصائيات المصرية والإسرائيلية غير دقيقة وغير معبرة عن حقيقة الوضع، لأن طبقة اليهود المصرية الغنية والمثقفة والمهنيين وأصحاب الشركات ذهب معظمهم إلى أوروبا وأمريكا، ولم يذهبوا إلى إسرائيل.

يقول مايز: "إن دراسة أنس مصطفى كامل في (الأهرام الاقتصادي) اتهمت اليهود المصريين بأنهم استغلوا القوانين المميزة للأجانب، واستفادوا منها في جمع أموال طائلة ويعتقد أنس كامل –مثل تيار كبير من اليسار المصري ـ أن كبار أغنياء اليهود ساندوا الصهيونية، وشاركهم في ذلك

بعض الباشوات من رجال الأعمال والسياسيين المصريين، مثل أحمد زيور وعدلي يكن وإسماعيل صدقي وحسين سري، وذلك باتخاذ الحكومة المصرية والمسئولين فيها قرارات مساندة للشركات اليهودية لزيادة أرباحها".

ويقول أنس: "إن اليهود استمروا في سياسة مساعدة الصهيونية حتى بعد عام 1948 وإلى منتصف الخمسينات، حين أممت ممتلكاتهم بعد أن هَربوا معظم أموالهم إلى الخارج".

وقال أنس كامل في دراسته أيضًا: "إنه في منتصف الستينيات لم يتبق في مصر إلا 1500 يهودي، معظمهم من رجال المعاشات، وبعضهم من الفقراء البسطاء الذين لم تهتم بهم حكومة إسرائيل". ويعتقد أنس وكثير من الذين علقوا على الدراسة أن الخطر الاقتصادي الإسرائيلي ما زال قائمًا، بل وربما تبدأ سلسلة جديدة منه بعد معاهدة السلام، وقد تؤدي إلى إضعاف الاقتصاد المصري. ويقول ماير: "إنه على العكس من أنس فإن • المؤرخ المصري عبد العظيم

• القضية الفلسطينية بين مصطفى النحاس وعبد الناصر – عبد العظيم رمضان ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة

رمضان يرفض هذه الآراء، ويقول: "إن اليهود كان لهم دور في الاقتصاد المصري له أهميته وحجمه، لكن يجب عدم المبالغة فيه".

ويقول ماير: "إن الرأي العام المصري يؤمن بنظرية المؤامرة التي تسخر اليهود في العالم كله لخدمة الهدف اليهودي والدولة الصهيونية. وفي تقدير ماير أن الكتاب اليساريين هم الوحيدون الذين تفهموا أن اليهود المصريين لم يكونوا نسيجًا واحدًا، ويقول ماير إن المصريين عدوا اليهود المصريين وحدة واحدة تأتمر بأوامر الصهيونية، على حين أنهم عدة أنسجة وطبقات وأصول عرقية ويتكلمون لغات مختلفة، ولا يمكن جمعهم في مصطلح (اليهودي المصري)، وبالرغم من ذلك يعتقد ماير أن صورة اليهودي المصري في وسط الشعب المصري كانت صورة إيجابية، حيث عرف بأنه أمين ونشيط وموهوب.

أقام معظم اليهود في القاهرة والإسكندرية. إلا أنه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى كانت هناك جاليات يهودية في مدن الدلتا، خاصة طنطا والمنصورة والمحلة الكبرى والسنبلاوين

.2003

والزقازيق وزفتى، ونظرًا لتدهور الأحوال الاقتصادية في هذه المناطق بعد نهاية الحرب العالمية الأولى أخذ الأغنياء ومتوسطو الحال يهاجرون من هذه المدن إلى القاهرة والإسكندرية، ولم يبق فيها إلا الفقراء.

موسى قطـاوي باشـا رئـيس الجاليـة اليهوديـة والاقتصادي الكبير

موسى قطاوي باشا (1849-1924) من أهم الشخصيات في تاريخ عائلة قطاوي، وقد تولى مناصب خطيرة، واستطاع أن ينمي الإمبراطورية الاقتصادية للعائلة، وأسس مدرسة قطاوي، التي تعلم فيها الكثير من أولاد الفقراء والعائلات المتوسطة من اليهود المصريين، ويعد عند الكثير من المؤرخين من الشخصيات اليهودية التي أثبتت انتماءها إلى مصر، إلا أنه من الغريب أن قطاوي هرب من مصر مع زوجته لمدة قصيرة عامي 1881، 1882 أثناء ثورة عرابي، وذهب إلى نابولي وعاد بعد إجهاض الثورة.

ومما لا شك فيه أن هروب موسى قطاوي باشا القطب الكبير لعائلة قطاوي والزعيم الأكبر للجالية اليهودية المصرية يحمل دلالات كثيرة، أولاها أنه تخلى عن الشعب المصري حين

قامت ثورة الجيش المصري التي أيدها الشعب المصري كله، وعدها طريقًا للخلاص من أسرة خديوية فاسدة فرطت في ثروة البلاد، وباعت الشعب وممتلكاته بأبخث الأثمان للأجانب من كل نوع، وقد غادر قطاوي باشا مصر إلى أن تتضح الأمور، وهذا يعني أن وضعه ومكانته في مصر كانا مرتبطين بوجود نفوذ أجنبي وأسرة مالكة فاسدة، فقد كان قطاوي مثل كل أغنياء اليهود مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالعائلة المالكة، وبالتأكيد كان هناك آلاف المهاجرين إلى مصر في القرن السابع عشر، وهي نفس الفترة التي هاجر فيها قطاوي إلى مصر، وكلهم كانوا قد أصبحوا مصريين تمامًا في نهاية القرن الثامن عشر، مثلهم مثل قطاوي، ولا شك أنهم أيدوا عرابي واستقلال مصر مثل كل المصريين، فلماذا يهرب اليهودي المصري عندما تطالب مصر بالاستقلال؟ وفي تلك الآونة لم تكن هناك مشكلة في فلسطين، ولم يكن هناك سبب يدعو قطاوي إلى التخلي عن وطنه، إلا إذا كان لم يعد نفسه مصريًا صميمًا، وعلى النقيض من ذلك كان هناك اليهودي المصري ابن البلد يعقوب صنوع الذي أيد عرابي ودافع عن مصر والمصريين، ونفي من مصر بعد ذلك، وأخذ يدافع

عنها في باريس. هل الفارق بين قطاوي باشا المصري الغني ذي النفوذ الكبير ويعقوب صنوع المصري الفقير المثقف هو أن صنوع ارتبط بأهل البلد وأحس بهم وعاش معهم، على حين أن قطاوي ارتبط بالأجانب في مصر، وارتبط بالأسرة المالكة ولم يعنه الشعب في شيء ولم تكن مصر تعنيه إلا مصدرًا لزيادة دخله؟

إن حادث هجرة قطاوي غير معروف، وقد عثرت على وثائق هذه الهجرة بالمصادفة، ولم تذكرها معظم كتب التاريخ التي تناولت تاريخ اليهود في مصر، وكانت تلقي ظلالاً من الشك على موقف قطاوي، الذي كان دائمًا مع الشعب المصري، وضد إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

اليهود والثقافة المصرية

من المعروف أن لليهود الأوروبيين والأمريكيين تأثيرًا ثقافيًا كبيرًا في البلاد التي يعيشون فيها، يفوق بمراحل نسبة عددهم في المجتمعات الأوروبية أو الأمريكية، كما أن لهم تأثيرًا في الاقتصاد والإعلام أكبر بكثير من حجمهم في المجتمع لكننا إذا درسنا بهدوء التأثير الثقافي لليهود المصريين في مصر، فسنجد أنه في مجموعه كان هامشيًا وغير مؤثر في تاريخ

الثقافة المصرية، على عكس التأثير اليهودي القومي في الاقتصاد المصري، والسبب في ذلك يبدو لي واضحًا، لأنه كان يمكنك أن تنتج اقتصادًا متقدمًا وتقوم بتجارة ناجحة باللغة الإنجليزية أو الفرنسية في النصف الأول من القرن العشرين، ولا يلزم لذلك أن تكون جزءًا من نسيج المجتمع المصري، ولا حتى أن تتعرف على مشاكله، ويكفي أن تدرس السوق المصرية لتعرف المطلوب استيراده أو تصنيعه أو تصديره، وكيف يمكن التفاهم مع أعوانك في الحكومة المصرية حتى يساعدوك بلوائح وقوانين مناسبة لعملك وتنظيم اتصالاتك مع رجال الأعمال الأوروبيين.

أما حين نتحدث عن الثقافة فلا يمكن لأي إنسان أن ينتج ثقافة تمثل أي شعب بدون أن يكون جزءًا من هذا الشعب الذي عايشه وشعر بآلامه وآماله، فكيف يمكن لليهود المصريين أن ينتجوا فنًا أو ثقافة وهم في معظمهم كانوا من نسيج مختلف ولم يندمجوا في شعبهم؟ وذلك باستثناء اليهود المصريين الأصليين الذين عايشوا الشعب المصري وعاشوا معه.

فلنأخذ أولاً اليهود المصريين من الأشكيناز الذين كانت

ثقافتهم هي ثقافة أوروبا الشرقية، وكانت موسيقاهم هي الموسيقى الأوروبية، ومعظمهم لم يقرأ بالعربية، والبعض لم يكن حتى يتكلمها، بالرغم من أنه ولد وعاش في هذا البلد، لذا إذا رجعنا إلى كل ما أنتجه اليهود المصريون من ثقافة فلن نجد أي مشروع ثقافي أو إنتاج أدبي في القصة أو الشعر أو الموسيقى أو أي شيء آخر من طائفة الأشكيناز.

أما طائفة السفارديم – فكما سبق أن بينا ـ فإن منهم اليهود المصريين الأصليين، ومنهم من هاجر إلى مصر في فترات لاحقة، وهذه المجموعة التي وفدت في القرنين التاسع عشر والعشرين كانت لغتها الأصلية في الأغلب الفرنسية، وكانت ثقافتها فرنسية، فهي تقرأ وتفكر بالفرنسية وتستمع إلى الموسيقى الأوروبية، لذا لم تنتج أيضًا شيئًا مهمًا في الثقافة المصرية، والمحاولات الروائية والأدبية كانت تكتب بالفرنسية أولاً، وبعد ذلك بالعبرية لمن هاجر منهم إلى إسرائيل، وسوف نتعرض لهذا الأدب فيما بعد.

أما اليهود المصريون الأصليون فهم الوحيدون الذين كانوا مؤهلين لإنتاج ثقافة مصرية، لكن حتى الكثير من هؤلاء قد تمت صياغة عقولهم بتعليم مختلف وثقافة مختلفة تحت

التأثير الصهيوني العالمي في الربع الثاني من القرن العشرين، وأصبح نتاج الفترة يهودًا مصريين، لكن غير أصليين، لأنهم فقدوا قدرتهم على القراءة بالعربية، وفقدوا العلاقة الحميمة مع الشعب المصري الأصيل، وأصبح تعاملهم الأساسي مع اليهود الخواجات، ومع الخواجات من غير اليهود.

يبقى من كل ذلك بعض اليهود المصريين الأصليين الذين لم تطلهم التأثيرات والتغيرات المهمة التي حدثت لليهود المصريين، وسوف نذكر أمثلة لهم:

يعقوب صنوع 1839-1912

يعد الكثيرون يعقوب صنوع (أبو نظارة) (1839 ـ 1912) أهم الشخصيات اليهودية المصرية التي أثرت في الثقافة المصرية، فيعقوب صنوع يهودي مصري من اليهود السفارديم، وكان متعدد المواهب ومعجونًا بطين مصر، يقول شمويل موريه: "إنه الشخصية اليهودية الوحيدة في التاريخ المصري التي كان لها وجود شعبي وثقافي وسياسي في مصر والشرق الأوسط كله". ويتعجب موريه لأن صنوع انتقد بعض العادات الإسلامية، وانتقد أيضًا الحكام

المصريين، وكذلك الحكام المسلمين عمومًا، مثل الخديو توفيق والخديو إسماعيل، وانتقد كذلك القوى الأجنبية، وبالذات بريطانيا العظمى، وكانت صحيفته الفكاهية تتندر على خديو مصر. ويعتقد موريه أن شجاعة صنوع فائقة لكونه يهوديًا، ولأنه كان من المحتمل في القرن التاسع عشر أن يضطهد اليهود في العالم الإسلامي بهدف تخويف الآخرين، لذا كانوا يأخذون جانب الحذر. ويؤيد مقولته بكتاب إدوارد لين عن عادات وتقاليد المصريين. ويدعي موريه نقلاً عن د.إبراهيم عبده المؤرخ المصري "أن السبب في شجاعة صنوع ربما كان تحوله إلى الإسلام". ويبذل موريه مجهودًا كبيرًا في إقناع القارئ بأن حكاية إبراهيم عبده عن تحول صنوع إلى الإسلام غير حقيقية. والواقع أن جميع الكتاب والمؤرخين اعتمدوا في دراسة سيرة صنوع على أوراقه المحفوظة في جامعة باريس، وعند حفيدته المقيمة في باريس. وفي اعتقادي أن موضوع تحول صنوع إلى الإسلام أو بقائه يهوديًا ليس له أهمية على الإطلاق، وأن الأمر في تقديري هو أن صنوع مصري صميم بغض النظر عن ديانته، الإنسان يعبر عن مكنونه وهويته وحبه لوطنه، ما دام

مرتبطًا ارتباطًا ذهنيًا ونفسيًا بهذا الوطن في كل زمان ومكان، وفي هذا الأمر لا يعد الدين العامل الجوهري في تحديد مفهوم الوطنية والمواطنة، فمثلاً هناك بعض المسلمين المصريين من دعاة القومية الإسلامية أو الدولة الإسلامية الكبرى التي تأتي في المقام الأول، ثم تأتي مصر في المقام الثاني، على حين أن هناك أغلبية من المصريين يؤمنون بالوطنية المصرية أولاً، ولها بالطبع روافد عربية أو إسلامية أو قبطية، فالمهم أن يعبر الإنسان عن وطن يحبه ويرتبط به، ويعد هذا البلد المكان الذي يسبح فيه، وإذا خرج منه يفقد نفسه، حتى لو خرج إلى عالم فيه حرية أكبر ورخاء أكثر وأمان تام. والوطنيون المصريون – بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية أو عقائدهم الدينية ـ مرتبطون بالوطن، يفكرون فيه ويحلمون به ويتواصلون مع مواطنيه، حتى وهم في المنفى.

وعندما انتقد صنوع حكام مصر واستبداد الحكام المسلمين، وبعض العادات القبيحة للمسلمين، كان ينتقدها بوصفه مصريًا مثل أي مصري مسلم أو قبطي ينتقد مصر، ولو كان جزء من اليهود المصريين في القرن العشرين قد تصرفوا

مثلما تصرف صنوع ما كان قد حدث للجالية اليهودية ما حدث، ولتضامن معظم المصريين معهم لصالح الوطن. نعم، صنوع كان مصريًا وطنيًا مخلصًا من حقه أن ينقد ما يراه، لأنه كان يعرف جيدًا – وكان الجميع يعرفون أيضًا ـ أنه مصري أولاً وأخيرًا، لكنه يحمل الديانة اليهودية التي لا تحجب الصفة الوطنية عن المواطن مثلها مثل أي دين آخر، وقد نشر موريه خطابات صنوع المرسلة من باريس إلى مصر، وكانت هذه الخطابات مرسلة إلى الأمير حليم وإلى نيكولا رعد، وعدة خطابات أخرى مرسلة من وإلى إبراهيم المويلحي، وكلها تعبر عن حب كبير لمصر وارتباط شديد بالشعب المصري.

وقد كتب صنوع عددًا كبيرًا من المسرحيات الفكاهية من عدة فصول، عرض بعضها على المسرح في القاهرة قبل نفيه إلى باريس، وأرسل الباقي مهربًا إلى مصر، وكلها كانت تنتقد الحاكم والظلم الذي يلاقيه المصريون وكان النشاط الأكبر لصنوع هو الصحافة التي عمل بها في مصر ثم في فرنسا، وكلها تحض على الشجاعة وتحريض المصريين على الثورة والدفاع عن عرابي وثورته ضد الإنجليز، ويجب

ألا ننسى أن صنوع هو صاحب شعار (مصر للمصريين).
وتذخر المكتبة العربية بدراسات مفصلة عن يعقوب صنوع اليهودي الوطني المصري الذي لاقت أعماله الصحفية والمسرحية قبولاً شعبيًا فائقًا.

والخلاصة أن معظم الجالية اليهودية المصرية كانت لها علاقات بالثقافة الأوروبية، لذا لم يساهم في الثقافة العربية إلا أعداد قليلة من اليهود المصريين مقارنة بيهود البلاد العربية، حيث كانت لغة اليهود المصريين في معظمها الفرنسية، وكانوا يشتركون بالكتابة والنشر بالفرنسية، وكانت دراستهم أيضًا فرنسية، حتى فقدت اللغة العربية – وأيضًا اللغات اليهودية مثل اللادينو والييديش وكذلك الإيطالية ـ أهميتها لهم مقابل الفرنسية.

وهذا قد يفسر لماذا لم يقدم اليهود المصريون رمزًا كبيرًا في الأدب العربي في القرن العشرين مقارنة بيعقوب صنوع في القرن التاسع عشر، ولم يقدم اليهود المصريون شيئًا ذا قيمة حقيقية في الأدب أو الشعر أو المسرح المصري أو حتى النقد الأدبي أو الفني.

وحتى في ترجمة الأدب العالمي إلى العربية لم يلعب اليهود

دورًا مقارنة بالموارنة اللبنانيين المهاجرين إلى مصر الذين لعبوا دورًا مهمًا. وكان هناك بعض الأدباء من اليهود المصريين، لكنهم كتبوا بلغات أوروبية، مثل أدمون جابي في فرنسا وجاكلين كهانوف في إسرائيل.

مراد فرج

هناك مثال آخر نادر ليهودي مصري مثقف يكتب بالعربية هو مراد فرج، وهو من اليهود القرائين، ولد في القاهرة عام 1866، وتوفي فيها عام 1956 وكان شاعرًا ومؤلفًا وناقدًا.
كان مراد فرج محاميًا ومستشارًا قانونيًا للقصر الملكي، وقد توفي عن عمر يناهز التسعين عامًا، ونشر خمسة وعشرين كتابًا في حياته، وفي أوائل القرن العشرين كان فرج محررًا في جريدة لطائفة القرائين تسمى (التهذيب)، ونشر فيها الكثير من أوائل كتاباته، ثم بدأ ينشر في عدد كبير من المجلات والصحف المصرية. وبدأ أيضًا في نشر قصائده في صحيفة (الجريدة) التي كان يرأس تحريرها أحمد لطفي السيد، ونشر أيضًا في صحيفة (المؤيد) التي كان يحررها الشيخ علي يوسف، وكانت الصحيفتان من أهم الصحف في ذلك الوقت، وقد جمعت مقالاته وأشعاره في مجموعة من

الكتب نشرت بين عامي 1912، 1925 والكثير منها كان يتعلق بمذهب القرائين ومراجعات للشعراء اليهود الذين عاشوا في القرون الوسطى وكتبوا بالعربية، وترجم بالاستعانة بابنه توفيق طالب الحقوق في ذلك الوقت روايات عن الفرنسية منها "أمثال النبي سليمان" ورواية "حب صهيون".

وبالإضافة إلى كتبه عن طائفة القرائين له كتاب (مقالات مراد) فيه مقالات إصلاحية للمجتمع المصري، وبعضها فلسفية، والبعض الآخر عن موضوعات عامة، لكنها لا تعكس أي واقع أو رأي سياسي •. يقول سميخ في دراسته عن كتابات مراد فرج: "إن فترة كتابة المقالات الأولى كانت فترة عصيبة في تاريخ مصر، حدثت فيها مذبحة دنشواي وقتل بطرس غالي رئيس وزراء مصر، ولم يتعرض مراد لأي شيء من ذلك إلا في مقالة واحدة أسماها (حرب الوطن) نعى فيها بطرس غالي، ووصفه فيها بأنه بطل الوحدة القومية، ويذكر فيها أنه يجب على المسلمين المساواة بين جميع الأديان، ويرفض مبدأ بعض المسلمين الذين يؤمنون

• المصادر الأجنبية.

بأن رحمة ا   لا تطبق على غير المسلم، ويشكر أحمد لطفي السيد على شجاعته في نشر مقالاته مسلسلة في صحيفة (الجريدة)، وقد علق فيها على الآية القرآنية {ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم} وقال إن هذه الآية مدسوسة على القرآن من أعداء الإسلام، وأبدى لطفي السيد شجاعة بالغة في نشر هذه المقولة، لأنه كان مهتمًا بأن ينشر جميع الأفكار، ولأبناء جميع الأديان. وواضح أن فرج ليس عنده خلفية عن الفلسفة والكتابات الأوروبية التي كانت موجودة بكثرة في كتابات يعقوب صنوع وفرح أنطون ونيقولا حداد من معاصريه. ولا يمكن مقارنة مراد فرج بالمجددين اللبنانيين أو المصريين مثل قاسم أمين. وقد نشر أربعة مجلدات من شعره، بالإضافة إلى ديوان ديني سماه (القدسيات) يبدي فيه تفاعلاً وتأثرًا بالمشروع الصهيوني، ويتوجه إلى الإخوة المصريين، ليقول لهم إن المشروع الصهيوني حق لهم، ويجب ألا يقفوا في طريقه، والمجلد الأول كان عن الحب والموت والحياة والمصير وبعض الأخلاقيات، وقد نشر قصيدة بمناسبة المغادرة النهائية للورد كرومر، لا يمكن أن تقارن بقصيدة شوقي في هذه المناسبة. ونشر كتابًا عن الشعراء اليهود كتب

مقدمته إسماعيل أدهم، وقدم فيه دراسة لغوية عن الشاعر اليهودي السموأل، ونشر قصيدة موجهة إلى المسيحيين يطالبهم فيها بالابتعاد عن إراقة دم أطفال اليهود، بمناسبة حادثة بور سعيد عام 1902.

وفي المجلد الثالث توجد ثلاث قصائد تحية وتعاطف لأساتذة يهود حضروا من فلسطين إلى مصر بدعوة من الحكومة المصرية، وكثير من القصائد تحتفل بأبطال من التاريخ اليهودي، أو شعر مناسبات لافتتاح مدرسة أو مستشفى، وفي المجلد الرابع الذي نشر عام 1935 اللهجة الصهيونية إلا في قصيدة واحدة.

وكان لمراد فرج علاقة وثيقة بشعراء وأدباء مصر في ذلك الوقت، وقد أرسل أحمد شوقي بك قصيدة إلى شاعر الإسرائيلية مراد فرج نشرتها جريدة (الكليم) على الغلاف عام 1925، وقد أرسل مراد فرج قصيدة تحية لأمير الشعراء أحمد شوقي في (1927/5/2) والقصيدتان منشورتان في هذا الكتاب مع مجموعة الصحف والمجلات المصورة. وفي سنواته الأخيرة استمر في الكتابة، لكن في المواضيع الدينية واللغة العربية. ويقول سميخ إن مراد فرج

انتخب عضوًا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1936، واستمر عضوًا فيه حتى وفاته عام 1956 إلا أن الأستاذ رجاء النقاش كتب في عدد جريدة (الأهرام) يوم الأحد (2004/9/13) أنه كان هناك يهودي واحد في المجمع، هو الحاخام ناحوم، وأنه راجع سجلات المجمع فلم يجد اسم مراد فرج.

ومن المعروف أن كتابات مراد فرج وأشعاره الأولى في مطلع القرن العشرين كانت صهيونية التوجه والفكر، بالرغم من أن فرج من اليهود القرائين البعيدين عن الأفكار الصهيونية، وبرغم أن الأفكار الصهيونية لم تكن معروفة أو واضحة في ذهن اليهود المصريين في تلك المرحلة المبكرة، إلا أنه بمرور الوقت وبعد تفاقم القضية الفلسطينية اختفت النبرة الصهيونية، والحديث عن الوطن القومي لليهود في فلسطين من كتابات مراد فرج، وربما كان ذلك لأنه اكتشف أن الكتابة في هذه الموضوعات ربما تحدث شرخًا في علاقته بمصر وبأصدقائه المصريين، وأعتقد أنه حجب توجهاته الصهيونية التي كانت واضحة قبل ذلك، حتى لا يبدو في صورة المصري غير الوطني، وحتى لا تتعارض آراؤه مع

التيار الغالب من المصريين، وربما يكون قد آثر الاحتفاظ بأفكاره الصهيونية لنفسه. ويعد النقاد مراد فرج محاميًا أولاً وكاتبًا وشاعرًا ثانيًا، ومواهبه الأدبية والشعرية محدودة باعتراف الجميع.

هل هناك تأثير ثقافي آخر لليهود المصريين؟

كان اليهود القراءون هم الجزء الأساسي من اليهود المصريين الذين كانوا يجيدون اللغة العربية، وكانت هناك مجموعة من الكتاب تجتمع في المقهى وتسمي نفسها المدرسة الحديثة. يقول سميخ: كان ضمنها بعض اليهود، وكانت هذه المجموعة تضم يحيى حقي ومحمود تيمور وطاهر لاشين وحسين فوزي من كتاب القصة القصيرة، وكان أحد أعضاء هذه المجموعة طبيب يسمى شالوم بن مسعودة، وهو طبيب شاب من القرائين تكلم عنه يحيى حقي، وكان يسميه الفيلسوف والطبيب. وأود أن أعلق على الاهتمام غير الطبيعي بشخصية ذكرها يحيى حقي في أحد كتبه، وهي لشاب يهودي أطلق عليه اسم الفيلسوف، ولم نسمع عنه شيئًا بعد ذلك في أي مكان، ولم ينشر شيئًا وصل إلينا من أي مكان في العالم، ولهذا من الغريب أن يركز الباحثون

الإسرائيليون على مقولة عابرة ليحيى حقي، يهتمون بها لمجرد إثبات أن بعض شباب اليهود كانوا على علاقة بالأدب والثقافة في مصر، ويذكر المؤلف الإسرائيلي نفسه حكاية رواها أنيس منصور عن صالون العقاد، حين جاءت عائلة يهودية تحييه قبل هجرتها من مصر، وأن شابًا يهوديًا يدعى هراري ألقى كلمة عن المرأة اليهودية التي أثرت سابقًا في حياة العقاد. هذه أيضًا حكاية ليس لها أهمية، ولا أحد يدري مدى تأثيرها وما حجمها؟ وما مضمون الكلمة؟ وكم فردًا من هذه العائلة ذهب ليودع العقاد؟ ومن هاتين الحادثتين يستنتج سميخ أن شباب اليهود لابد أنهم كانوا مشاركين في الحركة الأدبية المصرية. لكن المؤكد أن الباحث الإسرائيلي سميخ أجرى بحوثًا مستفيضة عن التأثير الأدبي اليهودي في الثقافة المصرية، لكنه لم يجد شيئًا إلا هذه الحكايات التي ليس لا أي وزن أو قيمة.

ويبقى أن اليهود المصريين أنشئوا جمعية (الأبحاث التاريخية الإسرائيلية المصرية) عام 1925، تحت رعاية الحاخام ناحوم حاييم أفندي، وشكلت لجان لجرد الكتب والمخطوطات اليهودية المصرية القديمة، ولجنة النشر، وأخرى للعلاقات

الخارجية. وكان من أعضائها المهمين الدكتور إسرائيل ولفنسون، وهو تلميذ طه حسن والذي كان قد أشرف على رسالته للدكتوراه، وقد نشر ولفنسون كتابًا مهمًا عن موسى بن ميمون كتب مقدمته الشيخ مصطفى عبد الرازق. وتعتقد سهام نصار أن كبار المفكرين المصريين من أمثال أحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل وطه حسين انقادوا بسهولة وبدون داعٍ إلى التعامل مع الصهيونية، ومن أمثلة ذلك أن طه حسين رأس تحرير مجلة (الكاتب المصري) التي يملكها إخوان هراري.

ومنذ القرن التاسع عشر كان كبار المثقفين في مصر على علاقة وثيقة باليهود، فعلى سبيل المثال شجع جمال الدين الأفغاني يهود الإسكندرية على تكوين جمعية مصر الفتاة اليهودية عام 1879 وقدم العقاد ماكس نوردو المفكر والفيلسوف الصهيوني الكبير وتلميذ هرتزل النجيب إلى القارئ المصري ورثاه بعد موته، وكان العقاد واعيًا بصهيونية نوردو، لكن ذلك لم يشكل له مشكلة أبدًا. وقدمت فرقة فاطمة رشدي المسرحية، مسرحية (يهوديت) التي عربها أحمد رامي وأخرجها عزيز عيد.

وملخص الأمر أن اليهود كان لهم تواجد بسيط في المجتمع الثقافي، وأن الشعب والحكومة والمثقفين المصريين لم يظهروا أي عداء لهم حتى قيام دولة إسرائيل، أو قبل قيامها ببضع سنوات على أقصى تقدير.

وحيث إن اليهود المصريين كانوا مجموعات مختلفة الثقافة واللغة والأصل والعلاقة بمصر تاريخيًا، وكانت ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية متفاوتة إلى حد كبير، فإن المجموعة الوحيدة التي كانت تجيد اللغة العربية وتحمل نفس الموروث الثقافي للمصريين هم فقراء اليهود والشريحة السفلى من الطبقة الوسطى، أما باقي اليهود فلم يكن عندهم ارتباط باللغة أو الثقافة، وبالتالي كانت علاقتهم بالسياسة تتمثل في الحفاظ على مصالحهم. تقول كرامر: "إن بقية اليهود لم يكونوا يبدون اهتمامًا بالسياسة المحلية ولا الثقافة المصرية، ويشعرون بأنهم أعلى كعبًا من بقية المصريين".

- وهناك مؤرخون مثل عرفة عبده علي وسيدة محمود حسني يعدان اليهود أجانب وكل ولائهم للصهيونية، وهناك

- اليهود والماسون في مصر –علي شلش ـ 1986.

نبيل عبد الحميد السيد من جامعة المنيا الذي يتعاطف مع الإخوان المسلمين في دعوتهم بأنه لا فرق بين اليهود في مصر أو فلسطين، ويعتقد أن التاريخ أثبت أنه من الصعوبة التفرقة بين اليهودي والصهيوني.

طه حسين ومجلة الكاتب المصري

صدر العدد الأول من المجلة في أكتوبر عام 1945 وأغلقت في مايو عام 1948، تكونت شركة الكاتب المصري وهي شركة مساهمة مصرية، من سبعة أشخاص من آل هراري، وهي عائلة يهودية مصرية قديمة، وطلبت الشركة من طه حسين إصدار هذه • المجلة الأدبية الثقافية الشهرية، قال إنه قبل رئاسة تحريرها استقصى وأحسن الاستقصاء، وتبين أن الأمر لا يتصل ولا يمكن أن يتصل بالصهيونية من قريب أو بعيد. وكانت المجلة على مستوى عال جدًا في محتواها الأدبي والثقافي، وكان ثمنها عشرة قروش، وهو ثمن مرتفع بالنسبة لثمن المجلات في ذلك الوقت.

● ملف اليهود في مصر الحديثة –عرفة عبده علي ـ القاهرة 1993.

• ويقول الناقد الراحل علي شلش: إن طه حسين خلال رئاسته لتحرير المجلة ـ التي استمرت حتى قرر أصحابها إغلاقها بسبب ظروف الحرب العربية الإسرائيلية ـ لم يقترب من قضية فلسطين. ولم يقحم نفسه في الصراع السياسي حول الموضوع كله، واكتفى بمقال واحد في يونيو عام 1946 بدأه بالعطف على المهاجرين اليهود من الأطفال والنساء، وكذلك الفلسطينيين أنفسهم الذين قال إنهم لم يستشاروا ولم يستأمروا في إيواء هؤلاء البائسين. وللحق والتاريخ فإن هذه المقالة لم تكن في المقام الأول مقالة سياسية، بل كانت وصفًا لرحلة قام بها طه حسين على باخرة كبيرة متجهة إلى لبنان، وتصادف أن كان عليها ما يزيد على الألف من اليهود القادمين من أوروبا في طريقهم إلى فلسطين، ومعظمهم من النساء والأطفال. ويصف طه حسين الرحلة والجو العام على السفينة، ثم يعرج على وصف اليهود المهاجرين من أوروبا بالوصف الذي ذكره علي شلش، ثم

• اليهود في مصر بين قيام إسرائيل والعدوان الثلاثي (1948-1956) نبيل عبد الحميد سيد أحمد، الهيئة المصرية للكتاب ـ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر 1991.

قال طه حسين: إن الفلسطينيين لم يستشاروا في إيواء هؤلاء البائسين لكن علي شلش لم يكمل بقية الجملة المنشورة التي قال فيها طه حسن إن هناك أوطانًا كثيرة في العالم أقدر على إيوائهم من فلسطين. وعمومًا هذه الفقرة القصيرة لم تمثل أكثر من خمسة بالمائة من المقال، وكانت وصفًا لمشهد عايشه طه حسين في الرحلة.

وفي عام 1945 تساءل الكثيرون كيف يعمل طه حسن في مجلة أصحابها من اليهود، ونشرت بعض الصحف العربية هذه الأسئلة، وأجرت مجلة الاثنين الصادرة عن دار الهلال حديثًا صحفيًا مع طه حسين، وسألته الصحفية صراحة: يقولون إنك تعمل على مساعدة الصهيونية، فأجاب طه حسين: ليت الذين يذيعون هذا الكلام الفارغ يستطيعون أن يبلوا في خدمة العروبة مثلما أبليت. ليس أدل على أنني أساعد الصهيونية من أنني أحيي الأدب العربي القديم، وأنشر أشياء تتصل بعلوم القرآن الكريم، فأي مساعدة للصهيونية أقوى من هذا؟ وحين يظهر العدد الأول من الكاتب المصري سوف ترون. وأرسل له الكاتب الفلسطيني خليل شطارة مستفسرًا عن الموضوع، فبعث إليه طه حسين رسالة نشرتها

(البلاغ) الفلسطينية قال فيها: فأما الشائعات فمصدرها المنافسة التجارية من ناحية، والضغينة السياسية والحسد البغيض من ناحية أخرى، وخلاصة القضية أن سبعة من اليهود المصريين اشتركوا في عمل تجاري صرف قوامه نشر الأدب العربي، قديمه وحديثه، ونقل الجيد من الآداب الغربية إلى لغة الضاد، وطلبوا أن أكون مشيرهم في ذلك، فقبلت بعد أن استقصيت وأحسنت الاستقصاء، وتيقنت أن الأمر لا يتصل، ولا يمكن أن يتصل بالصهيونية من قريب أو بعيد، وإنني أتحدى من شاء أن يجد في المجلة إشارة إلى الصهيونية أو تأييدًا لها، ومن يدري لعل خصوم هذه المجلة يبهتون في يوم من الأيام حين يرون فيها خصومة عنيفة للصهيونية، وهجومًا عنيفًا على ظلمها، ودفاعًا عن العرب في وطنهم فلسطين، وإنه لن يخاف ظنه ولا ظن أحد من العرب. وهكذا كان طه حسين قبل أن تصدر المجلة واضحًا وصريحًا، وأعتقد أن تقييم موقف طه حسين في موضوع مجلة (الكاتب المصري) يجب أن ينبع من شيئين، أولهما مدى تحقيقه لوعده بمضمون المجلة، وثانيهما علاقة موقفه بموقف المثقفين المصريين عمومًا في ذلك التاريخ، من ناحية

التعامل مع اليهود المصريين. ومعروف أنه حتى ذلك التاريخ كان المصريون عمومًا لا يمانعون في التعامل مع اليهود المصريين من غير المنتمين للحركات الصهيونية، أي أنهم كانوا ـ بشكل واضح ـ يتعاملون مع اليهود بشكل طبيعي وعادي.

وقامت هيئة الكتاب بإعادة نشر جميع أعداد المجلة التي صدرت خلال الثلاث سنوات 1945 ـ 1948، وصارت متوافرة للقراء بثمن زهيد، والمجلة ثقافية بالدرجة الأولى، والكثير من الموضوعات التي نشرت فيها تصلح لأن يعاد نشرها اليوم، وبالإضافة إلى المقالات الثقافية والأدبية والأشعار والنقد الأدبي، كانت المجلة تلخص في أحد أبوابها أخبار العالم الثقافية والفنية، وقد راجعت فهارس جميع الأعداد التي صدرت في السنوات الثلاث فلم أجد شيئًا بقلم طه حسين له علاقة باليهود، باستثناء المقال التي سبق ذكره. ولم يتناول أحد من الكتاب الآخرين في المجلة هذا الموضوع، لكن مشكلة فلسطين ذكرت كثيرًا في باب السياسة الدولية، وهو باب يتضمن تقارير أجنبية معظمها من الأمم المتحدة والدول الكبرى، وكانت عبارة عن حقائق وقرارات

دولة مترجمة إلى العربية.

وفي عدد مارس 1946 كتبت المجلة تقريرًا عن فلسطين جاء فيه: أما تقرير لجنة التحقيق الأمريكية البريطانية عن فلسطين فلم يرضِ أحدًا رغم صدوره بإجماع الآراء. ولم يحقق للصهيونية حلم الدولة اليهودية من ناحية، ولم يدع مجالاً لأمل عند العرب من ناحية ثانية، إذ أوصى بفتح باب الهجرة ورفع القيود عن نظام بيع الأراضي، وهما الوسيلتان اللتان يتألم منهما العرب، ويرون أنهما أداة استيلاء الصهيونية على بلادهم وإخراجهم من ديارهم. وقد كان لإذاعة هذا التقرير أسوأ الأثر في البلاد العربية جميعًا، فقامت حكوماتها وهيئاتها تحتج وتعلن الإضراب، دليلاً على استنكارها ورفضها لهذا الأمر، وتوج ذلك باجتماع لرؤساء الدول العربية، تلته دورة استثنائية خاصة لمجلس جامعة الدول العربية. أما باقي أبواب المجلة فتحوي موضوعات مختلفة، وهناك حادثة طريفة نشرتها المجلة عن سيد قطب، عندما كان ناقدًا فنيًا قبل أن يصبح مفكرًا إسلاميًا، فقد اكتشف أحد قراء (الكاتب المصري) أن سيد قطب نشر مقالة في الكاتب المصري سبق أن نشرها في جريدة أخرى، ونشرت

(الكاتب المصري) التعليق التالي:
القارئ محمد الشاذلي كتب يقول: "إن مقال سيد قطب (النقد والفن) نشره سيد قطب بنصه وفصه وعجره وبجره كما يقولون تحت اسم (دلالة الألفاظ على المعاني) في مجلة (الثقافة). وقد رد سيد قطب في خطاب نشرته المجلة وشكر القارئ، وأفاد بأنه قد أحدث تغييرًا في البحث، أما هيئة تحرير المجلة فنشرت تعليقًا من المحرر قالت فيه: "أما نحن فنأسف أشد الأسف لأن الأستاذ سيد قطب لم يخبرنا بأنه نشر مقاله ذلك، ثم أعاد النظر فيه لينشره من جديد، وإلا كان من الممكن أن نرى في نشر هذا المقال المعدل رأيًا غير الذي رأيناه، حين لم نكن نعلم أن له صورة أخرى نشرت في مجلة أخرى منذ سنين".
أما عن الذين يكتبون في المجلة فيكفي أن أذكر أسماءهم حتى تتضح أهمية هذه المجلة، فقد كان يكتب بصفة منتظمة أحمد نجيب الهلالي، وتوفيق الحكيم، وعزيز فهمي، ومحمد عوض محمد، ومحمد كامل حسين، وعثمان أمين، وسلامة موسى، ومحمود تيمور بالإضافة إلى طه حسين، ومن الكتاب الشبان الناشئين: سليمان حزين، وسهير القلماوي، وعبد القادر القط،

ويحيى حقي، وعبد الرحمن بدوي، ورشاد رشدي، ومحمود عزمي، والشاعران عبد الرحمن صدقي والعراقي محمد مهدي الجواهري، ومن الأجانب كان يكتب عدد كبير من مثقفي العالم، منهم: أندريه جيد، وجان بول سارتر، وأندريه مالرو.

ونخلص من ذلك إلى أن طه حسين أنشأ مجلة ثقافية عظيمة، جمع لها الكثير من الكتاب القدامى والجدد، وكذلك الأجانب وقدمت خدمة ممتازة للقارئ المصري والعربي، أما تمويلها فكان من اليهود المصريين، ولا يمكن أن يعني ذلك شيئًا مهما في ذلك الوقت يدين طه حسين.

الشخصية اليهودية في الرواية المصرية

• ناقش د. رشاد الشامي الشخصية اليهودية المصرية في أدب إحسان عبد القدوس. وقال الشامي: إنه لا يكاد يرصد شخصية يهودية مصرية محورية في أعمال كبار الأدباء المصريين، باستثناءات نادرة، مثل رواية (أحمد وداود)

● الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس.. رشاد عبد ا الشامي كتاب الهلال القاهرة 1992.

لفتحي غانم و(إبراهيم الكاتب) لإبراهيم عبد القادر المازني، ولا تعد الأخيرة عملاً روائيًا حقيقيًا.

أما عبد القدوس فيتحدث عن شخصية الفتاة اليهودية سواء كانت جلاديس أو فورتنينيه، وكيف كانت اللغة الفرنسية لديهما مدخلاً للتعرف على الأدب العالمي، وكيف كانت الحرية مكفولة للبنات، ونمط الحياة مختلفًا تمامًا عن النمط المصري التقليدي للمسلمين والأقباط، وكيف كان العمل مهمًا لشباب اليهود في سن مبكرة ويتحدث الكاتب عن زيارة عبد القدوس لفلسطين عام 1945 مستطلعًا الموقف، لكي يعود لكتابة تحقيق تحت عنوان (ضاعت فلسطين). وكتب عن هروب ثلاثة من معارفه بين الصحفيين المصريين اليهود إلى إسرائيل، ورصد الكاتب كل أعمال عبد القدوس التي تحوي شخصيات يهودية، وقد اختار الشامي بعض العبارات في روايات إحسان شديدة الدلالة على الموقف الحقيقي لليهود، مثل المقولة: إن الثورة لم تطرد اليهود، ولكن اليهود هم الذين يطردون أنفسهم، أو الحوار الذي قيل فيه إن يهود مصر لم يختطفوا، لقد اختاروا، ومن حق كل إنسان أن يختار وطنه. وفي رواية (لا تتركوني هنا وحدي) تقول

البطلة: على كل حال لم نسمع عن أي يهودي من أصل مصري له شأن أو قيمة في المراكز القيادية في إسرائيل. إن كل يهود مصر كانوا يعدون من أغنى يهود الدنيا، فقد كانوا يعيشون في الوطن العربي ولهم قيمة، ثم ذهبوا إلى إسرائيل ليعيشوا بلا قيمة، وكأنهم أُجَرَاء لتأدية الأعمال التي يحتاج إليها يهود أوروبا، أو كأنهم الزنوج الذين كانت أمريكا تهربهم إلى أرضها لتسخيرهم أيدي عاملة.

اليهود المصريون والموسيقى والغناء والسينما

داود حسني:

يعد الملحن اليهودي الكبير داود حسني نجمًا لامعًا في التلحين، وداود حسني قرائي كان يقطن حارة اليهود، وتعود أصوله المصرية إلى أجيال طويلة، وتوفي داود حسني عام 1937 كان داود حسني شجاعًا بالإضافة إلى موهبته العظيمة، فقد أقدم على تلحين أوبرا مصرية فرعونية كتب كلماتها الدكتور حسين فوزي، وكان كامل الخلعي قد رفض تلحينها، وطلب سيد درويش مبلغًا لم يقدر عليه منتج العمل الفني، فقام بتلحينها داود حسني عام 1919 ومثلت على

المسرح في القاهرة. وقد قام داود حسني بتلحين عدد كبير من الأدوار والطقاطيق والأغاني التي ما زالت من جواهر الغناء المصري الشرقي الأصيل، والتي كثيرًا ما تتغنى بها فرق الموسيقى العربية في دار الأوبرا وغيرها. منها (قمر له ليالي)، (على خده يا ناس ميت وردة)، (وعصفوري يا أمه). ومن الواضح أن داود حسني لم يكن في مقدوره إبداع هذه الألحان لو لم يكن مصريًا حتى النخاع، مرتبطًا بأهل بلده ويحمل عواطف وشجونًا، ليس فقط تجاه أهله في حارة اليهود، وإنما تجاه شعب مصر كله، ولا تزال الإذاعة المصرية تحتفل كل عام بيوم ميلاد داود حسني وتذيع ألحانه.

ليلى مراد:

ربما كانت ليلى مراد أكثر الفنانين اليهود المصريين شهرة، وتأثيرًا في المصريين، فقد خلبت لُب الشعب المصري كله رجالاً ونساء بصوتها الجميل الملائكي، وتمثيلها البسيط في عدد ضخم من الأفلام المصرية التي كونت تراث السينما، ولعقود طويلة كانت أغاني ليلى مراد الأغاني المحببة للشعب كله، والتي يحفظها عن ظهر قلب ويدندن بها طوال الوقت، وحتى هذه اللحظة ما زال يحفظ أغانيها الكبار والشباب،

وفي الثلاثينيات والأربعينيات كانت مصر كلها تغني أغاني ليلى مراد، ولم يفكر أحد منهم في أن ليلى مراد يهودية، فلم يكن ذلك يعني لهم شيئًا. المهم أنها كانت مصرية صميمة تشعر بهم وتغني لهم، وقد وقعت ليلى مراد في غرام النجم الشهير أنور وجدي، وأعلنت إسلامها وتزوجته في الأربعينيات من القرن العشرين، وقد أثار الزواج ضجة كبيرة آنذاك بسبب الشعبية الكاسحة للنجمين الكبيرين، لكن الزواج كان عاصفًا بسبب شخصية أنور وجدي التي قيل إنها كانت صعبة في المعاشرة اليومية، ويحكي اليهودي المصري موريس شماس الذي هاجر إلى إسرائيل أنه في مقهى لانسيانو الذي كان يقع في حارة اليهود اجتمع عدد من يهود الحارة ليناقشوا مشكلة كبيرة تخص مطربتهم ومعبودتهم الجملية ليلى مراد، التي علموا أنها غيرت دينها إلى الإسلام حين تزوجت من أنور وجدي، وكان الغضب يحلق فوق رؤوس الكثيرين، وكان أكثرهم غضبًا اليهودي المصري الإيطالي الأصل لانسيانو صاحب المقهى، الذي أعلن أن الراديو سوف يغلق في المقهى عند إذاعة أغنيات ليلى مراد، وقام بإنزال صورة ليلى مراد المعلقة على حائط المقهى، إلا

أن سعدية اليهودية الفقيرة ثارت على هذا التصرف، وصاحت: لماذا هذا الغضب؟ هل هي قريبتكم؟ هل هي أختكم؟ ما علاقتكم بها؟ الأمر بسيط لقد أحبت وأرادت أن تتزوج مثل أي امرأة، ولم يسفر النقاش عن شيء.

في اليوم التالي انتشر خبر في حارة اليهود كلها، ووصل إلى كل فرد فيها، ومؤداه أن ليلى مراد قامت بزيارة سرية طويلة في الليلة السابقة لمعبد ابن ميمون اليهودي في الحارة، في منتصف الليل تمامًا، وطلبت من القائمين على المعبد عزف الموسيقى على روح أبيها الفنان زكي مراد، ثم غادرت في هدوء، وفي الصباح ـ بعد أن انتشر الخبر ـ عم الارتياح في الحارة، وقام صاحب المقهى بتعليق صورتها مرة أخرى على الحائط وفتح الراديو مرة أخرى للاستماع لأغانيها بين ترحيب زبائن المقهى.

تبدو هذه الحكاية مصرية تمامًا، انفعل الناس بسرعة وكان غضبهم شديدًا، وسرعان ما عاد الهدوء والصفاء لهم، وبدءوا يستمعون إلى محبوبتهم قيثارة الموسيقى العربية. ولم يفكر هؤلاء البسطاء من سكان الحارة في أن الموقف لم يتغير، وأن ليلى مراد أعلنت إسلامها، وأنها سوف تتزوج أنور

وجدي، ويعني ذلك أن يهود الحارة كانوا مثل المسلمين والأقباط في انفعالهم وتصرفاتهم وحزنهم وفرحهم وسرعة النسيان.

كان منير مراد شقيق ليلى مراد الأصغر، وقد ولد عام 1928 وتوفي عن عمر يناهز الثالثة والخمسين عام 1981، وكان قد اتجه إلى الفن بعد نجاح أخته ليلى في هذا المجال، وورث مهنة التلحين عن أبيه وتخصص في الألحان الخفيفة الاستعراضية، فلحن لشادية كثيرًا من الأغاني الخفيفة، وكثيرًا من اسكتشات الأفلام، وكذلك لعبد الحليم حافظ، وقد تزوج منير مراد الفنانة سهير البابلي، واكتسب شهرة من الألحان وبعض الأغاني الاستعراضية التي قام بها. يقول يوسف القعيد في مقال له: إن منير مراد حين توفي عام 1981 لم يعثر عنده على أي وثيقة تثبت أنه مصري، وكان جواز سفره مغربيًا منحه إياه الملك الحسن ملك المغرب. وعدم وجود وثيقة سفر مصرية معه لا يعني أنه لم يكن مصري الجنسية، فأبوه زكي مراد وجده ولدا في مصر، وربما ترجع أصول الأسرة إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير. وربما كان قد تكاسل عن استخراج جواز سفر مصري أو

رأى أن جواز السفر المغربي قد يكون أفضل في سهولة الخروج من مصر وسهولة الحركة، لكن يبقى أن هناك الكثير من اليهود المصريين بالمولد عبر أجيال لم يحصلوا على الجنسية المصرية، لأسباب شرحناها في فصل خاص عن الجنسية.

توجو مزراحي:

من أوائل المخرجين المصريين، وقد كان مخرجًا ومنتجًا وممثلاً، وبدأ عمله في الإسكندرية، وأخرج فيلمًا عن الكوكايين عام 1930، وانتقل إلى القاهرة فأبدع عددًا من الأفلام، وكان سريعًا في عمله ويقال إنه أخرج فيلم (سلفني 3 جنيه) لعلي الكسار في أسبوع واحد، وقد أنتج وأخرج فيلم (سلامة) لأم كلثوم، لكن الفيلم فشل تجاريًا مما أصابه بانهيار عصبي.

وكانت نجمة إبراهيم ممثلة مسرح مهمة، وقامت بدورها الخالد وهو دور ريا في فيلم (ريا وسكينة)، ولها أدوار مهمة في عدد كبير من الأفلام المصرية، وكانت زينات صدقي ممثلة كوميدية لها شعبية كبير، وأتقنت دور الخادمة.

أما كاميليا فقد أطلق عليها فاتنة السينما المصرية، وقامت

ببعض الأدوار، وعرفت بأنها عشيقة للملك فاروق، وتوفيت في حادث طائرة في مصر عام 1950.

أما نجوى سالم فكانت ممثلة مسرح من تلاميذ نجيب الريحاني، وأخلصت لمسرحه سنوات طويلة بعد وفاته إلى أن اعتزلت الفن، وكانت قد تزوجت من الناقد الفني عبد الفتاح البارودي، وكانت هناك الممثلة اليهودية الشهيرة راقية إبراهيم التي مثلت أمام عبد الوهاب دور البطولة في فيلم (رصاصة في القلب)، ولا يزال الجميع يذكر مقولتها (سنتي بتوجعني.. حكيم روحاني حضرتك) وقد هاجرت راقية إبراهيم إلى نيويورك، حيث عملت مترجمة للوفد الإسرائيلي في الأمم المتحدة.

ويعتقد سليمان الحكيم في كتابه الذي يحكي تاريخ اليهود في مصر ـ مع التركيز على مجموعة من الفنانين اليهود المصريين ـ أنه لولا نشوء إسرائيل لاستمر دور اليهود في مصر حتى الآن.

وهكذا قدم اليهود المصريون ملحنًا من أهم الملحنين المبدعين، ومطربة من أهم المطربات في تاريخ مصر الفني، وبعض الممثلين والملحنين والمغنين متوسطي أو قليلي

الأهمية، وإذا تحدثنا عن داود حسني وليلى مراد فكلاهما من اليهود المصريين ذوي الجذور المصرية القديمة، وكلاهما خرج من حارة اليهود التي يعيش فيها اليهود الذين لا يمكن أن تفرقهم عن بقية المصريين، وهذان المثلان خير دليل على أن من يعبر عن مشاعر الشعب المصري هو المصري أيًا كانت ديانته، وهو الذي يعيش بقلبه وروحه وضميره مع مصر، وكلاً من داود حسني وليلى مراد عبرا عن مصر وشعبها وعواطفها بأجمل وأرقى ما يكون، وكان تقدير الشعب المصري لهما عظيمًا ولم يفكر أحد من المصريين ـ حين يستمتع بفنها ـ إلى أي ديانة ينتميان.

الحركة الصهيونية في مصر ومشـروع الـوطن القـومي اليهودي

أثبتت كتب التاريخ الموثقة أنه كانت هناك ثلاث مشروعات للاستيطان اليهودي، اثنان منها في مصر، أحدهما في منطقة شرم الشيخ، وهو ما يسمى في مصر مشروع منطقة مدين، والمشروع الثاني في العريش، أما المشروع الثالث فهو الاستيطان في فلسطين، هذا المشروع الأخير له تاريخ ضخم خارج نطاق هذا الكتاب، لذا سوف نركز فقط على ما يخص

مصر دولة وشعبًا، وما يخص اليهود المصريين وعلاقتهم جميعًا بإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين والمشروعات السابقة له.

في نهاية القرن التاسع عشر بدأ تنفيذ مشروع بول فريدمان – اليهودي الألماني في الاستيطان في منطقة مدين، وهي منطقة ممتدة عبر شمال غربي الجزيرة العربية ومدينة العقبة الأردنية، وجنوبًا في الساحل المصري لمسافة 400 كم، وقد وصل فريدمان إلى الإسكندرية بعد موافقة إنجلترا على المشروع، وحمل معه متطوعين من اليهود الأوروبيين، وأخذ معه بعض العلماء وثلاثين عائلة مصرية، وذهب إلى شرم الشيخ واشترى بعض الأراضي هناك، إلا أن المعارضة العثمانية وهجوم زعماء البدو وشخصية فريدمان المنفرة، تسببت جميعًا في فشل المشروع بصفة نهائية وتوقف التفكير فيه مرة أخرى.

ثم كان مشروع العريش الذي وافقت عليه بريطانيا، وقد وصلت البعثة الصهيونية إلى مصر عام 1903 لعمل الترتيبات لاستيطان منطقة العريش وهجرة ملايين اليهود إليها، مع عمل الترتيبات اللازمة لضخ مياه النيل إلى

المنطقة، لكن المشروع قوبل بمعارضة قوية من اللورد كرومر، بالرغم من موافقة الحكومة البريطانية عليه، حيث لم يرغب في أن يتدخل أحد في مشروعاته الزراعية في مصر، التي تعتمد على النهر، والتي قدر لها أن تكون مزرعة للقطن للتصدير لمصانع مانشستر، وكذلك عارضت المشروع الحكومة المصرية، وأعلن بطرس غالي –وزير الخارجية المصري في ذلك الوقت ـ رفض حكومة مصطفى باشا فهمي المشروع، وأعلنت أن سيناء والعريش قطعة من مصر لن تتنازل عنها، ورفضت مبدأ هجرة اليهود إليها، ويعتقد بعض المؤرخين – وأوافقهم في الرأي ـ أن معارضة اللورد كرومر كانت أساسية ومهمة في إحباط المشروع، وقد عارض كرومر لأسباب ليس لها علاقة بالدفاع عن أراضي مصر، وإنما لأن المشروع يتعارض مع مصلحة إنجلترا الاقتصادية، وفشل المشروع.

مشروع الوطن القومي اليهودي فـي فلسـطين وعلاقتـه بالحركة الصهيونية المصرية

كانت بدايات الحركة الصهيونية المصرية في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ضعيفة بين مجموعات

بسيطة من اليهود الأشكيناز، وكانت هناك مجلة (نهضة اليهود) التي كانت تصدر بالفرنسية قبل الحرب العالمية الأولى، ولم يكن فيها سوى ثمانين مشتركًا فقط ولم تهتم أغلبية اليهود بالصهيونية، وهم من السفارديم الذين رأوا أن نبي الصهيونية هرتزل مجرد جامع أموال، وخلال الحرب العالمية الأولى طرد من فلسطين نحو 11 ألف يهودي من الصهاينة الأشكيناز إلى الإسكندرية والقاهرة، وبالرغم من أن معظمهم غادر مصر بعد فترة قصيرة عائدًا إلى فلسطين، إلا أن القليل منهم بقي في مصر، وأنشأ الحركة الصهيونية المصرية التي بدأت تعليم اليهود المصريين مبادئ الصهيونية بتعليمات وتأكيدات حاييم وايزمان.

وقد أسس يهودي اسمه باروخ أول جمعية صهيونية في مصر عام 1897 وسرعان ما تكونت أربع عشرة جمعية في القاهرة والإسكندرية، واتحدت عام 1917، وكونت الاتحاد الصهيوني، وكان رئيسه جاك موصيري، وهو مثال نادر للسفارديم الذين تعاطفوا مع الصهيونية مبكرًا، وكان سكرتير الاتحاد ليون كاسترو، وأصدر هؤلاء الصهاينة الجريدة الصهيونية (إسرائيل) باللغة الفرنسية، ورأس تحريرها ألبير

موصيري، وهو طبيب آمن بالصهيونية مبكرًا، وكان معظم أعضاء الاتحاد من اليهود الأشكيناز، وأقيم احتفال كبير حضره 8 آلاف يهودي بمناسبة إصدار وعد بلفور، وأرسل موصيري برقية شكر إلى رئيس وزراء بريطانيا لويد جورج.

وانطلقت مسيرة في القاهرة من 3 آلاف يهودي يوم 28 أكتوبر عام 1917 تحية وامتنانًا لوعد بلفور الذي عرف أنه سوف يعلن خلال أيام قليلة من شهر نوفمبر وأرسل المتظاهرون إلى وايزمان التلغراف الذي ينص على أن المجتمعين بالقاهرة من اليهود المصريين يؤيدن بالإجماع إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، ويثقون في أن حكومة جلالة ملك إنجلترا سوف تسهل وتساعد هذا المشروع، وفي الإسكندرية قام اليهود يوم 11 نوفمبر بمسيرة مماثلة من ثمانية آلاف يهودي، وتكرر الأمر في العام التالي عند زيارة الوفد الصهيوني العالمي بقيادة حاييم وايزمان للإسكندرية والقاهرة، حيث خرج لتحيتهم آلاف اليهود في الشوارع.

ومنذ منتصف العشرينيات توقفت المظاهرات والمسيرات المؤيدة للصهيونية، لأن الملك فؤاد كان يحب اليهود، لكنه

كان يكره الصهيونية، وكان الحاخام في القاهرة وكل الأغنياء اليهود ضد الصهيونية.

وفي عام 1918 أنشأت جماعة من أغنياء اليهود من عائلات منشه وبتشتو وكوهين لجنة فلسطين، لتقديم المساعدات الإنسانية لليهود في فلسطين، إلا أنها كانت على علاقة وثيقة بالمنظمات الصهيونية العالمية، وقد ساعدت هذه المنظمة بالاشتراك مع المنظمات العالمية على توطين 12 ألف يهودي أوروبي في فلسطين.

وفي السنوات التالية بسبب الخلافات الداخلية انخفض عدد المشتركين في المنظمات الصهيونية إلى 80 عضوًا فقط عام 1927 وكان مجموع التبرعات اليهودية المصرية للصهيونية 25 ألف جنيه من عام 1901 حتى عام 1943، وفي عام 1925 ذهب مائة عضو من الجالية اليهودية للاحتفال بافتتاح الجامعة العبرية في القدس،وكان معهم أحمد لطفي السيد رئيس الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن).

وفي عام 1929 حين بدأ حوادث حائط المبكى تدخلت الجالية اليهودية لدى السلطات المصرية لمنع الدعاية المؤيدة للفلسطينيين، واستمر النفوذ الصهيوني ضعيفًا للغاية في

مصر، وبالرغم من إعلان الحاخام الأكبر منع أي تبرعات لليهود في فلسطين، إلا أن بعض التبرعات استمرت بصفة سرية، وبالرغم من بدء هذه الحركة الصهيونية في مصر في أوائل القرن العشرين، إلا أنها لم تحقق أي تقدم خلال أعوام طويلة، وكانت الحركة تركز على الأعمال الثقافية بالدرجة الأولى، مثل جمع التبرعات لإنشاء الجامعة العبرية في القدس، وكان هذا الأمر يعد في وسط المثقفين المصريين نشاطًا ثقافيًا يجب تشجيعه، واستمر ذلك حتى حدثت الثورة الفلسطينية عام 1936 ضد الهجرة اليهودية، وفي ذلك الوقت ظهر تحول واضح في موقف المصريين من الصهيونية، ورأي الكثيرون من اليهود المصريين أن الصهيونية سوف تخلق موقفًا متعارضًا وخطيرًا بين مواطنتهم المصرية وديانتهم اليهودية، وحيث إن اليهود المصريين كانوا في موقف اقتصادي وثقافي متميز في المجتمع المصري، فقد شعروا بأن الصهيونية سوف تشكل خطرًا عليهم، لذلك عارضوها بقوة، ولم تحاول المجموعة الصغيرة من الصهاينة في مصر مجرد المحاولة إغراء اليهود المصريين بالهجرة إلى فلسطين، ومعروف أن نحو أربعة آلاف يهودي فقط قد

غادروا مصر إلى فلسطين خلال ثلاثين عامًا من 1917 ـ 1947 ومعظمهم لم يكونوا مصريين أصلاً، بل مغاربة ويمنيين وأشكيناز، وكانت إقامتهم في مصر مؤقتة، ويعني هذا أنه حتى عشية الدولة اليهودية لم يهاجر أحد من اليهود المصريين إلى إسرائيل.

• وعقد أول مؤتمر عالمي للحركة الصهيونية في مدينة بازل في سويسرا عام 1897 برئاسة تيودور هرتزل، واتفق فيه على العمل على أن تكون فلسطين وطنًا قوميًا لليهود، وجندت الصهيونية العالمية نفوذها وأموالها لتنفيذ المشروع الذي كانت الخطوات الأولى في تنفيذه قد بدأت قبل ذلك المؤتمر بعدة سنوات.

يقول غنيم وأبو كف في كتابهما الصغير والمهم: "إن وصل هرتزل في زيارة إلى مصر عام 1903 قوبل بابتهاج من العائلات الرأسمالية اليهودية الشهيرة، وكان ذلك مبشرًا بقيام حركة صهيونية سياسية، وقامت مجموعة صغيرة من السكندريين بتأسيس جماعة بن صهيون في الإسكندرية

● اليهود والحركة الصهيونية في مصر.. أحمد غنيم وأحمد أبو كف ـ كتاب الهلال عدد 219 يونيو 1969.

1908 وتبنت توصيات مؤتمر بازل، وكان كل أعضاء هذه الجمعية من يهود الأشكيناز القادمين من روسيا وبولندا".

وبعد أن أفاضت الصحف المصرية – خاصة الأهرام والمقطم ـ في وصف المؤتمر الصهيوني الأول في بازل والمؤتمرات التالية له، بدأ في مصر نشاط الحركة الصهيونية في السنوات الأولى من عمر القرن العشرين، لكن كل الظواهر والمعلومات المتاحة تشير إلى أن المصريين جميعًا حكومة وشعبًا لم يكونوا يعيرون الحركة الصهيونية أهمية، ولم يتصوروا أن هذه الحركة قد يكون لها أية أهمية أو تأثير على مستقبل مصر والعرب.

أما اليهود المصريون – باستثناء بعض القادة والمفكرين فلم يقدروا أن مستقبل هذه الحركة سوف يكون كاسحًا ورهيبًا، حتى إنه سوف يكتسح يهود مصر الذين عاشوا فيها قرونًا ويخرجهم من بلادهم إلى مختلف أنحاء المعمورة.

الاتحاد الصهيوني المصري

شكل الاتحاد الصهيوني المصري عام 1917، وكان رئيسه جاك موصيري، ونائبه ليون كاسترو، وأقيم احتفال في الإسكندرية حضره عدد كبير من اليهود المصريين، واليهود

المهاجرين من فلسطين بصفة مؤقتة خلال الحرب العالمية الأولى، والحاخام الأكبر، ومحافظ الإسكندرية زيور باشا، وفي نهاية الحفل أنشد الحاضرون نشيد الأمل الإسرائيلي (هتيكفاه)، وأرسلوا برقية إلى وايزمان رئيس المؤتمر الصهيوني العالمي، يعربون فيها عن رغبة يهود مصر في أن تصبح فلسطين دولة يهودية لغتها العبرية، وتقول بعض المصادر غير المؤكدة إن الملك فؤاد حضر وبارك الاحتفال الصهيوني في مصر.

ومن الواضح أنه في تلك المرحلة المبكرة لم تكن الحكومة المصرية ولا الشعب المصري يعرفون الكثير من خطورة المشروع الصهيوني على فلسطين وعلى الأمن المصري.

وكان هناك كثير من الغموض في مفهوم الصهيونية في ذلك الزمن، وكان المصريون وحتى زعماؤهم غير مدركين لخطورة الحركة الصهيونية، فمثلاً كان ليون كاسترو نائبًا لرئيس الاتحاد الصهيوني، وفي الوقت نفسه أحد النشطاء في ثورة 1919 ضد الإنجليز، وكان أحد مساعدي سعد زغلول والمفاوض والمترجم والكاتب المصري في أوروبا دفاعًا عن قضية التحرر من الاستعمار، وهذا يؤيد ما سبق أن ذكرت

من أن الكثير من اليهود كانوا جزءًا من النسيج المصري، وأن المصريين – حتى كبار مثقفيهم المتعلمين ـ لم يفطنوا إلى خطورة الصهيونية، أعتقد أنه في المراحل الأولى لم يكن اليهود المصريون بصفة عامة ـ يفطنون أيضًا إلى أن الدعوة الصهيونية سوف تلاقي في مراحل لاحقة الغضب الشعبي المصري الذي سوف ينتهي بهم إلى الرحيل من مصر.

وفي عام 1918 حضر حاييم وايزمان على رأس بعثة صهيونية في طريقها لتفقد الأحوال في فلسطين، واستقبلته الجالية اليهودية المصرية بكل ترحاب.

وقد أرسل وايزمان خطابًا لزوجته قال فيه إنه لا يوجد أحد ضد الصهيونية في مصر، وإن حالة اليهود المصريين المادية عظيمة، وهم من كبار الأغنياء، لكنهم غير مهتمين بفلسطين، وفي المستقبل قد يهتمون بها، بشرط أن تصبح امتدادًا لمصر ليجددوا نفوذهم الاقتصادي بالانتشار فيها، لذا لا يمكننا الاعتماد على اليهود المصريين باستثناء موصيري واثنين أو ثلاثة آخرين، والباقي لا يستحقون الذكر لكن على أي حال مصر مهمة، لأن الصلة بين مصر وفلسطين وثيقة

للغاية، وكتب وايزمان تقريرًا بعد رحلته قال فيه: إن الزعماء اليهود المصريين كانوا معادين للصهيونية من الناحية النظرية، لكنه نجح في إقناع موصيري بتكوين قسم الإغاثة الصهيوني في القاهرة، وقابل من المصريين فارس نمر وسعيد شعير باشا وسليمان بك ناصف، وقابل شيخ الأزهر، وقدم له تبرعًا من المنظمة اليهودية العالمية مقداره 100 جنيه، واهتم شيخ الأزهر بمشروع الجامعة العبرية، وتخوف بعض المصريين الذين قابلهم وايزمان من المخاطر على المزارعين الفلسطينيين، لكنه طمأنهم، وفي زيارة أخرى إلى مصر عام 1922 قال وايزمان: إن الأمل في نشاط الصهيونية يكون بالاعتماد على اليهود الروس المقيمين في مصر، لأن اليهود المصريين غير مهتمين ولا أمل فيهم، واتفق على إصدار صحيفتين، إحداهما بالعربية يحررها المسيحيون الشوام والفلسطينيون العرب، وذلك لتشجيع التعاون مع المنظمات الصهيونية، وفي عام 1934 تبرع اليهود المصريون بإقامة مستعمرة في فلسطين لليهود الألمان النازحين.

وكان جابوتنسكي الذي أقام في الإسكندرية أثناء الحرب

العالمية الأولى قد خرج على التيار الصهيوني العام بتيار أشد تطرفًا، وعاش في باريس، حيث أقنع الشاب اليهودي السكندري ستراسلسكي –الذي سافر إلى باريس للدراسة ـ بمبادئه، وحين عاد إلى الإسكندرية أسس فرعًا لهذه المنظمة المتطرفة، وكان وايزمان يحاول دائمًا فتح قنوات اتصال مع المصريين المسلمين، وشعر اليهود في مصر بالقلق عام 1938 بسبب الخطر على الأماكن المقدسة الإسلامية في القدس، وطلب قطاوي باشا من وايزمان إصدار تصريح بأنه لا توجد نية للاعتداء أو الاستيلاء على هذه الأماكن.

وأعتقد أن الجالية اليهودية في مصر لم تكن تظن أن تعاطفها مع تكوين وطن قومي في فلسطين يتعارض مع مصريتها ووطنيتها، بدليل أن الحكومة المصرية لم تظهر أي معارضة لذلك، ولا الشعب عارض ذلك ممثلاً في حزب الوفد، ولا الأحزاب الليبرالية. ولم يبدأ ظهور المعارضة المصرية للمشروع الصهيوني إلا في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين بعد أن تفاقم الوضع في فلسطين، ووصلت أصداء المظاهرات الفلسطينية إلى مصر.

• يقول عبد العظيم رمضان: "إن الشعب المصري منذ ثورة 1919 كان مهتمًا بقضيتين، الأولى تحرير مصر، والثانية وحدة مصر والسودان"، وعبر سعد زغلول عن رأيه في قضية الوحدة العربية، فقال إن هذه القضية لا يمكن أن تبحث إلا بعد أن يجاهد كل شعب لتحقيق استقلاله، ويقول رمضان "إنه يبدو أن بداية التعاطف مع الشعب الفلسطيني كانت من منطلق إسلامي وليس عربيًا، لكن الوفد نجح في تعبئة الشعب خلف فكرة القومية المصرية".

وكان أول من تحدث عن عروبة مصر في العصر الحديث مكرم عبيد سكرتير حزب الوفد، وهو القبطي المصري، ومنذ ذلك الحين أخذ الوفد يجر مصر إلى قاطرة العروبة. وكان مصطفى النحاس هو الذي أعلن ربط القضية الفلسطينية بالحركة الوطنية المصرية، حين قال للمندوب السامي البريطاني سير مايلز لامبسون (لورد كيلرن) أثناء مفاوضات معاهدة 1936 إنه لن يستطيع أن ينام مطمئنًا إذا

● القضية الفلسطينية بين مصطفى النحاس وعبد الناصر – عبد العظيم رمضان ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة 2003

كانت على حدود مصر الشرقية دولة إسرائيل.

وعلى هذا لا يمكن الاعتقاد بأن اليهود المصريين خانوا وطنهم مصر، وتنكروا له باحتفالهم برواد الصهيونية، ولابد أن ننظر إلى الأمر واضعين في الاعتبار الفترة التاريخية التي تم فيها الحدث، وموقف بقية المصريين من أقباط ومسلمين من هذا الأمر، حيث لم يظن أحد أن الاحتفال برواد الصهيونية معاد للوطن، ولم يعترض الشعب المصري ولا حكومته قولاً أو فعلاً أو حتى امتعاضًا، فلماذا نطالب من اليهود أن يعترضوا وألا يشاركوا؟

ومثال آخر لعدم وضوح الرؤية لدى المصريين جميعًا، هو طريقة تصرفهم حين زار مصر وفد من مدرسي المدارس اليهودية في فلسطين عام 1926، وأقام لهم الاتحاد الصهيوني المصري حفل عشاء حضره وزير المعارف المصري، ثم قام الوزير بدعوة الوفد إلى حفل غداء في مدرسة ثانوية مع كبار رجال التعليم، ووعد برد الزيارة مع المعلمين المصريين، وواضح أن الحكومة المصرية وموظفيها لم يروا مشكلة في استقبال الوفد، فلماذا إذن نهاجم اليهود المصريين واتحادهم الصهيوني؟

وحين ظهرت أنباء الصدامات اليهودية الفلسطينية في فلسطين والعنف الشديد الذي قام به المستوطنون، ساندت بعض الصحف الإسرائيلية المصرية مثل صحيفة (إسرائيل) يهود فلسطين، وهاجمت الفلسطينيين العرب، واستطاعت أن تضم إلى صفها إسماعيل صدقي وزير الداخلية في مصر، فعطل الصحف المساندة للفلسطينيين وأوقف النشاط الفلسطيني المعادي للصهيونية في مصر، وقد مثل موقف إسماعيل صدقي تناقضًا بين الرأي العام المصري الذي بدأ لأول مرة في عامي 1929، 1930 يتفهم خطورة الموقف ويؤيد الفلسطينيين، وبين موقف الحكومة المصرية ممثلاً في وزير داخليتها، وعمومًا بعد هذا التاريخ أصبح موقف الرأي العام المصري واضحًا تمامًا، وعلى هذا الأساس يجب محاسبة اليهود المصريين على موقفهم المعادي لرأي الشعب. يقول كاهان: "إنه منذ ذلك التاريخ، وبسبب التطور الذي حدث في موقف الرأي العام المصري، طالب زعماء الجالية اليهودية في مصر أفراد الجالية بالتوقف عن جمع الأموال ليهود فلسطين، طالبوا أفراد الجالية بأهمية الحصول على الجنسية المصرية لمن لا يحملها، وطالبوا أيضًا بأن يمتنع

اليهود المصريين عن التعليق على الأحداث الجارية في فلسطين، وهو موقف يعكس حرصًا من اليهود المصريين على الاحتفاظ بعلاقتهم الجيدة بالمصريين، وبدا حرصهم على فصل هذه العلاقة عما يحدث في فلسطين، وتم التنبيه على اليهود بعدم إبداء أي مظاهر للتعاطف أو التأييد ليهود فلسطين، ويبقى ذلك في القلب، ولا يظهر على هيئة فعل أو مساعدة أو تعبير، وهو ما التزمت به الجالية اليهودية من السفارديم في معظمها، حتى قبل الرحيل الأخير من مصر، لكن طائفة الأشكيناز التي تجري في أوردتها الدماء الصهيونية استمرت في سياستها الصهيونية، وحاولت أيضًا تجنيد أفراد من السفارديم للتعاون معها، إلا أنها اتخذت بعضًا من الحذر، لكن الحركة الصهيونية في مصر – بتأييد من الأشكيناز ـ استمرت وشجعت اليهود المصريين على شراء أراض في فلسطين".

وفي تلك الفترة حضر إلى مصر كثير من زعماء الصهيونية العالميين، مثل وايزمان الذي حاول في آخر زيارة له إلى مصر عام 1938 طمأنة الحكومة المصرية، وقابل رئيس الوزراء ورئيس الديوان الملكي، وسجل اسمه في سجل

التشريفات بقصر عابدين، وكان من الزوار الدائمين لمصر موصى شرتوك أول وزير خارجية لإسرائيل ورئيس جمهوريتها فيما بعد.

وقد قام سمارت السكرتير الشرفي للسفارة البريطانية في مصر بلفت نظر اليهود المصريين إلى أن تعاطفهم مع اليهود في فلسطين سوف يسبب إثارة مشاعر معادية لهم في مصر، وأن فيه ضررًا على مصالح اليهود المصريين، فقام قطاوي باشا والحاخام الأكبر بإنشاء جمعية الشباب المصري اليهودي وجريدة الشمس اللتين أخذتا تدعوان إلى التمصير والحفاظ على الوطن، والبعد عما يثير التفرقة، إلا أن ذلك لم يؤثر على النشاط الصهيوني من الأشكيناز الذي نشط بشدة في الأربعينيات.

وكان من أكبر الناشطين الصهاينة في مدينة الإسكندرية ألبير سترالسلسكي الذي عاد إلى مصر ليؤسس فرع حركة التصحيحيين، وهم غلاة المتشددين في العنف مع الفلسطينيين، وزاول نشاطًا كبيرًا، حتى قيام الدولة اليهودية. وفي صيف عام 1937 دعا أستاذه جابوتنسكي لإلقاء محاضرة في فندق سيسل في الإسكندرية، حضرها عدد كبير

من أعضاء المنظمات الصهيونية في الإسكندرية.

وفي عام 1944 استدعى حسن رفعت وكيل وزارة الداخلية المصري أعضاء اللجنة الصهيونية، وأخبرهم بعدم موافقة مصر على تكوين فرع لهم في مصر، وطالبهم بالتوقف عن أي نشاط صهيوني فيها.

وبدأت الحركة الصهيونية في مصر تأخذ دفعة إلى الإمام عام 1946 حين استطاعت أن تقنع عشرة بالمائة من اليهود المصريين - قدر عددهم بسبعة آلاف نسمة - بشراء الشيكل، مساهمة منهم في المؤتمر الصهيوني العالمي الذي عقد في ذلك العام، وقد كان تواجد الفيلق اليهودي في مصر، الذي تكون من متطوعين يهود حاربوا ضمن جيوش الحلفاء وتحت قيادتهم، مشجعًا لمن يؤيدون الصهيونية، وكذلك تواجد قوات التحالف البريطانية في مصر في تلك الفترة وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. كل ذلك عاملاً في تنشيط الحركة الصهيونية في مصر، فقاموا بأعمال دعائية ومعلوماتية للصهيونية عما حدث لليهود في أوروبا، وشرحوا لهم أهمية وجود وطن قومي لليهود، وأقنعوا بعض اليهود المصريين بأن عليهم أن يتفهموا الخطورة على مستقبلهم إن لم ينضموا

إلى الحركة الصهيونية، وقد لقيت هذه الدعوة قبولاً من بعض شباب اليهود من خريجي المدارس الإسرائيلية الفرنسية، لإقناع اليهود المصريين بالهجرة إلى إسرائيل للعمل في الزراعة، لتحقيق الذات اليهودية وكانت هذه الحركات مرتبطة بالتنظيمات الصهيونية اليسارية الممثلة في المباي والمبام اللذين تكون منهما حزب العمل فيما بعد، وكانت هذه الجمعيات قد بدأت نشاطها خلال الثلاثينيات بإغراء الشباب المصريين اليهود بالهجرة إلى إسرائيل لكنها لم تنجح في ذلك.

ويحكي بنيين بالتفصيل أن قائد هذه الحركة في مصر – منذ عام 1938 ـ هو عزرا زنونة المصري بمساعدة أحد الصهاينة القادمين من فلسطين، وقد نجحا في تكوين خلية من شباب الصهاينة في مصر الجديدة، واستطاعوا استقطاب نحو 800 شاب يهودي في القاهرة والإسكندرية بنهاية الحرب العالمية الثانية، وبعد عام 1947 تحولت الحركة إلى تنظيم سري، وكانت الحركة تجند فقط اليهود المتعلمين، وكان معظمهم من اليساريين والماركسيين، وكانت لغتهم الأساسية – التي يتحاورون بها ـ الفرنسية التي استمرت لغتهم الأولى

في الحديث بعد هجرتهم إلى إسرائيل، يقول بنيين: إن زعيم الحركة عزرا زنونة هاجر أبواه من حلب إلى القاهرة، وكانا يجيدان الفرنسية والعربية، لكن أجداده كانوا يتحدثون العربية فقط، وقد ولد في القاهرة، وتعلم حتى حصل على الثانوية العامة المصرية، وعمل في بنك فرنسي، وكان مثقفًا متميزًا وقارئًا جيدًا للفلسفة، وبقيادته أقامت هذه المجموعة علاقات مع مجموعة اليهود الماركسيين المصريين.

ويقول بنيين إنه في عام 1938 زار مركز شباب الصهاينة في مصر الجديدة الباحث الأكاديمي اليهودي برنارد لويس، وهو الذي أصبح أستاذًا وعالمًا شهيرًا مرموقًا في شئون الشرق الأوسط والاستشراق فيما بعد، وهو معروف بتأييده الشديد لإسرائيل، وقد زار المركز أيضًا اليهودي المصري الشهير هنري كورييل الذي أصبح قائدًا لمنظمة حدتو، كبرى المنظمات الماركسية المصرية، يقول بنيين إنه حدث نقاش طويل بالفرنسية والإنجليزية عن الشيوعية والاشتراكية والصهيونية، واستمر هذا النقاش لمدة عشر سنوات، وقد كان الموقف الأول لهذه الجماعة هو إقامة دولة يهودية فلسطينية واحدة، وهو نفس موقف حدتو المنظمة الشيوعية المصرية،

إلا أنه بعد أن قرر الاتحاد السوفيتي التصويت لصالح تقسيم فلسطين اتبعت المجموعة قرار الاتحاد السوفيتي، وبعد الهجرة إلى إسرائيل ساهمت هذه المجموعة في إنشاء حزب المابام اليساري الإسرائيلي.

وقد قابل بنيين فيما بعد قائد هذه المجموعة وبعض أفرادها، وألخص هنا جزءًا مهما من كتابه، ففي عام 1945 هاجر ثلاثون فردًا من الجماعة إلى فلسطين، وتولت القيادة في مصر مجموعات أخرى، وكان عدد أفراد المنظمة قد أصبح نحو خمسمائة شاب يهودي، استطاعوا تهريب نحو مائة يهودي مصري إلى فلسطين بطرق غير قانونية وعد ذلك نجاحًا كبيرًا لهم. وقد التحقوا فور وصولهم إلى فلسطين بالتدريب العسكري، وفي عام 1947 انضموا إلى الفيلق الموجود في النقب، وقد خاضوا الحرب ضد الجنود المصريين عام 1948 وقتل منهم أربعة أفراد، وقد غير قائد هذه المجموعة اسمه من عزرا زنونة إلى عزرا تلمور، وحصل بعد ذلك على الدكتوراة في الفلسفة وأصبح أستاذًا في جامعة يافا ورئيس تحرير مجلة عن التاريخ الأوروبي، وخلال دراسته في لندن التقى مع ميشيل عفلق مؤسس حزب

البعث السوري وبعض شباب البعث، وكتبوا مسودة مشروع للصلح بين العرب وإسرائيل، لكن قيادة حزب المابام في إسرائيل كدرته على فعلته، وكان لدى هذه المجموعة المتميزة ثقافيًا من اليهود المصريين شعور بالتفوق على اليهود الأشكيناز القادمين من شرقي أوروبا، لكن ذلك لم يترجم إلى نفوذ داخل إسرائيل أو صعود سياسي لهم، وقد اعتقدوا – وهم محقون في ذلك ـ أن أصلهم المصري والشرقي هو السبب في عدم وصولهم إلى مناصب سياسية أو حزبية إدارية متميزة.

وبالرغم من أن أفكارهم وانتماءهم الماركسي كان يفوق الانتماء الصهيوني، إلا أن رفضهم الدخول في التنظيمات الماركسية المصرية كان يعني أن ولاءهم الأول للصهيونية وأنه لا انتماء عندهم لمصر، وقد استقبلهم في الكيبوتز (المستوطنة) سكانها من اليهود البولنديين استقبالاً سيئًا، واعتقدوا أن هؤلاء اليهود المصريين عرب جهلة، لكن اتضح فيما بعد أن تعليم وثقافة البولنديين أقل بكثير من هذه المجموعة، وكانت الحياة في الكيبوتز غريبة وصعبة على بعض المصريين، خاصة النساء المصريات الأنيقات اللاتي

رفضن مشاركة بقية النساء في ملابسهن الخاصة الأنيقة، كما كانت تقتضي قواعد المشاركة الجماعية في حياة الكيبوتز، وقد اعترض سكان الكيبوتز على الاحتفال برأس السنة الميلادية الذي أقامته مجموعة المصريين لأنه ليس عيدًا يهوديًا، ولم يقتنع السكان الآخرون في المستوطنة بأن المصريين جميعًا مسلمين وأقباطًا ويهودًا قد تعودوا جميعًا على الاحتفال بهذه المناسبة، وقد كان سوء الأحوال الاقتصادية في إسرائيل في بداية الخمسينيات سببًا مهمًا في زيادة الاحتكاك والتنافر بين المجموعات المختلفة من المهاجرين الجدد إلى إسرائيل.

وقد حدثت خلافات إيديولوجية شديدة بين مجموعة المصريين المقيمين في الكيبوتز وقيادة حزب المابام اليساري، وكان السبب الأساسي هو أن المصريين اتخذوا مواقف عقائدية يسارية لم تتماش مع آراء قيادة المابام، بل اشترك بعضهم في تثقيف السكان العرب سياسيًا وعقائديًا في القرية القريبة من المستوطنة، وذلك بشرح الآراء اليسارية لهم، وكانت النتيجة أن معظم اليهود المصريين اليساريين طردوا من الكيبوتز على فترات مختلفة، وقصة هذه المجموعة المصرية

اليهودية اليسارية التي حكيتها بالتفصيل نقلاً عن بنيين تشير إلى بعض النقاط المذهلة، أولاها أن قائد هذه المجموعة الشاب زنونة الحلبي الأصل المصري المولد، لم يعرف أحد من أجداده لغة أخرى غير العربية وكان أباه أول من تعلم لغة أخرى غير العربية، وأصبح خواجة في بلده مصر، يتكلم الفرنسية مع الجميع ويكره أن يتحدث العربية، وقد نسى أو تناسى أن هذه البلاد التي عاش فيها أجداده وآباؤه من المفروض أن تكون أوطانهم، والمذهل أن هؤلاء الشباب الماركسيين التقدميين رفضوا أن يتعاونوا مع الماركسيين المصريين، حتى اليهود منهم، لأنهم كانوا يرغبون في قطع علاقتهم بالوطن، حتى مع من يحمل أفكارهم وآراءهم.

وإنني مذهول من أن هذه المجموعة من الشباب تدربت على حمل السلاح، وحاربت الجنود المصريين بعد شهور قليلة من هجرتهم إلى إسرائيل، إنني قد أتفهم على مضض شعور اليهود الأوروبي الذي تعرض للعذاب في وطنه الأصلي، ويشعر بالكراهية تجاه هذا المكان، ومن الممكن أن يحارب جنود ذلك الوطن، لكن هؤلاء الشباب المصريين الذين رضعوا من لبن أمهاتهم في مصر، ومصر هي التي آوتهم

وحافظت عليهم حين طردوا أو فروا هاربين من أوروبا، وتعلموا في مدارسها وأمضوا طفولتهم وشبابهم يتمتعون فيها، كيف يمكن لهؤلاء قتل جيرانهم وزملائهم ومواطنيهم الذين تربوا بينهم؟ إن الأفكار الماركسية واليسارية أفكار من المفروض أنها نبيلة ترتقي بالإنسان ليتساوى الجميع وتنحسر الفروق بين البشر. كيف يمكن لمن يؤمن بذلك أن يؤمن في الوقت نفسه بفكرة طرد مجموعة من البشر من أراضيها وبيوتها ويحارب بلاده الذي تربى فيه؟ أجد صعوبة بالغة في تفهم كيفية الجمع بين أفكار نبيلة وتصرفات دنيئة.

• كتاب (اليهود وحركة الصهيونية في مصر 1897-1948) بقلم غنيم وأبو كف، نجد أن أحمد بهاء الدين قدم له قائلاً: "إنه أول كتاب من نوعه، وأول دراسة متكاملة عن الحياة اليهودية والنشاط الصهيوني في مصر قبل قيام إسرائيل، ويعرب بهاء الدين عن دهشته لندرة المؤلفات المصرية في هذا الموضوع، ويقول إن القارئ المصري قد يتصور أن يهود البلاد العربية فوجئوا بقيام إسرائيل، فأسرعوا بالفرار

• اليهود والحركة الصهيونية في مصر أحمد غنيم وأحمد أبو كف –كتاب الهلال عدد 219 يونيو 1969.

إليها، أو أنهم يعتقدون أن الحركة الصهيونية لم توجد إلا في أوروبا وفلسطين فقط، ويقول بهاء الدين إن كلا التصورين خطأ، ويقول نحن لا نقول إن الصهيونية جندت كل يهودي في كل قطر عربي، ولا نوافق على كل ما حدث من ظروف أدت إلى تشجيع ذهاب اليهود إلى إسرائيل".

وكان صعود هتلر إلى السلطة عام 1933 باعثًا على قلق اليهود المصريين على أنفسهم وعلى اليهود الألمان، وعلى اليهود في فلسطين، وأنشئت لأول مرة جمعية صهيونية عام 1932 تنادي بالهجرة إلى إسرائيل.

يقول غنيم وأبو كف إن يهود مصر لم يشاركوا جميعًا في النشاطات الصهيونية برغم الضغوط الصهيونية عليهم، وقالوا إنه كان هناك عدد من شباب اليهود المثقفين الواعين الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة، رفعوا راية المعارضة وكونوا الجماعة المضادة للصهيونية. وكان من أنشطهم هانز بن كسفلت (ابن طبيب نمساوي) الذين شن حربًا ضارية على الصهيونية، وكان ضمن مجموعته إيريك رولو الذي أصبح محررًا مهمًا في جريدة لوموند الفرنسية بعد ذلك، ويوسف درويش، وشحاتة هارون، وريمون دويك، وغيرهم من

الشيوعيين اليهود المصريين.

وفي عام 1944 حضر من فلسطين اثنان من منظمة شترن الإرهابية هما إلياهو حكيم وإلياهو بن تسوري، وأطلقا النار على وزير الدولة البريطاني لورد موين، فقتل على الفور، وقبض على الجانيين وأعدما، وقبض على سادونسكي المدرس اليهودي – بعد ذلك ـ بتهمة تسهيل مهمتهما، وسجن ثلاث سنوات.

وهاجم قطاوي باشا الأنشطة الصهيونية في مصر، لكن المصريين كان قد فاض بهم الكيل من أفعال المنظمات الصهيونية في الشعب المصري، فقامت مظاهرة خرجت من الأزهر، وأحرقت معبد اليهود الأشكيناز وبعض المحلات اليهودية في 2 نوفمبر 1945.

وقد استنكرت الحكومة المصرية وأمين عام الجامعة العربية عبد الرحمن باشا عزام، وجميع فئات المصريين ما حدث، لكن رد الفعل الشعبي المصري كان يعبر عما وصلت إليه مشاعر المصريين في تعاطفهم مع الشعب الفلسطيني، وهذا يؤكد بوضوح أن عدم وضوح الرؤية لدى المصريين وقطاعات من اليهود المصريين كان السبب في التأخر الشديد

في إظهار الغضب على ما يحدث في فلسطين.

وقد ظهر لأول مرة رأي عام مصري قوي لتأييد الفلسطينيين أثناء الانتفاضة الفلسطينية عام 1936 وبدأت الجماعات الإسلامية والراديكالية المصرية، ممثلة في الإخوان المسلمين ومصر الفتاة تنظر إلى اليهود المصريين على أنهم طابور خامس. وبدأ اليهود المصريون يتوجسون من أن يؤثر الشعور الوطني المؤيد للفلسطينيين على وضعهم في مصر، وتصرفت الجالية اليهودية بنفس الطريقة التي تصرفت بها عام 1929 وكانت طريقتهم هي الاتصال بالحكومة المصرية والسلطة البريطانية والسفارات الأجنبية ودفع مبالغ مالية كبيرة إلى الكثير من الصحف المصرية، كوسيلة للضغط على المصريين من ناحية، وطلبوا من النشطاء الصهاينة التوقف عن النشاط الصهيوني، أو على الأقل العلني منه، ومن ناحية أخرى استمرت المساعدات السرية لليهود في فلسطين، وانخفض النشاط الصهيوني حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وفضلت السلطات الصهيونية في فلسطين تنشيط هجرة يهود أوروبا إلى فلسطين عن تنشيط الهجرة العربية، وتم تأجيل أوراق المصريين الطالبين للهجرة،

بالرغم من أن عددهم كان قليلاً، ومعظم هؤلاء كانوا من يهود اليمن وعدن والمغرب الذين كانوا يعيشون في مصر، بالإضافة إلى يهود أوروبا الشرقية الذين توقفوا في مصر لفترة في طريق هجرتهم إلى فلسطين عندما تسمح الظروف.

ويعني ذلك أن اليهود المصريين لم يهاجروا إلى إسرائيل قبل عام 1947 وكان العامل المهم في عدم هجرة المصريين الذي أجمعت عليه المصادر الصهيونية، وكذلك المصادر المناهضة للصهيونية، هو الحالة المادية الممتازة لليهود المصريين، وبالذات الطبقات الغنية والطبقات الوسطى المؤثرة في القرار اليهودي، وكان الأمن الذي تمتع به اليهود وعدم وجود أي شعور عدائي لليهود في مصر بين أفراد الشعب المصري بصفة عامة عاملاً مؤثرًا في الحماس للهجرة، ولم يعتقد أحد منهم أن الإخوان المسلمين أو مصر الفتاة قوة مهمة لها مستقبل مؤثر، وإنما رأوا أنهم عناصر متطرفة غير مهمة أو مؤيدة بأي قوى سياسية أخرى، واستمر ذلك حتى نهاية الثلاثينيات.

ولم تكن هناك مشكلة لليهود المصريين في الفترة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، فلم يشعر اليهود

المصريون بأي شعور عدائي على أي مستوى مقارنة بما حدث ليهود أوروبا، وبالتالي لم يشعر يهود مصر بأهمية الصهيونية لهم، وعندما ساعد اليهود المصريون المهاجرين من يهود أوروبا إلى فلسطين بالأموال كانوا يرون أن ذلك مساعدة لليهود المضطهدين في أوروبا، وليس لبناء وطن قومي سوف يهاجر إليه اليهود المصريون.

وكانت الملاحظات التي قيلت وكتبت باستمرار بواسطة الزائرين إلى مصر من يهود أوروبا أو فلسطين، أن اليهود المصريين لا يعيشون حياة يهودية، لأنهم مهتمون بالأشياء المادية ويفتقدون المعاني الروحية والثقافية والمثل العليا في هذا الجو الشرقي المتخلف الذي يعيشون فيه، وأنهم غير مهتمين بالحياة اليهودية السامية الراقية.

وكتب أحد المدرسين اليهود في مدارس الليسيه الفرنسية يقول إن يهود المجتمع المصري مختلفون عن بقية اليهود، وأن اليهود المصريين يهود بالاسم فقط، ولا يعلمون ولا يعرفون أنهم من سلالة الجنس الذي أعطى الدين والأخلاق لكل العالم، صحيح أن اليهود المصريين متدينون يؤدون الصلاة ويذهبون إلى المعبد، إلا أنهم يفتقدون الروح اليهودية

الأصيلة، وهم سعداء بهذا الرخاء الذي يعيشون فيه، ويرجع جزء من المشكلة إلى عدم وجود تعليم يهودي مستقل، وكتب ريتشارد ليشتيم عام 1937 قائلاً: إن الجو العام في مصر شرقي كسول يفتقد الثقافة والفهم، ومعظم اليهود ممتازون، لكنهم يفتقدون الصهيونية والدافع إلى النضال ضد أوروبا، وضد الانصهار في المجتمع المصري الذي يعيشون فيه، بل وصل الأمر إلى أن وجد تيار بينهم يدعو إلى الانصهار والاندماج في المجتمع المصري، وذلك لأنهم سطحيون، والحل يكمن في روح الصهيونية التي يجب أن يؤمن بها كل اليهود المصريين، وفي تلك الفترة على حين كان حاييم ناحوم أفندي الحاخام الأكبر لليهود المصريين يعارض الصهيونية كان حاخام الإسكندرية يؤيد الصهيونية، وترجع معارضة اليهود المصريين للصهيونية إلى أن المصريين متدينون بطبيعتهم، ولا يقّدرون الاشتراكية الصهيونية حق قدرها، ويرفضون المجتمع العلماني، ولا يحبون الآراء التي تتعارض مع الدين، أو ترفض الدين كلية، وهو الأمر الذي كان منتشرًا بين زعماء الصهاينة الزائرين لمصر. وكان كبار في السن من اليهود المؤثرين في مصر يخلطون بين

الشيوعية والإلحاد والصهيونية، وكان اليهود المصريون المحافظون لا يحبون ولا يحترمون الحرية الكاملة للمرأة الصهيونية، التي يرى البعض أنها تكون فاسقة، لأنها تتصرف تمامًا مثل الرجل، وهذه الأفكار مخالفة للتقاليد الشرقية للمرأة.

وسبب آخر لرفض اليهود المصريين للصهيونية، هو أن اليهود السفارديم –وهم الأغلبية في مصر ـ كان يعرفون أن الأشكيناز في فلسطين في المرتبة الأعلى، وأنهم سوف يفقدون وضعهم المميز في مصر، وينتقلون إلى وضع أدنى في إسرائيل، وقد علق كل المبشرين بالصهيونية الذين زاروا مصر، بأن اليهود المصريين من الطبقتين الوسطى والعليا يتصفون بالعنجهية ويضجون من الأفكار الصهيونية، لذا فإن انتشار الصهيونية في مصر حدث في فترة متأخرة جدًا، وفي تلك الفترة نجحت الصهيونية في إقناع أعداد من شباب الطبقة الوسطى من المتعلمين، ولم تنجح مع الأغنياء الذين خافوا على وضعهم المتميز، ومع يهود الحارة الذين كانوا منتمين إلى الوطن إلى حد كبير، وقررت الصهيونية العالمية تغيير سياستها حتى يمكنها أن تكسب يهود مصر، فغيرت

الخطة إلى محاولة اكتساب العائلات الكبيرة والأغنياء، ونجحت في الإسكندرية مع عائلات منشه وجرين وهراري، عن طريق اتصال مكثف مع كبار العائلات وإقناعهم بأهمية الصهيونية وإقامة الوطن القومي، لكن التخطيط نفسه فشل في القاهرة، وكان المجمع الماسوني بناي بريت أكبر ممول مصري للحركة الصهيونية، لأن معظم أعضائه كانوا من كبار أغنياء اليهود.

وهذا الأمر يعني أن اليهودية قومية أكثر منها ديانة، وأن الوطن الصهيوني أقامته مجموعة معظمها من الملحدين، والبقية منهم لا تعطي الدين اليهودي أهمية كبرى، ولم يكن آباء الصهيونية مواظبين على التعاليم اليهودية، وإنما كانوا يؤمنون بالصهيونية عقيدة تجمع يهود العالم بوصفها قومية توحدهم، على حين يلعب الدين دورًا ثانويًا في هذا الأمر، ويمكن استغلاله لأغراض سياسية مثل توحيد الشعب اليهودي، وكانت فكرة القومية التي تعلو على الديانة واضحة عند تكوين الدولة التي لم يكن من المتدينين في قمتها إلا نسبة ضئيلة، واستمر ذلك حتى الآن. ومع المد الديني في العالم كله الذي يتجه يمينًا لا تزال الأحزاب الدينية في إسرائيل

تشكل أقلية، لكنها غير قادرة على تشكيل حكومة تمثل قوة رئيسية.

في البداية ركزت الصحافة الصهيونية على التعاون بين العرب واليهود والقرابة العرقية والأخوة بينهم وبين العرب، وأن في الهجرة إلى فلسطين فائدة للجميع، وأثناء الحرب العالمية الثانية كان يوجد في مصر أعداد كبيرة من جنود الحلفاء اليهود الصهاينة الذين كثفوا جهودهم لتنظيم الشباب في الحركة الصهيونية، وبدأ النشاط الحقيقي عام 1943 حين حفزوا اليهود المصريين ضمن حركة عامة لحث يهود الشرق الأوسط على الهجرة إلى فلسطين، وتم تنظيم الحركات الصهيونية بين الشباب، واستخدمت جميع الطرق القانونية وغير القانونية لدفعهم إلى الهجرة إلى إسرائيل، وبلغ عدد الشباب الصهيوني في مصر في نهاية عام 1947 نحو 1500 شاب، لكن لم تنجح حركات توحيد هذه المنظمات في القاهرة والإسكندرية، فقد كانت الحركات والمنظمات متعددة ومتفرقة وليس لها كيان ضخم مؤثر، وبعد اغتيال اللورد موين طرد استراسلسكي من مصر، وقيدت حركة الجمعيات الصهيونية بواسطة السلطات البريطانية.

وفي عام 1944 قررت المنظمات الصهيونية العالمية تعيين ليون كاسترو مسئولاً عن كل المنظمات الصهيونية في مصر، ونجح في توحيد ألف شاب يهودي تحت لوائه.

واجتمعت اللجنة المصرية الصهيونية في (1945/1/7) بحضور كل الأعضاء المهمين من يهود القاهرة والإسكندرية، وكان عمل اللجنة وحركة الشباب الصهيوني يتم تحت سمع السلطات المصرية وبصرها، وكانت تحركاتهم وتجمعاتهم قانونية، واستمر ذلك حتى شهر نوفمبر 1945 حين قيدت الحكومة حركتهم.

وفي عام 1944 عبر حسن رفعت وكيل وزارة الداخلية عن رغبة الوزارة في تحجيم النشاط الصهيوني في مصر، واتصل بالسفارة البريطانية للتنسيق معها، لكنها لم تعطه إجابة شافية، وطوال الحرب العالمية الثانية كان النشاط الصهيوني في مصر على أشده بزيارات متتالية من زعماء الصهاينة في العالم. وربما كان للمظاهرة اليهودية الكبيرة – التي سارت في شوارع القاهرة في 2 نوفمبر 1945 تأييدًا لذكرى وعد بلفور – أثر كبير في إثارة الشعب والصحافة وخطباء المساجد، وقد تم الرد عليها بأحداث ومظاهرات

ضخمة من الشعب المصري كله ضد الاستعمار الاستيطاني في فلسطين، والتي أحدثت بعض الخسائر اليهودية، وعلى إثرها قام الشباب اليهودي بتنظيم وحدات للدفاع عن الحارة وسلمت لهم أسلحة من الجيش البريطاني كما تقول كرامر، وقد عارض الحركة الصهيونية حتى النهاية جناحان من اليهود المصريين أولهما الزعماء التقليديون من أغنياء السفارديم، والمجموعة الأخرى هي معظم قيادات اليهود الشيوعيين.

وكتب زعماء اليهود المصريون إلى المؤتمر اليهودي العالمي عام 1944 مطالبين بوطن قومي، ولكن في غير فلسطين، ومحذرين من مغبة قيام دولة إسرائيل على مستقبل اليهود في مصر، وطلب رينيه قطاوي من ليون كاسترو إغلاق معسكرات تدريب شباب الصهاينة ولم يعر كاسترو الطلب أي اهتمام، ولما شعر قطاوي في نهاية الأربعينات بنشاط صهيوني في مجلس الطائفة في القاهرة، استقال من منصبه، ولم يستطع أغنياء الجالية ولا الشيوعيون، إيقاف النشاط الصهيوني الذي كانت تدعمه الصهيونية العالمية بآلاتها الجبارة.

وفي عام 1948 أعلنت حالة الطوارئ، وبعد إعلان الحرب أغلقت الحكومة مكاتب الحركة الصهيونية، وكان زعماؤها قد غادروا إلى فلسطين، وفي تقدير كرامر أن معظم اليهود المصريين كانوا حتى عام 1948 لا يعتقدون أن الهجرة إلى إسرائيل هي الحل، ولم يترك اليهود مصر بصفة أساسية إلا بعد حرب 1956.

يتضح من هذا العرض التاريخي للحركة الصهيونية في مصر، أنها أولت اهتمامًا شديدًا بمصر منذ بداية القرن العشرين، لكنها لم تحقق نجاحات تذكر مع اليهود المصريين، باستثناء بعض يهود شرقي أوروبا المقيمين في مصر، وعَبر زعماء الحركة الصهيونية عن غضبهم واحتقارهم لليهود المصريين الشرقيين المتخلفين الذين لا يفهمون ولا يقدرون الصهيونية، وقد حققت الحركة الصهيونية نجاحًا جزئيًا في نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات مع مجموعة صغيرة من الشباب المتعلمين، ويرجع هذا النجاح في تقديري إلى تأثير المدرسين اليهود في مدارس الليسيه فرانسيه اليانس اليهودية التي كان مدرسوها الفرنسيون مقتنعين بفكرة الصهيونية التي جمعوا بينها وبين فكرة الماركسية في بوتقة واحدة، وكان

هؤلاء الطلبة صيدًا سهلاً للصهيونية العالمية، ومع ذلك لم يتحقق للصهيونية النجاح المتوقع لها لأسباب عدة، أولها أن أمور الجالية اليهودية كان يتحكم فيها كبار الأغنياء الذين كانوا مقتنعين تمامًا بأن الصهيونية ليست في مصلحتهم، وهذا لا يعني بالطبع أنهم كانوا من الوطنيين المصريين، لكنهم كانوا يعتقدون أن مصالحهم الاقتصادية سوف يقضي عليها المشروع الصهيوني، وثاني هذه الأمور أن اليهود المصريين كانوا يعيشون حياة كريمة بدون متاعب أو اضطهاد أو عنف، ولا شيء يقارن بما حدث ليهود أوروبا. وثالث الأمور أن اليهود المصريين كانوا يعرفون أن الحياة في إسرائيل سوف تكون صعبة وخطرة، وأن أحوالهم لن تتحسن بل سوف تسوء، لهذه الأسباب مجتمعة كان اليهود المصريون ضد الصهيونية، لذا فإن الهجرة الكلية النهائية لليهود المصريين كانت لأسباب عديدة أخرى سوف نذكرها بالتفصيل، وكان التأثير الصهيوني على أفكار المصريين في مؤخرة هذه الأسباب.

الجنسية المصرية واليهود في مصر

يقول شيمون شامير الذي كان رئيسًا للمركز الأكاديمي

الإسرائيلي في القاهرة، ثم أصبح السفير الإسرائيلي الأسبق في مصر في كتابه (يهود مصر) "إن عصر الليبرالية في مصر الحديثة يشير بوضوح إلى الحياة المريحة والحيوية والنشاط وقوة الجالية اليهودية المصرية، بما أسسته من معابد ومستشفيات ومدارس ومحلات وشركات وبيوت جميلة عاش فيها أغنياء اليهود المصريين، وتمتع اليهود المصريون بوضع يعد أفضل وضع لليهود في العالم الإسلامي". وكان شعار ثورة 1919"الدين والوطن للجميع" هو الشعار الذي أعطى لكل المصريين من جميع الأصول والأديان نفس الحقوق المدنية، بصرف النظر حتى عن لغتهم التي يتكلمون بها، لذا لم يكن اليهود يحتاجون إلى أي نوع من الحماية، لأنهم كانوا مواطنين عاديين. وكانت مفاجأة للكثيرين أن عدداً كبيراً من اليهود المصريين لم يكن يحمل الجنسية المصرية، وبعضهم لم يكن يحمل أي جنسية أخرى عام 1948 حين بدأت هجرة اليهود من مصر.

ويشير التعداد في مصر عام 1947 إلى أن عدد اليهود كان 65639 نسمة، وبالرغم من أن هناك مبالغات كثيرة في أن هذا العدد قليل جداً بالنسبة إلى حقيقة عدد اليهود، إلا أن

المصادر اليهودية الموثوقة تشير إلى أن العدد كان أكبر من ذلك بنحو عشرة آلاف، أي أن العدد الكلي لليهود الذين كانوا يعيشون في مصر كان نحو 75 ألفا قبل قيام دولة إسرائيل.

ويقول شامير "إن منهم نحو 30 ألفا يحملون جنسيات أجنبية، وبالتالي لا يمكن لهم، ولم يحاولوا الحصول علي الجنسية المصرية، و5 آلاف يحملون الجنسية المصرية، ونحو 40 ألفا بدون جنسية". وهناك اختلافات كبيرة في تقدير المؤرخين لعدد اليهود المصريين الذين كانوا يحملون الجنسية المصرية، ويصل التقدير من نحو 5 آلاف ـ كما ذكر شامير ـ إلي خمسين بالمائة من اليهود المصريين، كما ذكر عدد من المؤرخين من مختلف الاتجاهات.

يقول شامير "إن هذا العدد الكبير من اليهود الذين لا يحملون الجنسية المصرية حسب تقديره يفسر أن اليهود كانوا متأثرين بالغرب في كثير من الأحيان، ويتطلعون إلي الحصول علي جنسيات غربية، ولم تكن لديهم الرغبة في الحصول علي الجنسية المصرية".

ويعتقد شامير أن هذا الأمر يثير بعض التساؤلات، أهمها هل كان اليهود أجانب فعلاً؟ وهل كان الحصول علي جنسية

أجنبية سهلاً؟ وهل كانت الجنسية الأجنبية أفضل من الجنسية المصرية؟ وهل عومل اليهود معاملة مختلفة في هذا الشأن مقارنة بكثيرين من غير حاملي الجنسية المصرية من المقيمين في مصر؟.

تطور قوانين الجنسية المصرية

كان كل من يعيش في مصر بصفة دائمة ولا يحمل جنسية أجنبية يعد من رعايا الدولة العثمانية، بما ذلك جميع المصريين أيًا كانت ديانتهم، وحين أعلنت إنجلترا الحرب على تركيا عام 1914 أصبح المصريون من كانوا من أصل مصري أو من الرعايا العثمانيين الذين عاشوا في مصر أو أرادوا الاستقرار فيها، هم الذين يكونون الشعب المصري، وقد مرت قوانين الجنسية المصرية بمراحل كثيرة، بدءًا من قانون عام 1892 الذي نص على أن المصريين هم الذين ولدوا في مصر، أو الذين عاشوا فيها خمسة عشر عامًا متصلة، ونص القانون على أن المصريين لهم الحق في وظائف الدولة، ولهم حق الانتخاب، وكذلك عليهم واجب التجنيد في الجيش، وصدر قانون عام 1914 الذي يقول عنه شامير "إنه قانون متساهل للغاية في الحصول على الجنسية

المصرية". يؤكد القانون أن جميع رعايا الدولة العثمانية المقيمين في مصر لهم الحق في الحصول على الجنسية المصرية. وبالطبع فإنه يشمل جميع اليهود، ما عدا الحاملين لجنسيات أجنبية أو الوافدين الجدد إلى مصر من خارج الدولة العثمانية.

وبين عامي 1897، 1917 تضاعف عدد اليهود المصريين من نحو 25 ألفًا إلى نحو 650 ألفًا، معظمهم قدموا إلى مصر من أجزاء مختلفة مما كان يسمى الدولة العثمانية، ويعني ذلك دولاً عديدة من حوض البحر الأبيض المتوسط.

يقول شامير "إنه حضر إلى مصر في تلك الفترة مجموعة من اليهود والأرمن والشوام الموارنة، معظمهم من جبل لبنان، وكان حضورهم إلى مصر بأعداد كبيرة، وكانت هذه الطوائف على علاقة وثيقة بالغرب، واستطاعوا التعاون مع الإنجليز، ونجحوا في أعمال الصرافة والتجارة، وكان ينظر إليهم على أنهم أجانب، لذا كان القانون يعدهم مجموعة منفصلة وقد كانت هذه المجموعة مختلفة عن اليهود والموارنة والأرمن الموجودين منذ زمن بعيد في مصر".

وكان الرأي العام المصري ضد إعطاء الجنسية مباشرة

لهؤلاء المهاجرين الجدد، سواء كانوا يهودًا أو شوامًا، وكان مصطفى كامل من كبار الناشطين في هذه المعارضة، وقد رفض مجلس الوزراء المصري إعطاء هذه المجموعة الجنسية بطريقة تلقائية.

وفي عشرينات القرن العشرين بدأت الوطنية المصرية بعد ثورة 1919 تأخذ مسارًا واضحًا نحو الاستقلال، وتوصيف حدود مصر وتعريف من هو المصري، وحددت الجنسية المصرية بثلاثة قوانين، الأول هو أن كل من كان يعيش على أرض مصر بصفة مستمرة حتى يوم 18 ديسمبر 1914 له الحق في الحصول على الجنسية المصرية، إلا إذا طالب في خلال عام بالحصول على الجنسية التركية، وفي هذه الحالة عليه أن يغادر مصر خلال ذلك العام، وكان ذلك منطقيًا، لأن كل سكان مصر قبل ذلك التاريخ كانوا يعدون من رعايا الدولة العثمانية، وكانت جوازات سفرهم صادرة باسم الدولة العثمانية، وكان القانون لا يعطي الوافدين إلى مصر بعد ذلك التاريخ الحق في الحصول تلقائيًا على الجنسية المصرية، وطلب القانون من كل مواطن من سكان الإمبراطورية العثمانية السابقة الحصول على جنسية البلد الذي كان يقطنه

بعد خروج هذه الدول من عباءة الإمبراطورية العثمانية.

في عام 1917 كان تعداد مصر 12 مليون نسمة، منهم نحو 25 ألف يهودي، يتمتع بالجنسية المصرية منهم 15 ألفًا والباقي يحملون جنسيات أخرى، أهمها البريطانية والفرنسية والإيطالية، والبعض كان من رعايا الدولة العثمانية، وكان هناك غموض في تصنيف اليهود، هل اليهودية دين أم جنس عرقي؟ولم تكن التعريفات واضحة أو محددة، فمثلاً كان بعض اليهود يدينون باليهودية وجنسيتهم مصرية، والبعض الآخر كان يكتب في الأوراق الرسمية أن جنسيته (يهودي)، وعمومًا هناك كثير من الغموض في هذه النقطة حتى لدى باحثين متميزين مثل كرامر.

وقد نوقشت عدة مشروعات للجنسية المصرية، وتمت الموافقة على القانون نهائيًا، وصدر في عام 1929، ويعد هذا القانون في رأي شامير قانونًا ليبراليًا وطنيًا مصريًا، وكان يعتمد على حرية المواطن وانتمائه للوطن الذي يمثل أمة مصرية موحدة، وقد عَرفَ القانون المصريين بأنهم كل مواطني الدولة العثمانية الذين كانوا مقيمين في مصر في 5 نوفمبر 1914 يوم إعلان الحماية البريطانية وانفصال مصر

رسميًا عن الدولة العثمانية، والذين استمروا يعيشون في مصر حتى صدور القانون، أما الذين حضروا إلى مصر بعد ذلك التاريخ أو عاشوا خارج مصر في تلك المدة فيمكنهم الحصول على الجنسية بعد تقديم طلب خلال عام من صدور القانون. أما أبناء المصريين الموجودين في الخارج، وكذلك من يولد في مصر من أب أجنبي ولد في مصر، فيحصلون على الجنسية المصرية، ومن حق المواطنين الذين يعيشون في مصر لأكثر من عام ويحملون جنسية أخرى يريدون التخلي عنها ليحصلوا على الجنسية المصرية، أن يتقدموا بذلك بعد عام من إقامتهم، ويجوز في هذه الحالة منحهم الجنسية، وأضاف القانون أن من يقيم إقامة مستمرة لمدة عشر سنوات في مصر من حسن السير والسلوك والقدر على كسب عيشه، ويجيد اللغة العربية يمكن أن يحصل على الجنسية المصرية بدون سابق علاقة له بمصر.

وكما يقول شامير فإن كل اليهود المقيمين في مصر منذ القرن التاسع عشر – وكان عددهم نحو سبعة آلاف نسمة ـ كان حصولهم على الجنسية المصرية تلقائيًا بنص هذا القانون، وحيث إن تعداد عام 1927 أظهر أن عدد اليهود

المقيمين في مصر 32032، كان ثلثهم من المقيمين لأجيال طويلة في مصر، يحق لهم الحصول على الجنسية، وكذلك يحق لليهود الذين هاجروا إلى مصر عام 1914 هم وأبناؤهم، ويفيد شامير أن موسم الهجرة الكبرى إلى مصر من حوض البحر الأبيض المتوسط ومن شرقي أوروبا واليمن والعراق، كان يتيح أن ينضم إلى هذه المجموعة اليهود من الرعايا السابقين للدولة العثمانية، والذين هاجروا إلى مصر من مختلف البلاد، والذين كان من الممكن أن يحصلوا على الجنسية خلال عام واحد حسب هذا القانون، وكان هذا أمرًا سهلاً وبسيطًا، لكن المفاجأة الكبرى كانت عام 1947 حيث أظهر الإحصاء أن عدد اليهود في مصر كان نحو 75 ألفًا والمسجلين في التعداد الرسمي نحو 65 ألفًا، منهم نسبة كبيرة منن اليهود بدون جنسية، وطفا على السطح السؤال الكبير: لماذا كان ثلث أو ثلثا اليهود المصريين بدون أية جنسية؟ واستخدمت هذه النقطة في التشهير بمصر وإظهارها بمظهر الدولة المتعنتة، العنصرية التي ترفض أن تمنح الجنسية لمن عاش فيها فترات طويلة، واستخدمت أيضًا أداة لتهجير اليهود المصريين إلى مختلف بلاد العالم، بما فيها

إسرائيل، وللإجابة على هذا السؤال المهم دعنا أولاً نستمع إلى رأي شيمون شامير سفير إسرائيل الأسبق في القاهرة، الذي يقول إنه ربما كان السبب في عدم التقدم للحصول على الجنسية المصرية هو الأمل في الحصول على جنسية أوروبية، فمثلاً كان الإنجليز لا يوافقون على منح الجنسية البريطانية للمصريين إلا في حدود ضيقة جداً، مثل العائلات اليهودية الغنية من أمثال ساسون وسموحة وهراري، وكان الإيطاليون والفرنسيون أكثر كرمًا في منح الجنسية ليهود مصر، ويقول شامير إن الوطنية المصرية كانت تطالب بتمصير الوظائف وبذا تصبح الجنسية المصرية ميزة. ومع ذلك لم يسارع اليهود إلى الحصول على الجنسية المصرية، ويعتقد شامير أيضًا أن الحصول على الجنسية الأوروبية لم يعد مغريًا، بعد أن ألغيت المحاكم المختلطة والقوانين التي تعطي مميزات خاصة لحاملي الجنسيات الأوروبية، وعمومًا في تلك الأثناء كان اليهود المصريون الأغنياء أو الذين لهم علاقات أوروبية خاصة قد حصلوا بالفعل على جنسيات أوروبية.

وقد بدأ موضوع الجنسية المصرية يأخذ بعض الأهمية التي

تزايدت بمرور الوقت، وفي نهاية الثلاثينيات عندما بدأ تمصير الوظائف والاقتصاد المصري، أصبح من الأهمية أن يحمل المواطن الجنسية المصرية، وازداد الأمر أهمية عام 1937 ثم أصبح له أهمية قصوى عام 1949، وهو العام الذي انتهت فيه فترة التمييز الأجنبي والمحاكم المختلطة فقبل ذلك التاريخ كانت هناك ميزة لأن تكون أجنبيًا وتحمل جنسية أوروبية، فقد كانت المعاملة مع الحكومة أسهل، والمعاملة الضرائبية أسهل، وحتى المحاكم الجنائية كانت تعرض على محاكم خاصة، وكان لدى حاملي الجنسية الأجنبية من الحماية والمساعدة أكثر مما هو متاح للمصريين، وبالطبع فإن ذلك ساعد على انتعاش أعمالهم ومشاريعهم.

وقد حاول الكثير من اليهود في مصر استغلال هذا الأمر بالحصول على جنسية أوروبية، وكانت فرنسا كريمة في منح جنسيتها ليهود ليس لهم أية علاقة بفرنسا سوى أنهم يتكلمون لغتها، على حين لا يوجد أحد من عائلاتهم هناك، وربما لم يزوروا فرنسا أبدًا.

وكان الأمر كذلك مع بعض الدول مثل إيطاليا، وكان الغرض من وراء ذلك زيادة نفوذ الدولة الأجنبية في مصر بسبب

كثرة رعاياها، بالإضافة إلى مبلغ محترم يدفعه المواطن للحصول على الجنسية.

وبدأ الكثيرون من اليهود الذين صعدوا السلم الاجتماعي في اختراع تاريخ وهمي لعائلاتهم في أوروبا قبل الهجرة إلى مصر، واخترع البعض تاريخًا لهم في تونس والجزائر والمغرب، فربما يستطيعون الحصول على الجنسية الفرنسية، والبعض الآخر يخترعون تاريخًا لهم في عدن وجبل طارق، لعلهم يحصلون على الجنسية البريطانية بدلاً من أن يبقوا مصريين.

والغريب أن الذين هاجروا إلى مصر في أوائل القرن العشرين سارعوا إلى الحصول على الجنسية المصرية، على حين أن اليهود الذين عاشوا في مصر أجيالاً لم يسعوا إلى الحصول على الجنسية، وهكذا أصبح معظم اليهود الذين حصلوا على جواز السفر المصري أجانب يتكلمون لغات أجنبية، على حين أن اليهود المصريين فضلوا أن يبقوا بدون جنسية تحت الحماية الأوروبية للأقليات، وهكذا أصبح هؤلاء اليهود أجانب بدون جنسية مصرية، على حين أنهم مصريون يعملون في مصر ولهم ممتلكات فيها، وهو وضع فرضه

التطلع اليهودي إلى الحصول على الجنسية الأوروبية من ناحية، وازدراء الجنسية المصرية من ناحية أخرى. وقد كان وضع المواطن المقيم في مصر الذي لا يحمل أية جنسية أفضل من وضع حامل الجنسية المصرية لأن إعلان الحماية البريطانية أعطى غير الحاصلين على أي جنسية نفس المميزات لحاملي الجنسيات الأجنبية، لذا فضل بعض اليهود المصريين عدم الحصول على الجنسية المصرية، ليتمتعوا بالامتيازات الأجنبية، وكان عندهم الأمل دائمًا في الحصول على جنسية أوروبية، وهناك خلاف حول نسبة هؤلاء اليهود غير الحاملين للجنسية، لأنه في عام 1937 ازداد عدد اليهود المسجلين بجنسية مصرية، لكن كثيرًا من اليهود فقدوا الجنسيات الأجنبية التي سحبت منهم.

وفي أثناء الثلاثينيات حين كان الحصول على الجنسية سهلاً وغير معقد لم يطالب معظم اليهود الحصول على الجنسية، لشعورهم بأنه لا توجد فائدة مادية أو معنوية من الحصول عليها، وفي منتصف الأربعينيات حين أصبح الحصول على الجنسية أكثر صعوبة لم يستطع الفقراء والمهمشون من اليهود الحصول عليها، أما الأغنياء ومتوسطو الحال فكان

عندهم إما جنسية أجنبية أو تقدموا وحصلوا على الجنسية المصرية، فبعد نهاية الحرب العالمية الأولى كان عدد حاملي الجنسيات الأوروبية 22٪ من يهود مصر، وبين قائمة الأغنياء والمؤثرين من اليهود التي نشرت عام 1922 كان 13٪ من يهود الإسكندرية فقط في قائمة من يحملون الجنسية المصرية، ومن يهود القاهرة 6٪ فقط، ومن اليهود الأشكيناز 53٪، ومجموع اليهود في هذه القائمة كان 380 شخصًا، هم أهم وأقوى وأغنى اليهود. ويلاحظ هنا أن اليهود الأشكيناز البعيدين عن الشرق الأوسط وفهم الجو المصري – وهم في الوقت نفسه حاملو لواء الصهيونية، وهم الذين لا يعرفون اللغة العربية، نجد أنهم استوعبوا أهمية الحصول على الجنسية المصرية ولو إلى حين، أما اليهود الشرقيون من السفارديم فتمكن البعض من الحصول على الجنسيات الأوروبية، ومن لم يتمكن استمر يعيش بدون جنسية تحت الحماية البريطانية ومميزاتها، مفضلاً ذلك على الجنسية المصرية.

• يقول لانداو إنه في أوائل الثلاثينيات شعر اليهود المصريون بأن هناك رياحًا جديدة تهب، وأن الشعور الوطني المصري بدأ يلتهب فلجأ الكثير من اليهود إلى الحصول على دروس في اللغة العربية، خوفًا من المستقبل، خاصة أولئك الذين لا يحملون الجنسية، واختلفت وجهات نظر اليهود المصريين تجاه تعاظم الشعور الوطني المصري، وحاول بعض المثقفين من اليهود الانضمام إلى التيار الوطني المصري، وأسسوا جمعية الشبان اليهود المصريين، وظهر هذا التيار في بعض الصحف اليهودية مثل (الشمس)، ونادوا بوطن واحد للجميع، وطالبوا بالتركيز على ذلك في المدارس الإسرائيلية الفرنسية. وطالبوا بأن يعمل الجميع لرفعة مصر ورخائها، واهتمت بهذا الأمر بعض قيادات اليهود المصريين مثل رينيه قطاوي ويوسف أصلان قطاوي، طالب حاييم ناحوم أفندي حاخام اليهود المصريين في إعلان رسمي بالاهتمام بالجنسية المصرية والتقدم للحصول عليها.

ويعتقد شامير أن عدم حصول الكثيرين من اليهود على

• تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية 1517 ـ 1914، تحرير يعقوب لانداو.

الجنسية المصرية يرجع إلى عدم تقدير أهمية هذا الأمر، خاصة في الشريحة السفلى من الطبقة الوسطى، وبالرغم من انتشار التعليم بين اليهود، إلا أنه بين عامي 1927، 1937 كان نحو الثلث من اليهود أميين، وكان الكثيرون يثقون في أن وضع الجالية في مصر مستقر، ولم يحاولوا التقدم للحصول على الجنسية، ويقول شامير إن مبلغ الخمس جنيهات رسوم الحصول على الجنسية كان فوق طاقة الفقراء، واعتقد كثير من اليهود من الطبقة المتعلمة أن القانون فيه تعقيدات (وذلك غير صحيح) فتكاسلوا عن التقدم للحصول على الجنسية.

وتقول وثيقة رسمية من الأمم المتحدة إن الكثير من اليهود المصريين لم يحصلوا على الجنسية المصرية بسبب الكسل والإهمال، أو لأسباب أخرى غير واضحة بالرغم من مد فرصة الاستفادة بالقانون عدة مرات.

ويقول شامير "إن البيروقراطية المصرية التي قد تصل إلى حد التمييز بين المتقدمين، مع صعوبة تقديم بعض الأوراق كانتا سببًا مهمًا في عدم حصول اليهود على الجنسية المصرية"، ويعتقد أن هذا لم يكن تمييزًا ضد اليهود، بل ضد

منح الجنسية المصرية للأجانب المقيمين عامة وأن وزارة الداخلية كانت تتعنت في طلباتها غير أن من لجأ إلى مجلس الدولة حصل على حقه في جميع الأحوال، غير أنه لم يثبت أن البيروقراطية كان لها أي دور في تعطيل منح الجنسية لليهود قبل منتصف الأربعينيات، ولكن يبدو أنه كان لها دورًا اعتبارًا من نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945، وهناك نقطة مهمة أثارها كل من بدوي وغالي ورياض وهي أن روح القانون هي الأهم، وأن الجنسية تعطى لكل الأشخاص المقيمين الذين يكون واضحًا أنهم سوف يذوبون وينصهرون في بوتقة واحدة مع الشعب المصري، وأن هذا الأمر في أوروبا كان أكثر سهولة، لأن معظم الجنسيات الأجنبية في مصر كانت سوف تذوب في التيار الأوروبي لا محالة بعد فترة طالت أم قصرت، أما بالنسبة لمصر فإن موضوع الانصهار قد يكون صعبًا، وأحيانًا مستحيلاً لبعض الجنسيات، وكما قال بدوي فإن الأولوية في منح الجنسية كانت للعثمانيين الذين يستحقون الجنسية المصرية، ثم العرب والمسلمين ليس كدين وإنما كحضارة وجنس، وأن اللغة العربية جزء مهم من أركان الجنسية.

وقد كانت النظرة العامة إلى اليهود المصريين أنهم يمثلون ثقافة وحضارة مختلفة ومرتبطة بالحضارة الغربية، وذلك لأن الظاهر للعيان أن اليهود كانوا من كبار الأغنياء أو الشريحة العليا من الطبقة الوسطى وكانت لهم ارتباطات وثيقة بالغرب.

ويعتقد شامير أن قانون الجنسية المصرية تأخر كثيرًا في فترة الثلاثينيات، لأن المجتمع المصري تغير والروح الوطنية أصبحت عارمة، وظهرت قوى جديدة كالإخوان المسلمين ومصر الفتاة، وكلاهما كان يكن عداء للغرب بصفة عامة، واليهود بصفة خاصة. ويعتقد شامير أن الفقرة الخاصة بالمصريين في المادة السادسة من قانون الجنسية يفهم منها أنها تعني الأقباط والمسلمين، وأصبح هناك كلام عن مصريين حقيقيين ومصريين غير حقيقيين.

وبالرغم من كل ما يقوله شامير فإنه يعترف بأنه لم تكن هناك صعوبة في الحصول على الجنسية المصرية في السنوات الأولى لصدور قانون الجنسية، وأن اليهود تأخروا وتكاسلوا في طلب الجنسية لفترة متأخرة، وكانت الظروف العامة قد تغيرت وبيروقراطية موظفي الداخلية قد ازدادت.

الجنسية المصرية ونهاية الجالية اليهودية

صدر قانون العمل الجديد عام 1947، وأعطى فرصًا أكبر لتعيين المصريين في الوظائف ليحلوا محل الأجانب، وكان هذا عاملاً مهمًا في تمصير الشركات وإعطاء أهمية للجنسية المصرية، وقد طبق القانون حرفيًا، وأدى ذلك إلى الاستغناء عن خدمات الكثير من الأجانب وغير حاملي الجنسية المصرية، وحتى لا يفقد اليهود وظائفهم انطلقوا بسرعة البرق فجأة للحصول على الجنسية المصرية، ولم يكن الأمر سهلاً في ذلك الوقت، وذلك في السنة السابقة لإعلان دولة إسرائيل، وأعلنت مصلحة الجوازات بوضوح أن المصريين هم فقط من يحملون جوازات السفر المصرية، وبعد عام 1948 توقفت الحكومة المصرية عن منح الجنسية المصرية لليهود، وقد صدر قانون آخر للجنسية عام 1953، ثم في عام 1956 أصبح الحصول على الجنسية المصرية أكثر صعوبة، وقد تحولت روح القانون تدريجيًا من سهولة الحصول على الجنسية المصرية إلى صعوبة الحصول عليها.

والمعروف أن القانون لم يقصد به اليهود، وإنما الأجانب، والمفروض أن اليهود المصريين مصريون لهم جميع الحقوق

وعليهم جميع الواجبات، فحين يكتشف الشعب المصري أن اليهود المصريين في معظمهم لا يحملون الجنسية المصرية التي كان متاحًا الحصول عليها بسهولة ويسر طوال عشرات السنين، فإن ذلك يعني أمرًا واحدًا هو أن اليهود المصريين الذين ولدوا هم وآباؤهم – وربما أجدادهم ـ في مصر لم يفكروا في الانتماء الكامل للوطن، وإنما عاشوا في هذا الوطن، لأنه أفضل مكان في العالم تَقَبلهم ورحب بهم وأعطاهم فرصًا تزيد على مواطنيه المصريين، وقد فوجئت الحكومة المصرية عندما اكتشفت أن الكثير من اليهود الذين عاشوا أجيالاً في مصر لم يكونوا يحملون الجنسية، وفي تلك اللحظة فقط هرعوا إلى السلطات المصرية يحاولون الحصول على الجنسية.

يقول شامير إن ما حدث للجالية اليهودية في مصر حدث أيضًا للجاليات الإيطالية واليونانية والروسية، وكذلك حدث الأمر تاريخيًا للجالية اليونانية في تركيا والهنود في كينيا والصينيين في إندونيسيا، وأن جزءًا من المشكلة كان يقع على الأقلية التي تعاونت في كثير من الحالات مع الاستعمار أو القوى العالمية المسيطرة، وكانت أحيانًا تتحيز وتسيطر

على الاقتصاد الوطني. فمن الواضح أن معظم الجالية اليهودية في مصر – خاصة الأجيال الجديدة منها ـ لم تكن تريد أن تذوب في جموع الشعب وتحمل آماله وآلامه.

وفي النهاية فإن الشعب المصري لم يفرق بين الهنود الذين يمكن أن يذوبوا فيه ويتمصروا تمامًا والذين لم يذوبوا فيه، لأن الشعب كان متفرجًا في معظم الأحوال ويتساءل شامير هل استفادت مصر أم خسرت بسياسة التمصير؟ ويجيب بأنه كان من الواجب أن يتغير الموقف ليصبح أكثر عدالة بين الأجانب المتحكمين في مصادر الثروة وبين المصريين أصحاب البلد، وكان يجب أن يكون هناك تيار ثقافي عام في مصر يجمع الأجانب والمصريين، ثم يتساءل مرة أخرى هل كان من الممكن التصرف بطريقة أخرى للحفاظ على الشخصية المصرية التي تجمع ثقافات متعددة تقوم بنشاط خلاق في المجتمع؟

وللإجابة عن سؤال شامير فإن موقف اليهود كان صعبًا بسبب قيام دولة إسرائيل والمواجهة العسكرية في حرب 1948، أما بقية الأجانب فقد كان الاحتكار والسيطرة الأوروبية سببًا أساسيًا في أن يكون القرار الشعبي المصري

هو التخلص من النفوذ الأجنبي، وليس من الأجانب واليهود، لكن هؤلاء رفضوا أن يعيشوا في ظروف الشعب المصري نفسها وعندما ذهبت امتيازاتهم الخاصة قرروا الهجرة من مصر.

بعد قراءة مستفيضة ودراسة دقيقة لجميع الآراء التي كتبت في موضوع الجنسية من شامير السفير الإسرائيلي الأسبق في مصر والأستاذ الأكاديمي والباحث المتميز بنيين، وبعد مراجعة جميع المصادر المتاحة مصرية وأجنبية أود أن أقول إنني على ثقة كبيرة من أن بعض أغنياء اليهود من السفارديم الذين وفدوا إلى مصر في القرن التاسع عشر من أنحاء الدولة العثمانية ارتبطوا بالثقافة ورأس المال الغربي، وحصلوا على الجنسيات الغربية المختلفة أو كانوا في طريقهم للتجنس بها، أو حتى الأمل في الحصول عليها يومًا ما، ولم يكن عندهم الرغبة في الحصول على الجنسية المصرية ولم يشعروا أبدًا بالانتماء لمصر ولا الولاء للمصريين، وكانت فترة إقامتهم في مصر التي امتدت إلى عدة أجيال ما هي إلا محطة في الدياسبورا اليهودية قد تنتهي يومًا ما في دول أوروبية أو في حلم الدولة اليهودية، وهذه

المجموعة من العائلات الغنية المشهورة مثل سمسون وسموحة وهراري وغيرها، كانت ذات وضع اقتصادي متميز وعلاقتها قوية بالدول الغربية والاستعمار الإنجليزي، وكان لها نفوذ كبير في مصر، وكانت تعيش في عالمها الخاص الذي لا يرتبط بمصر أو المصريين إلا ببعض الخدم والبوابين، حتى مربيات الأطفال في هذه العائلات كانت جنسياتهن أوروبية ولم يكن لديهن اهتمام بالأمور السياسية ولا الدخول في حلبتها، وكانت قوتهم الاقتصادية تستخدم في المحافظة على مصالحهم، وذلك باستخدام النفوذ الاستعماري الإنجليزي على السلطات المصرية، ومن المؤكد أن هذه المجموعة مثلها مثل الاستعمار الإنجليزي كانت تشعر بالحركة الوطنية المصرية ونفوذها المتزايد، ورتبت أحوالها المالية والاقتصادية بحيث يسهل لها الانتقال إلى الخارج بأموالها في الوقت المناسب بدون خسائر، وهو ما حدث فعلاً.

أما المجموعة الثانية فكانت من اليهود السفارديم الذين هاجروا من أسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر على حوض البحر الأبيض المتوسط، وتوالت هجراتهم إلى مصر،

واستطاعت هذه الطبقة أن تكون في مقدمة الرأسمالية الوطنية المصرية، بل سبقت الرأسمالية المصرية الوطنية في كثير من المشروعات الصناعية والزراعية، ثم شاركت الرأسمالية المصرية في مشروعات كثيرة بعد ذلك، وكانت هذه العائلات تعد نفسها مصرية وحصلت على الجنسية المصرية مبكرًا، ووجدت هويتها المصرية بوضوح، بل كانت قلقة من أي نفوذ صهيوني في مصر، لأنه قد يضعف موقفها الوطني، ومن هذه المجموعة عائلات مثل قطاوي وشيكوريل، وهذه الطبقة كانت فاحشة الغناء ومختلطة أيضًا بالأجانب والقوى الغربية، لكن مع الحفاظ على هويتها المصرية إلى حد ما، وكان منها بعض الوزراء، ونجح في انتخابات البرلمان بعض منها، ولم تكن عند هذه المجموعة مشكلة في الحصول على الجنسية المصرية، وقد حصلوا عليها مبكرًا في نفس الوقت مع غيرهم من المسلمين.

أما المجموعة الثالثة فهي الشريحة السفلى من الطبقة الوسطى من اليهود السفارديم وبعض الأشكيناز، الذين استطاعوا أن يتلقوا قدرًا من التعليم في مدارس الإرساليات الإسرائيلية الفرنسية مكنهم من الحصول على وظائف في الشركات

والبنوك والمصانع لمعرفتهم الجيدة باللغة الفرنسية وأصول الإدارة والمحاسبة وما شابه ذلك، وهذه الطبقة لم تكن غنية، وكانت تعيش في الأحياء التي تقطنها الطبقة المتوسطة من المصريين، وكان لهذه الطبقة تطلعات اقتصادية كبيرة، وكان أفرادها يعلمون جيدًا أن هذا الأمر سوف يتحقق بالتصاقهم بالرأسمالية الغربية والقوى الأوروبية والأجنبية والاستعمار البريطاني، لذا لم يحاولوا الالتصاق بالشعب، ولم يعدوا أنفسهم جزءًا منه ولم يحلموا مثله ولا فكروا في مستقبله، وهم الذين عاشوا معه أجيالاً، وكانت لغتهم العربية في الأغلب ضعيفة، والكثير منهم كان يتكلمها، لكنه لا يكتبها، لأنها لم تكن لغة العمل في معظم الشركات، وأعتقد أن هذه الطبقة هي التي استطاع الصهاينة الأوائل في مصر الوصول إليها، وهي التي تكونت منها خلايا الصهيونية الناشطة، وهذه الطبقة هي التي تلكأ بعض أفرادها ولم يحاولوا الحصول على الجنسية المصرية لسنوات طوال عندما كان الحصول عليها سهلاً وميسورًا بدون مشاكل، لأنهم لم يرغبوا في ذلك، وكان حلم الجنسية الأوروبية يداعبهم، وبالتأكيد كان الحلم الصهيوني يلعب دورًا في صياغة أفكارهم، وهذه الطبقة هي

التي اكتشفت فجأة أن هناك قومية مصرية صاعدة، وأن هناك تغييرًا في قوانين العمل يعطي ميزة للمصريين، وهو ما أدى إلى نشاط مفاجئ في هذه الطبقة لتعلم اللغة العربية ومحاولة الحصول على الجنسية المصرية حتى يحتفظوا بوظائفهم، وكان ذلك في مرحلة متأخرة في أواسط الأربعينيات، حين أصبح الحصول على الجنسية المصرية أصعب وأكثر تعقيدًا، وكانت مشكلة الاستيطان اليهودي في فلسطين قد وضحت للمصريين، ومبادئ التوتر بين المصريين والصهاينة في فلسطين قد ظهرت في الأفق، ويفسر عدم حصول الأعداد الكبيرة من اليهود على الجنسية المصرية بتقاعسهم ورفضهم الحصول عليها لسنوات طويلة، وحين أرادوا لأسباب نفعية شخصية الحصول على الجنسية كان الوقت قد فات، وأصبح الحصول عليها بعيد المنال.

وقد نشرت رئاسة الطائفة اليهودية إعلانًا في 9 يناير 1948 جاء فيه: نوجه أنظار أبناء الطائفة بصفة خاصة إلى الضرورة القصوى والملحة في تسوية حالتهم فيما يتعلق بالجنسية، ونرجو من جميع الذين لا يتمتعون بجنسية أجنبية محددة، والذين بسبب ميلادهم وإقامتهم المستمرة في مصر أو

الظروف الأخرى التي يحق لهم بسببها المطالبة بالجنسية المصرية، عليهم التقدم لأن مصلحتهم تقتضي القيام بهذا العمل، وعلى الذين يقتربون من سن الرشد (21 عامًا) أن يقوموا في الحال بعمل الإجراءات اللازمة لاختيار الجنسية المصرية، وأعلنت رئاسة الطائفة أنه على كل فرد توجيه النصح لأقاربه وأصدقائه بالتوجه إلى المكتبة الإسرائيلية بالمعبد اليهودي، لتسهيل إجراءات الحصول على الجنسية المصرية، وتمت الإجراءات نفسها في الإسكندرية.

وقد أثارت بعض الصحف اليهودية موضوع وجوب تسجيل اليهود للإقامة في مصر مثل الأجانب، وهذا غير صحيح، حيث إن اليهود الذين لا يحملون الجنسية لم يطلب منهم تصريح إقامة وتسجيل، بل شجعوا على الحصول على الجنسية المصرية بقانون أوائل القرن ثم قانون عام 1929 لكنهم لم يتحركوا في هذا الاتجاه إلا بعد أن شعروا بأنهم ربما يفقدون وظائفهم بسبب عدم حصولهم على الجنسية المصرية، ويبدو أن اليهود اعتقدوا أن قانون العمل الجديد موجه ضدهم، وليس ذلك صحيحًا، لأنه صدر لحفظ حق المصريين في العمل، ولم يتأثر به اليهود من حاملي الجنسية

المصرية. ولم يكن الحجم الضخم الكبير لليهود الذين لا يحملون الجنسية معروفًا للحكومة المصرية، ولا حتى للجالية اليهودية نفسها.

أما الطبقة الأخيرة المنتمية للمصريين قلبًا وقالبًا فهم سكان حارة اليهود من اليهود القرائين والربانيين ومعظم اليهود الشيوعيين على حد سواء، فكانت هناك نسبة لا بأس بها تحمل الجنسية المصرية أما الباقي فلم يتقدموا عن جهل أو كسل، بالرغم من أن الحاخام الأكبر وجه نداء لليهود بالتقدم للحصول على الجنسية بعد صدور قانون الجنسية، الغريب أن الطائفة اليهودية الغنية والمنظمة التي أنشأت الصناعات والمستشفيات والمدارس والملاجئ ودور المسنين لأهل الطائفة، لم تشغل بالها بمساعدة سكان الحارة على الحصول على الجنسية، وهو أمر غير مفهوم، إلا إذا كانت القيادات تعلم أن إقامتهم في مصر مؤقتة، وأن الجنسية ليست لها أهمية كبرى، وربما كان عدم الحصول عليها فائدة للحركة الصهيونية، لأن عدم وجود الجنسية كان يعني سهولة نقلهم إلى الوطن القومي في المستقبل.

اليهود والمشاركة السياسية في مصر

لعب اليهود أدوارًا معلنة وأخرى مستترة في السياسة المصرية منذ القرن التاسع عشر، يقول الرافعي إن مجلس الحكم أثناء الثورة العرابية أصدر بيانًا يرفض فيه عزل عرابي، ورفض قرار الإنجليز 500 شخص، منهم شيخ الأزهر وحاخام اليهود، وقد انضم بعض شباب اليهود إلى الثورة العرابية، وكان يعقوب صنوع الذي تحدثنا عنه في فصل سابق، مثالاً للوطنية المصرية، وكتب عرابي إلى صنوع من منفاه في 1884/9/25 قائلاً: أعترف بأنك كنت أول من تعاطف مع الأمة المصرية، لأنك كافحت من أجل قضية الأمة والحرية ثماني سنوات، وكانت صحيفتا (الحاوي) و (أبو نظارة) أهم عون لي في نداء الأمة ونشر أفكار الحرية بين القاصي والداني، أكرمك ا باسم الأمة.

ويقول جاك حسون إن يهود الإسكندرية أيدوا ثورة عرابي، ثم أيد أولادهم وأحفادهم سعد زغلول أثناء ثورة 1919 وانضم البعض مثل فيلكس بنزاقين وموريس فرجون إلى حزب الوفد، والكثيرون إلى الحركات الماركسية، والغريب أنه حين أيد الشعب المصري ثورة عرابي، قام حاخام اليهود

وأبناء الطائفة بتأييد عرابي من منطق أنهم مصريون وطنيون مؤمنون بقضية مصر واستقلالها، وكان هذا الشعور نابعًا عن شعور وطني مصري لم يتأثر بالأفكار الصهيونية التي لم تكن تبلورت بعد، ولم تؤثر في انتماء اليهود المصريين لوطنهم، وفي الوقت نفسه تقدم المليونير اليهودي الشهير روتشلد – الذي دعم الحكومة البريطانية لشراء أسهم مصر في قناة السويس لإنشاء أول مستوطنة يهودية في فلسطين ـ ليقنع أحمد عرابي بالسفر إلى أوروبا ـ وتقاضي 4 آلاف جنيه سنويًا، مقابل التخلي عن القضية الوطنية المصرية والموافقة على المطالب الإنجليزية الفرنسية وإجهاض الثورة، وهذا يظهر أن زعماء الصهيونية العالمية سواء كانوا سياسيين أو رأسماليين كانت أعينهم على مصر، وخطورة حصولها على الحرية والاستقلال منذ القرن التاسع عشر.

والموقف نفسه حدث مع مصطفى كامل الذي كان زميله في الدراسة في فرنسا داود حزان ابن حاخام الإسكندرية الذي حكم عليه الإنجليز بالإعدام، بسبب نشاطه الوطني لكن الحكم خفف، ومن المثير أن نعرف أن مصطفى كامل قابل تيودور

هرتزل أبا الصهيونية قبل المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897 طالبًا منه المساعدة في القضية الوطنية المصرية، وكتب هرتزل في مذكراته: قابلت هذا الشاب الشرقي المثقف الذكي الفصيح، سوف أضعه منذ الآن في حساباتي، لأنه قد يلعب يومًا دورًا في سياسة الشرق، حيث يجوز أن نلتقي فيما بعد. ثم يضيف: وهو أيضًا سليل الفراعنة الذين استعبدونا (يقصد اليهود)، وهو يشكو الآن من عذاب العبودية، ويأتي إلي أنا اليهودي سعيًا وراء مساعدتي، ولا أعتقد أنني قادر على أن أفعل له شيئًا، لكني أكدت له أطيب تمنياتي، ثم عقب هرتزل في مذكراته على هذه المقابلة قائلاً إنه من الأفضل للقضية الصهيونية أن يخرج الإنجليز من مصر، وأن يصبح عبور قناة السويس خطرًا، وعندئذ تكون فلسطين اليهودية الحديثة مفتوحة أمام اليهود، ويتخذ خط سكة حديد يافا إلى الخليج الفارسي طريقًا يهوديًا مهمًا منافسًا لقناة السويس.

ومن الواضح أن هرتزل والصهيونية العالمية كانت لديهم خطة واضحة المعالم، لكنها تخضع للتغير حسب مقتضيات الظروف، وواضح مدى المرارة عند هرتزل بسبب طرد اليهود من مصر في العصر الفرعوني منذ آلاف السنين،

وكان تقدير هرتزل سليمًا عن مصطفى كامل بأنه شخصية مهمة لها مستقبل في مصر، ولولا وفاة مصطفى كامل في ريعان الشباب، فإنه في الأغلب كان سيصبح من أهم الشخصيات المصرية في نضالها ضد الاستعمار، ومن الناحية الأخرى لم يكن العرب والمصريون عندهم أدنى تفكير أو معلومات عن المشروع الصهيوني العالمي وخطورته على أوطانهم، وعندما ذهب مصطفى كامل لمقابلة هرتزل لم يكن يدرك أنه يطلب المعونة والمشورة من الرأس المخطط لتحطيم مستقبل العرب وقهرهم، ولم يدرك مصطفى كامل – عندما أراد الاستقلال لمصر وأيضًا لفلسطين ـ أن هرتزل أيضًا يريد الاستقلال لمصر حتى يبعد الإنجليز القوة العالمية عن فلسطين، ليخطط لمستقبلها ويفعل بها ما يشاء وأنه مثل مصطفى كامل كان يريد الاستقلال لفلسطين، ولكن بوصفها وطنًا قوميًا لليهود، وليس كما أرادها مصطفى كامل دولة فلسطينية عربية مستقلة.

منذ بداية حكم محمد علي حتى حكم فاروق كان اليهود على علاقة وثيقة بالعائلة الملكية وقد ازدهروا في عهدي سعيد وإسماعيل، وتمتعوا بحماية الأجانب والقناصل في تلك

الفترة، ففي عهد إسماعيل كان فيكتور هراري وإفرايم عاداه مديري الخزانة ومراقبي المالية في الوزارة، وكانت العائلات الكبيرة – مثل قطاوي ومنشه وهراري وموصيري ـ على علاقة وثيقة بالعائلة المالكة في العهود المختلفة، وكان محامي القصر هو مراد فرج ليشع اليهودي القرائي، وبعد الاحتلال البريطاني عام 1882 زادت فرص اليهود في التقدم، وتدفقت على مصر أعداد كبيرة منهم للتمتع بفرص الرخاء الاجتماعي، ولم تصدر أي تشريعات ضد اليهود في مصر، وحتى قانون 1947 الذي شكا منه الكثير من المؤرخين اليهود، فإنه صدر لإعطاء الفرصة للمصريين في الحصول على فرص العمل، وقد أثر هذا القانون على كل الأجانب بصفة عامة، ولم يكن موجهًا ضد اليهود، ولم يؤثر قط على اليهود المصريين الحاملين للجنسية المصرية.

يقول علي شاش إن حرية التعبير كانت مكفولة تمامًا لليهود، فأصدروا أكثر من 50 صحيفة ومجلة خلال نحو نصف قرن، وكذلك كانت حرية التعبد وممارسة الشعائر متاحة بالكامل، وكانت معابدهم منتشرة في الأماكن التي يعيشون فيها.

وكانت المدارس والجامعات مفتوحة بالكامل لليهود، وتخرج 927 يهوديًا في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) الآن عام 1947، وتخرج في المدارس الثانوية في العام نفسه 3080 يهوديًا.

وعند صدور وعد بلفور صرح السلطان فؤاد بأن مصر تنظر بعين العطف إلى قضيتهم وتأمل أن يتحقق أملهم، وكان ابن قطاوي صديقًا للملك فؤاد في شبابه قبل توليه العرش، واستمرت العلاقة نفسها مع الملك فاروق إلى أن قامت حرب فلسطين، وهذا يعني أن جميع حكام مصر حتى ثورة يوليو كانوا يراعون اليهود ويفضلونهم ويلبون طلباتهم، وكان عدد الباشوات والبكوات منهم كبيرًا جدًا بالنسبة لتعداد اليهود.

وبالنسبة لرؤساء الوزارات المصرية فقد كانوا كلهم على علاقة جيدة باليهود، وبعضهم كانت له علاقة خاصة جدًا باليهود، مثل حسين سري وإسماعيل صدقي. يقول علي شلش إن المحامي زكي شويقة كان صديقًا شخصيًا للنحاس باشا، وصحبه في رحلة مع زوجته إلى فلسطين عام 1943. وكان صدقي باشا بالذات أكثر المدافعين عن اليهود في مصر، ومعروف أنه اعتقل الفلسطينيين الذين تظاهروا في

القاهرة ضد وعد بلفور، وسمح بالمسيرات اليهودية التي تؤيد وعد بلفور، وأغلق صحيفة الشورى الفلسطينية التي تدافع عن القضية الفلسطينية، وترك الصحف الصهيونية، وشارك في افتتاح الجامعة العبرية، واشترك في معرض تل أبيب عام 1932 ويعني ذلك أن الحكومات المصرية المتعاقبة لم توجه أي لوم أو مضايقة لليهود المصريين، أما بالنسبة للإنجليز فكانوا يحابون اليهود ويشجعونهم على الهجرة إلى مصر، وكان بين كبار أغنياء اليهود في مصر بريطانيون مثل سوارس ورولو.

وكان حزب الوفد بزعامة سعد زغلول ومصطفى النحاس يحظى باحترام الشعب كله، وانتمى إليه بعض اليهود، مثل فيلكس بن زاقين، الذي كان صهيونيًا ووفديًا متحمسًا في آن واحد، وألبير مزراحي صاحب جريدتي الصراحة والتسعيرة. وكان حزب الوفد حريصًا على ضم جميع عناصر الأمة من مسلمين وأقباط ويهود، وكان داخله أيضًا تيار يساري قوي متعاطف مع الحركات السياسية كلها، بما فيها الماركسية، وذلك بالإضافة إلى التيار اليميني الذي يمثله فؤاد سراج الدين وكبار الملاك، وتيار وسطي أيضًا من العمد والمشايخ

والموظفين.

ومن المعروف أن كاسترو كان أحد الأعضاء الناشطين في حزب الوفد أثناء ثورة 1919 وكان من المقربين إلى سعد زغلول، وهناك خلاف بين المؤرخين على أهمية الدور الذي لعبه كاسترو، وهل كان فعلاً المتحدث باسم سعد زغلول والوفد في أوروبا عندما سافر زغلول ليطلب الاستقلال لمصر، ومما لا شك فيه أن كاسترو كان أول من أسس منظمة صهيونية مهمة في مصر، وفي الوقت نفسه كان يعد بطلاً وطنيًا في الدفاع عن استقلال مصر، وقد هاجم البعض سعد زغلول بسبب علاقته بكاسترو، ودافع شاش عن سعد زغلول والوفد قائلاً إن صهيونية كاسترو لم تكن تعني شيئًا بالنسبة للوفد وكبار المثقفين والسياسيين المصريين في تلك الفترة، ويقول شاش إن علاقة كاسترو لم تكن بهذه القوة بسعد زغلول، وأنه لم يكن ناطقًا باسم الوفد المصري وإنما مساعدًا في الترجمة وبعض المهام.

وبالرغم من النقد والاتهامات التي وجهت إلى الجريدة التي حررها كاسترو، فإنها كانت كما قالت سهام نصار وفدية صريحة ومتحيزة لسعد زغلول، وكانت تدافع عن شخصية

سعد زغلول ووطنيته، وتقول إن سعد زغلول ليس محرضًا أو إرهابيًا، وإنما رجل دولة معتدل، وأثبتت نصار أن كاسترو انضم إلى الوفد المصري في مباحثاته في لندن عام 1924 وهناك إشارات في مذكرات سعد زغلول إلى زيارات متعددة له من كاسترو، وكان سعد يتباحث معه ويستمع إلى آرائه، وقد هاجمت جريدة (الوطن) سعد زغلول لارتباطه بكاسترو الصهيوني الذي لا يخدم إلا مصالحه، وقالت إنه كان يجب أن يراعي زغلول شعور الفلسطينيين العرب، وهي إشارة واضحة إلى أنه حتى في تلك الفترة المبكرة كان هناك من يعي حجم المخاطر، ويتفاعل معها، حتى لو استخدمها البعض لأسباب شخصية ومعارك سياسية، وكانت مقالات كاسترو في الليبرتية مؤثرة، وأقام الدنيا حينما اقترح أن تتفق مصر والإنجليز على حل وسط مؤقت يهدئ الأمور بضع سنوات، ونشر كاسترو الكثير من الأفكار الاشتراكية والماركسية، وسمح بالنشر للآخرين في التيار الفكري نفسه، وللحق لم تنشر الليبرتية الكثير من المشكلة اليهودية أو عن فلسطين، لأنها ركزت أساسًا على المسألة المصرية.

وكانت الأعراق واللغات المختلفة لليهود تفصلهم تمامًا عن

الشعب، لذا لم يكن من الممكن أن ينصهروا جميعًا داخل الأمة المصرية ويكونوا جزءًا منها، إلا أن بعض اليهود انضموا إلى الفكر الوطني مثل داود حزان وفيتا سوسينو وفليكس بن زاقين. وكان هناك جزء لا بأس به من اليهود ينتمي إلى التيار الوطني حتى نهاية الثلاثينيات، وكان الكثيرون يدافعون عن مصر الوطن الأم، ولم يكن حتى الصهاينة مثل ليون كاسترو يجدون مشكلة في الإيمان بالصهيونية والوطنية المصرية في آن واحد، لكن هؤلاء لم يكن يوحدهم تيار قوي واضح، وفي عام 1935 أنشأت مجموعة من شباب اليهود جمعية الشبان اليهود المصريين، وأصدروا جريدة الشمس، وكان شعارهم الوطن والإيمان والثقافة، وكان بينهم إسرائيل ولفنسون المدرس في دار العلوم تلميذ طه حسين، وكان هدف الجمعية توعية الأعضاء بتاريخهم اليهودي مع إعطائهم الشعور بالوطنية المصرية، وكتب أعضاء هذه الجمعية عن الأدب والتاريخ المصري دراسات كثيرة، ومن الغريب أن هذه المجموعة كان لها أيضًا نشاط صهيوني منفصل، ولم تعتقد أن هناك تعارضًا بين هذا وذاك.

قد يبدو للقارئ المعاصر أنه من المذهل وغير المقبول للمنطق أن يكون هناك مصري وطنيًا، وفي الوقت نفسه يكون صهيونيًا يؤمن ويدافع عن إقامة وطن لليهود في فلسطين، لكن يبدو أن ما نظنه غير معقول كان هو الشيء الطبيعي والمفهوم في ذلك الوقت المبكر، وبدت ملامح صعوبة الجمع بين هذين النقيضين من الأفكار في أوائل الثلاثينيات، وأصبحت مستحيلة في الأربعينيات، والسؤال الذي تصعب الإجابة عنه من المراجع المتاحة: هل كان هؤلاء اليهود المصريون مؤمنين فعلاً بالقضية الوطنية المصرية وكذلك بالصهيونية؟ أم أن الأمر كان خداعاً وأن الإيمان بالقضية المصرية كان خدعة حتى يتمكن اليهود من نشر دعوتهم الصهيونية بدون مشاكل؟ أعتقد أن بعض اليهود كانوا يؤمنون فعلاً بإمكانية الجمع بين الوطنية المصرية والصهيونية، وربما كان إيمانهم بالصهيونية أقوى وأشد من إيمانهم بالوطنية المصرية التي تخلوا عنها بعد صعود أسهم الصهيونية.

تقول كرامر: كانت هناك مجموعتان، الأولى تشدد على أهمية تكوين اليهودي المصري الوطني، والثانية تريد تدريب

اليهود المصريين على الوطنية المصرية والقومية اليهودية.

كان قطاوى باشا والحاخام ناحوم من كبار مؤيدي الالتصاق بالوطنية المصرية، وكانت جريدة (الشمس) قد أيدت الوفد عام 1935، وقالت إن اليهود مصريون لا يريدون حماية من بريطانيا، وطالبت بجلاء الإنجليز ووحدة وادي النيل.

وبعد حادثة كوبري عباس عام 1946 صلت جميع المعابد على أرواح الشهداء، وأعلنت الإضراب العام ضد الإنجليز، وبالنسبة لقضية فلسطين فقد طالبت هذه المجموعة بحل سلمي بين العرب واليهود، حيث إنهم تجمعهم ثقافة واحدة، وإنه مهما حدث في فلسطين فاليهود المصريون وطنيون مصريون، لكن مطالبة اليهود بالاندماج في المجتمع المصري والاشتراك في الحياة الثقافية والسياسية وتعلم العربية لم تلاق إقبالاً شديداً. وكان تعريب اجتماع الجالية اليهودية في مصر مشكلة لم تتقدم كثيراً وكان تعليم اللغة العربية قد بدأ في المدارس اليهودية باعتبارها لغة ثانوية. وعموماً كان التيار الوطني محدوداً ولم يحقق نجاحاً.

يقول حاييم كوهين إن معظم اليهود المصريين في أوائل القرن العشرين كانوا يشعرون بالغربة، ولم يشتركوا في

الكفاح المصري ضد الاستعمار باستثناء القلة التي شاركت في الوفد، وكذلك مجموعة اليهود التي انضمت بعد ذلك إلى الحركة الشيوعية، ولم يشعر اليهود بأي مضايقة أو تمييز، وذلك حتى بداية الانتفاضة الفلسطينية عام 1935 ـ 1936 وقد سبق محمد علي علوبة جماعتي الإخوان المسلمين ومصر الفتاة إلى مناهضة اليهود ومقاطعتهم، إلا أنه لم تحدث أي حوادث شغب ضد اليهود حتى ذلك الحين.

وقد حاولت الحكومة المصرية عدة مرات أن تجعل اليهود المصريين يلعبون دوراً في حل مشكلة فلسطين بالتفاوض مع صهاينة فلسطين، لكن اليهود في فلسطين رفضوا كل الحلول الممكنة من وجهة نظر الحكومة المصرية. وقد كلف على ماهر، أصلان قطاوي عضو مجلس الشيوخ المصري عام 1943 بالذهاب إلى فلسطين ومقابلة بن جوريون الذي رفض اقتراح دولة للشعبين، وكذلك طلب النقراشي من اليهودي السكندري فيلكس بن زاقين تكوين لجنة من يهود مصر للذهاب إلى الولايات المتحدة للتباحث مع يهود أمريكا حول إيجاد حل لمشكلة فلسطين. وكان حزب الأحرار الدستوريين يتعاطف مع اليهود ويشجع التفاهم بين العرب والفلسطينيين

في فلسطين ويدعو إلى الوطن مشترك. ولم يكن التيار المهم والقوي والمسيطر على الثقافة المصرية يعادي اليهود، وكان هناك تيار أضعف بكثير – يمثله إسماعيل مظهر وعلوبة ورشيد رضا – بعد تفهمه للموقف الفلسطيني.

تقول كرامر إنه من الصعوبة تحديد دور اليهود المصريين في السياسة نظراً لتعارض وجهات النظر المختلفة للباحثين في هذا الأمر، وأن الحقيقة يمكن أن تتواري خلف وجهة النظر السياسية للكاتب وموقفه. وتقتبس كرامر فقرة من جريدة (الشمس) اليهودية المصرية عام 1944 حين كان الموقف في فلسطين حرجاً والعواطف العربية متأججة ضد المنظمات والعصابات الصهيونية التي تطرد الفلسطينيين من أرضهم، تقول الجريدة إن من تقاليد وعادات اليهود الشرقيين ألا يزجوا بأنفسهم في عالم السياسة، وهم يساعدون بذلك الحكومات الشرقية على اتخاذ أي قرار تراه في مصلحة البلاد بدون ضغط من العناصر اليهودية المحلية. وتقول كرامر أيضاً كانت هذه رسالة إلى الحكومة المصرية بأن اليهود المصريين لن يزجوا بأنفسهم في مشكلة فيها تعارض بين موقفهم بوصفهم مصريين وبين ما تقوم به الصهيونية

العالمية في فلسطين. لكن الحقيقة كما يقول أحد المدرسين الفرنسيين في المدارس الفرنسية الإسرائيلية أن اليهود رأوا أن اهتمامهم بمصر والشرق عموماً مرجعه الاهتمام بتاريخ وعادات مدهشة تدعو إلى الدراسة والتأمل، لكنهم كانوا يحاولون دائماً أن يتباعدوا بأنفسهم عن المشاركة السياسية، لأن معظمهم لم يعد نفسه جزءاً من الوطن.

وكان هناك نوعان من المشاركة السياسية لليهود المصريين، أولهما الاشتراك في الأحزاب المصرية والقيام بنشاط سياسي واضح فيها، وهو ما كان يحدث حتى الثلاثينيات. ولم يكن الإنجليز سعداء بتحسين العلاقات بين اليهود والجنسيات الأخرى من جانب، وبين أهل مصر من جانب آخر، وكتب السير نيفل هندرسن المندوب السامي البريطاني خطاباً للخارجية يؤيد فيه وضع إسفين لتشجيع الخلافات بين المصريين وغيرهم حتى يلجأ الجميع إلى الإنجليز لحمايتهم.

وفي الفترة التالية لثورة 1919 انضم بعض الشبان اليهود المثقفين وأصحاب المهن المختلفة بالانضمام إلى سعد زغلول، وأيدوا مطالب مصر في الاستقلال، ومنهم ليون كاسترو المحامي الشهير، وفيتا سونسينز وداود حزان.

وانضم بعض أغنياء اليهود إلى أحزاب الأقلية مثل قطاوي باشا الذي انضم إلى حزب الأحرار الدستوريين.
ونظم رجل الأعمال السكندري بتشتو احتفالاً كبيراً لاستقبال سعد زغلول، حين عاد إلى الإسكندرية بعد نفيه إلى جزيرة سيشل. وكان المحامون ديتشي وإيزادور فيلدمان وزكي عريبي من نشطاء حزب الوفد، وقامت جمعية الشبان اليهودية المصرية بتأييد ومساعدة حزب الوفد.
وكما تقول كرامر فإنه حتى منتصف الثلاثينيات لم يكن هناك تعارض بين أن تكون صهيونياً ووطنياً مصرياً في آن واحد، وكان الكثير من الصهاينة يشجعون الحركة الوطنية المصرية ويؤيدونها، لكن الأمر يصل إلى تكوين حركة وطنية يهودية مصرية حقيقية، لكنه كان دائماً عمل شبه فردي أو حركة من جماعات قليلة العدد. ولكن يبدو أن الفكر السياسي الحقيقي لليهود في مصر سار أساساً في اتجاهين:
أولهما الشيوعية والثاني الصهيونية، وكان كلا النشاطين معاديا للحكومات المصرية في الأربعينيات، وهي الحكومات التي كانت تحارب الشيوعية ربما بقدر أكبر بكثير من محاربتها للصهيونية، وفي تلك الفترة نادت جماعة الإخوان

المسلمين بأن اليهود هم المفسدون في الأرض وأنهم يتاجرون في السلاح والجنس. وقال النقراشي باشا رئيس الوزراء إن إعلان الطوارئ عند بدء حرب 1948 مكن الحكومة لأول مرة من أن تقوم باعتقال جميع الشيوعيين المصريين، وكان اليهود هم رواد الحركة الشيوعية المصرية فقبض على زعمائهم، لكنه قال أيضاً إنه على أي الأحوال فإن جميع الصهاينة شيوعيون، وهو يبعد تماماً عن الحقيقة والواقع والتاريخ.

وعموماً فإنه خلال الفترة الليبرالية المصرية من ثورة 1919 حتى عام 1952 لم يهتم اليهود بصفة عامة بالسياسة، لانشغالهم بتحسين موقفهم الاقتصادي وإحساسهم الدائم بالحرية والأمان، لكن بعد صعود التيار الوطني القومي المصري وتنامي القوى المضادة للاحتلال والنفوذ الأجنبي أصبح الأجانب والأقليات المصرية المسيطرة على الاقتصاد موضوع هجوم ونقد شديدين.

وكان أمام اليهود الذين يريدون المشاركة في الحياة السياسية، إما الانضمام إلى الحركة المصرية الإسلامية القبطية الوطنية بتيارها الأساسي الممثل في حزب الوفد، أو الانضمام إلى

التيار اليساري الذي كان يحارب الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي الظالم في مصر. أما الحل الثالث فكان الاستمرار في الاغتراب عن المجتمع المصري، إما بالانضمام إلى الحركة الصهيونية أو التخطيط للهجرة.

وكان أول تصرف للجالية اليهودية مع تصاعد التيار الوطني أن يتصرفوا بهدوء بعيداً عن الأعين، وألا يثيروا أي مشاكل، وكان هذا تصرف جزء من الجالية سوف يتعرض لخسائر في حالة انهيار العلاقة بين اليهود والشعب، وهم كل رجال المصارف والشركات وكبار رجال الأعمال وقادة الجالية اليهودية التي كانت تضغط على الناشطين الصهاينة، حتى لا يزاولوا أي نشاط صهيوني لمنع أي احتكاك مع القوى الوطنية.

وكان زعماء الجالية دائماً يعلنون الولاء لمصر وللملك المفدى الذي أقاموا معه علاقة وثيقة. واعتقد بعض الصهاينة أنه نظراً للوضع المتميز لليهود المصريين فإنه بإمكانهم أن يقوموا بحلقة وصل بين مصر وإسرائيل، وقد نُشر ذلك تعليقاً على محاضرة عن علاقة العرب باليهود ألقاها طه حسين في الإسكندرية.

وبعد أن فشل مشروع اندماج اليهود في المجتمع المصري بدأ النشاط الصهيوني في الأربعينيات يأخذ وضعاً متميزاً، بالرغم من أنه كان قد فشل في إثارة اهتمام اليهود قبل ذلك، باستثناء بعض اليهود الأشكيناز وقلة من الطبقة الوسطى من اليهود السفارديم.

وقد سبق حدوث نشاط صهيوني لمدة قصيرة أثناء الحرب العالمية الأولى بسبب نشاط بعض البولنديين والروس من الأشكيناز الذين طردتهم تركيا إلى فلسطين بسبب وعد بلفور، إلا أن الحركة هدأت، وكان أغلب المصريين اليهود رافضين للانضمام إلى الحركة الصهيونية، إلا أنه في أثناء الحرب العالمية الثانية بعد عام 1942 استطاعت الحركة الصهيونية بمساعدة مندوبين من القدس تجنيد نحو ألف مصري من شباب اليهود للحركة الصهيونية، وبدأ نشاط الهجرة بمساعدة الاتحاد الصهيوني المصري عام 1947 ونجحت في تهجير 20-25٪ من اليهود المصريين بين عامي 1948 و1952 معظمهم من فقراء اليهود الذين وصلوا إلى إسرائيل عن طريق جنوا ومارسيليا. ولم تمنع الحكومة المصرية النشاط الصهيوني الرسمي إلا عام 1947 ليس خوفاً من الشيوعية.

وكانت الحكومة المصرية في أواخر الأربعينيات سعيدة بهجرة اليهود الاختيارية ولم تحاول منعها، لأنها أرادت أن تتخلص من النشاط اليساري والشيوعي بأي طريقة، بالرغم من أن مجموعة الشيوعيين اليهود كانوا أكثر اليهود المصريين دفاعاً عن مصر والتصاقا بشعبها.

الصراع الألماني اليهودي في مصر بعد صعود النازية

في عام 1933 بدأت حركة يهودية لمقاطعة البضائع الألمانية، واستخدام العنف في إيقاف عرض الأفلام الألمانية، والكتابة ضد هتلر والنازية في الصحف اليهودية المصرية، ونجحت حركة المقاطعة نسبياً، لكنها لم تؤثر على الصادرات الألمانية إلى مصر، وقد قامت حركة مضادة من الألمان وأعوانهم، وكانت الحكومة المصرية – وكذلك السفارات الغربية – في موقف شبه محايد، وقد هاجمت بعض الصحف المصرية موقف اليهود المصريين وقالت إن هذه الحركة ضد المصالح المصرية، واستمر الجذب والشد بين الألمان في مصر والنفوذ الألماني الضعيف فيها من ناحية، وبين اليهود المصريين من ناحية أخرى، حتى قيام الحرب العالمية الثانية، حين وقفت الحكومة بوضوح ضد الألمان تحت ضغط

الحكومة البريطانية.

صعود مصر الفتاة والإخوان المسلمين

بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ظهرت حركتان وطنيتان تمثلان أقصى اليمين، الأولى هي الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا، والثانية حزب مصر الفتاة الذي أسسه أحمد حسين، وكان كلا الحزبين يؤمن بأن هناك تعارضًا جذريًا بين وجود اليهود المصريين وإنشاء وطن قومي مصري عده الإخوان وطنًا إسلاميًا يتوسع ليضم بلادًا إسلامية أخرى، وعده مصر الفتاة وطنًا فرعونيًا على نهج النظم النازية والفاشية.

في نهاية العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن العشرين ظهرت على السطح هاتان الجماعتان اللتان كانتا تريدان محاربة الأحزاب التقليدية المصرية، وسرعان ما اهتمتا بالقضية الفلسطينية، وقادتا حملة مقاطعة البضائع البريطانية لحماية الصناعة الوطنية في أوائل الثلاثينيات، وقد أيد هذا النشاط في البداية حزب الوفد واتحاد الطلبة، وتبرع الجميع لمشروع القرش لبناء مصنع طرابيش والتخلي عن القبعة، وقد حكى لي يوسف حزان اليهودي المصري والقيادي

البارز بين الشيوعيين المصريين، والذي تعدى التسعين من عمره، حين قابلته في باريس لإجراء حوار حول اليهود المصريين – قال إنه اشترى طربوشًا وزوجين من الجوارب من منتجات مشروع القرش، وقالت له أمه إن بضاعة شيكوريل سوف تكون أحسن، لكنه رفض، لأن مشروع القرش مشروع وطني مصري يجب تشجيعه، وقد حول أحمد حسين جمعية مصر الفتاة إلى حزب سياسي تحت شعار (ا – الوطن ـ الملك)، ونادى بوحدة وادي النيل وأنشأ منظمة القمصان الخضراء من الشباب الفاشي، مثل التنظيمات الإيطالية والألمانية، وفي تلك الفترة تحت الضغط أنشأ الوفد القمصان الزرقاء، والإخوان المسلمون الجوالة إلا أن الزوبعة التي أثارها مصر الفتاة كانت أكبر بكثير من حجمها وحجم أعضائها مقارنة بحزب الوفد.

وقد صعدت جماعة الإخوان المسلمين لتصبح قوة كبيرة في نهاية الثلاثينيات، وصارت لها شبكة من الأعضاء تغطي مصر كلها، وكذلك البلاد العربية بما فيها فلسطين، وتنادي بالرجوع إلى السلف الصالح وتطبيق القواعد والقوانين الإسلامية من القرآن والسنة، ودعت الجماعة إلى تقليص

النفوذ الأجنبي في مصر، وطالبت أيضًا بتغييرات في الصناعة والزراعة، وقد أسست مراكز اجتماعية وعيادات وبعض المدارس، وكان الإخوان يرون أن الاستقلال هو الخطوة الأولى نحو توحيد الأمة الإسلامية، وقد كان صعود الإخوان المسلمون ومصر الفتاة تعبيرًا عن سخط عام على الاحتلال الإنجليزي والسيطرة الأجنبية على المقدرات المصرية، وصاحب ذلك بدء حركة التصنيع وانتشار أفكار الحرية مع الارتفاع الكبير في عدد السكان، وساهم في ذلك أيضًا الفقر والظلم، وبدء البحث عن تحقيق الهوية وكانت هناك اتجاهات كثيرة بينها الإسلام، وقد تقلص النفوذ البريطاني بتوقيع معاهدة 1936 والنفوذ الأجنبي بتوقيع اتفاقية مونترو لإلغاء المحاكم المختلطة، وبدأت الحكومة المصرية تلعب دورًا داخليًا وخارجيًا لأول مرة بعيدًا عن التحكم الكامل للبريطانيين، وكانت الاضطرابات والمظاهرات العربية عام 1936 عاملاً مهمًا في لفت نظر الشعب المصري نحو القضية الفلسطينية، ربما للمرة الأولى على نطاق واسع، وساعدت على إحياء فكرة الوحدة العربية والتوجه القومي، ولأول مرة اهتم الناس بالقضية الفلسطينية

التي كانت خارج نطاق الاهتمام المصري قبل ذلك.

وحتى نهاية العشرينات لم يبد أحد في مصر اهتمامًا بالنشاط الاستيطاني اليهودي في فلسطين، إلى درجة أن الكاتب والمفكر الإسلامي السلفي رشيد رضا كتب في جريدته (المنار) يبدي احترامًا للإنجازات التي قام بها المستوطنون الصهاينة في فلسطين، وأن فائدة وجودهم رفع مستوى عرب فلسطين في المستقبل، وفي الثلاثينات كانت جماعة الإخوان المسلمين وبعض الجماعات القومية لا تضع فارقًا بين الصهيونية واليهودية، إلا أن الوفد والأحزاب الكبرى كان الفارق عندها بين اليهود والصهاينة واضحًا.

وفي عام 1929 حين ظهرت حوادث حائط المبكى والتقارير الواردة عن استيلاء اليهود على المقدسات اليهودية في فلسطين، قامت الجالية اليهودية في مصر بإسكات الأصوات الصهيونية تمامًا، خوفًا من رد فعل مصري، واتصلت بالسلطات المصرية والبريطانية تطلب حمايتها في حالة وقوع اعتداء عليهم من مناصري القضية الفلسطينية، إلا أنه لم تحدث اعتداءات.

وفي منتصف الثلاثينيات تنبه بعض السياسيين المصريين،

مثل علوبة باشا وعلي ماهر ومكرم عبيد وعمر طوسون إلى أهمية المشكلة الفلسطينية وعلاقتها باستقلال مصر، وكذلك رفع بعضهم شعار القومية العربية، وقادت جماعة الإخوان المسلمين تيارًا يدعو إلى الأصولية الإسلامية ضد اليهود في فلسطين.

وفي عام 1936 زارت مصر اللجنة العربية العليا، لإقناع الحكومة والشعب بخطورة الموقف في فلسطين، خاصة المقدسات الدينية، وكان لهذه الزيارة تأثير في الرأي العام المصري، ونادى الإخوان المسلمون بالجهاد في فلسطين، وأصبحت منابر الجوامع المكان التي قُدمت فيه المشكلة الفلسطينية للشعب المصري، لكن على أنها مشكلة بين المسلمين واليهود، وليست مشكلة شعب وأرض ووطن، وانتقل الشعور العام بالتضامن مع الفلسطينيين خارج النطاق الإسلامي، ليشمل الشعب كله الذي تكونت فيه لجان للتضامن مع فلسطين.

وفي عام 1938 عقدت مصر مؤتمر البرلمان العالمي لمناصرة الفلسطينيين، وقامت مظاهرات ضد اليهود والصهيونية، لكن البوليس منعها، ونادت المظاهرات بمقاطعة

البضائع اليهودية، وفي عام 1939 قرر حزب مصر الفتاة إنشاء لجنة لمقاطعة البضائع اليهودية ونشر قائمة سوداء بأسماء التجار المطلوب مقاطعتهم، وحدثت حوادث بسيطة لبعض اليهود بدون إصابات حقيقية، واتهم اليهود المصريون بالاتفاق مع الصهيونية، مما يعرض المصريين لخطر كبير، ووزعت المنشورات التي تقول للشباب المسلم إن فلسطين تذبح بواسطة اليهود، وعلينا أن نقوم بثورة للدفاع عنها، وانتقلت بعد ذلك المظاهرات إلى الجامعة، وعلى الصعيد الآخر كان حزب الوفد الليبرالي الكبير الذي تمتع بالشعبية الكبرى يحاول أن يستمر في اجتذاب جميع الأفكار، وكان اليهود وكل الأقليات يجدون فيه ملاذًا يؤكدون فيه وطنيتهم، أما الجناح الماركسي فكان من أكثر الأجنحة عقلانية وتفهمًا لهذا الأمر، وانضمت إليه أعداد كبيرة من اليهود الذين كانوا في معظمهم من الأجانب أو المتمصرين.

فيما بين الحربين العالميتين نشر ألبير موصيري الصحفي المصري رئيس تحرير جريدة (إسرائيل) الصادرة في القاهرة، خطابًا مفتوحًا على صفحات جريدته، يطلب فيه من الحاخام الأكبر حاييم ناحوم أفندي أن يشرح لليهود أنه من

الممكن أن يكونوا مصريين وطنيين مخلصين لمصر التي ولدوا وعاشوا فيها، وفي الوقت نفسه يتمسكون بالقومية اليهودية والأفكار الصهيونية، وهو الأمر الذي رفضه الحاخام وظل على عدائه للصهيونية حتى مات عام 1960.

وقد حذر النحاس باشا مما يحدث في فلسطين، وقال إن ذلك سوف يؤثر على الشعور المصري نحو اليهود، وسوف يشجع على كراهيتهم، وسارع اليهود – كما حدث منذ عقد سابق ـ إلى استخدام شبكة اتصالاتهم الواسعة النطاق بين أوساط كبار السياسيين والاقتصاديين المصريين للضغط على الحكومة، لإيقاف نغمة العداء للصهيونية التي كانت تنعكس على اليهودية أيضًا، وقاموا أيضًا بالضغط على المنظمات الصهيونية المحلية لتوقف أي نشاط صهيوني، وأن تختفي قدر الإمكان.

وكتب قطاوي باشا رئيس الجالية اليهودية المصرية إلى حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية الدولية يطلب منه أن يساعد في حل المشكلة العربية اليهودية في فلسطين، لمنع القلق في مصر الذي قد يهدد اليهود المصريين، ونجح اليهود في تهدئة العواطف في مصر، ونادت بعض الصحف بطمأنة

اليهود، وبالذات الصحف الوفدية، إلا أن الدعاية الإيطالية الفاشية والألمانية النازية في مصر حاولت إثارة المصريين ضد اليهود، وحثت على عدم تهدئة اليهود وطمأنتهم.

وقد شعر الكثير من المصريين بخطورة الصهيونية وإنشاء دولة إسرائيل التي تساعدها الإمبريالية العالمية، وقد ترددت الحكومة المصرية خلال تلك الفترة في إقحام نفسها على القضية الفلسطينية، وحاول محمد محمود رئيس الوزراء المصري التوسط بين الصهاينة والفلسطينيين، وباءت محاولات عدد من السياسيين المصريين بالفشل بسبب تعنت بريطانيا ورفضها أي تدخل مصري.

وأثناء الحرب العالمية الثانية أعلنت حالة الطوارئ وعندما اقترب هتلر من العلمين فر اليهود السكندريون إلى القاهرة، وقد رحل بعض المعروفين بمعاداتهم للفاشية والنازية بواسطة البريطانيين مؤقتًا إلى فلسطين، وقد طمأن رئيس الوزراء المصري الحاخام ناحوم بأنه حتى لو اجتاح الألمان مصر، فاليهود في حماية المصريين، وقد أيد اليهود في مصر بالأنفس والأموال الحلفاء ضد المحور، وساند نحو 400 يهودي مصري الجنرال ديجول في مقاومته للاحتلال

النازي، وخلال الحرب كان التعاون اليهودي مع الماسونية وثيقًا جدًا.

وقد كان تأثير الحرب على مصر شديدًا، فزادت البطالة بعد الحرب واتسعت الفروق بين الطبقات وارتفعت الأسعار، وفي تلك الفترة تصاعد القلق نحو فلسطين واشتدت العداوة نحو الصهيونية، وقاد الهجوم الإخوان المسلمون وشاركهم مصر الفتاة وحزب مكرم عبيد صغير الكتلة الذي استمر يوزع منشورات عنيفة ضد الصهيونية وبالطبع أثار ذلك مخاوف الجالية اليهودية في مصر. وزاد قلق اليهود المصريين حين اغتالت مجموعة من شتيرن جانج الصهيونية لورد موين الوزير البريطاني لشئون الشرق الأوسط، وحاول زعماء اليهود إقناع الجمعيات الصهيونية في مصر بالهدوء إلا أنهم على عكس ما حدث في العشرينات والثلاثينات لم ينصتوا لنصائح زعماء الطائفة، وحاول زعماء الطائفة في مصر التوسط مرة أخرى بين القادة المصريين والصهاينة في فلسطين، وقابل المسئولون المصريون قادة مثل موسى شرتوك وإليهاو ساسون اللذين حضرا إلى القاهرة مرارًا للتباحث بدون فائدة، وجاء في تقرير سري إنجليزي أن أي

تحرك يهودي في فلسطين سوف يصحبه تحرك مماثل في مصر نحو اليهود المصريين. وفي 2 نوفمبر 1945 وبالرغم من قرار الداخلية بمنع المظاهرات، إلا أن الآلاف خرجوا من الأزهر في ذكرى وعد بلفور، والتحموا مع آلاف المصريين في ميدان عابدين، وهاجموا المحلات والمنشآت في وسط المدينة وأحرقوا معبد اليهود الأشكيناز، ودخلوا حارة اليهود واعتدوا على المنشآت والأفراد، وكانت الحصيلة أربعين مصابًا، بالإضافة إلى قتيل واحد من جنود البوليس، وخسائر قدرت بمليون جنيه مصري. وأحيل 300 متظاهر إلى المحاكمة، وحدثت مظاهرات أشد ضراوة في الإسكندرية وقتل فيها خمسة أفراد، وبعد ذلك بيوم واحد قابل الملك حاخام اليهود وطيب خاطره وأعلن تعويض الخسائر، وبناء المعبد اليهودي مرة أخرى، وبعد يومين طلب شيخ الطرق الصوفية شيخ الأزهر من الحاخام الأكبر إعلان معارضته للصهيونية، إلا أنه رفض. وأعاد الحاخام إرسال الخطاب الذي طالب فيه الصهيونية العالمية بالبحث عن مكان آخر لليهود غير فلسطين، وقال "إن اليهود المصريين جزء من النسيج المصري"، وفي 9 فبراير 1946 قامت مظاهرات

ضخمة ضد بريطانيا، وفتح البوليس كوبري عباس (الجيزة الآن)، وقُتل عشرون طالبًا في مذبحة كبرى، وقد نظم تلك المظاهرة الطلبة اليساريون والوطنيون مع بعض الإخوان المسلمين، وطالبوا بالجلاء ووحدة وادي النيل، وأعلنت الحكومة المصرية في ذلك الوقت انضمامها إلى جامعة الدول العربية، واغتيل حكمدار القاهرة سليم زكي، والمستشار الخازندار الذي حاكم قاتل أحمد ماهر، وفي عام 1948 تجددت الاعتداءات على المحلات التجارية اليهودية مثل شيكوريل وأوريكو وداود عدس وبنزايون وجاتينيو وشركة المعادي، وحدث انفجار في حارة اليهود قتل فيه 20 فردًا، وكذلك فجرت شركة الإعلانات الشرقية.

وواضح أن تلك الحوادث ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بما حدث في فلسطين في تلك الفترة، وما جرى من تضخم نشاط المنظمات الصهيونية المصرية المرتبطة بالصهيونية العالمية والمنظمات الموجود في فلسطين.

ويعني ذلك أن الشعب المصري لم يكن يحمل أي ضغينة ضد اليهود، وكما قال الكثير من المؤرخين فإن اليهود الصهاينة في مصر خلال الخمسة والثلاثين عامًا الأولى من

القرن العشرين كانوا يعيشون حياة رغدة مريحة، وإن كافة المصريين كانوا يتعاملون معهم تجاريًا ويذهبون إلى مؤسساتهم وأطبائهم ومحاميهم، يقول شاش إن مزراحي أهدى كتابه (مصر ويهودها) إلى فيلكسن بن زاقين المحامي السكندري الشهير، وإلى محمد عبد الهادي كبير مفتشي الرسم في وزارة التعليم، الذي دافع عنه وأسبغ عليه حمايته في قريته، حين كان رومل على أعتاب الإسكندرية، ويقول مزراحي إن الكثير من اليهود فروا إلى الصعيد وآواهم أهله.

وأنشئت في تلك الفترة صحف شيوعية كثيرة ناطقة بالفرنسية منها جريدة (لوردر) التي استمرت نحو عشر سنوات في الصدور، ونشرت الجريدة مقالاً بعنوان (لن يخيفنا) قالت فيه إن إنشاء الوطن القومي للشعب اليهودي تمت الموافقة عليه من قبل 52 دولة، أما عرب البلاد الذين كانوا في الماضي البعيد بدوًا رحلاً جاءوا من بلاد بعيدة فعليهم أن يقبلوا ذلك إن شاءوا العيش في سلام مع أبناء صهيون، إن فلسطين هي وطن اليهود، لذا يجب أن يفهم ذلك ويسلم به جميع سكان البلاد، وقد أنشأ سترالسكي جريدة (الصوت اليهودي) لتمثل فرع الصهاينة المتطرفين من تلاميذ جابوتسنكي، واستمرت

الصحيفة عدة سنوات، وتوقفت عن الصدور في منتصف الأربعينات، وقد طردت الداخلية المصرية سترالسكي، وصدرت بعد ذلك مجلة (الكراسات المصرية) وكانت مجلة يهودية ثقافية شهرية متميزة، ولكنها كانت تدعو أيضًا إلى الصهيونية، وصدرت أيضًا مجلة شهرية للشباب سميت (كاديما) استمرت عدة سنوات.

تعامل اليهود مع المتغيرات السياسية

كان واضحًا بعد وقوع أحداث فلسطين والشعور المصري المتعاظم ضد الصهيونية أن على اليهود أن يعَرفُوا أنفسهم بأنهم المصريون اليهود، أو يعدوا أنفسهم يهودًا من مصر، وأصبح واضحًا أن على اليهود المصريين الخيار بين المواطنة المصرية والهوية اليهودية التي تؤيد الصهيونية.

وقد كان اليهود دائمًا لا يقحمون أنفسهم في أمور السياسة، وذلك حتى لا يقتربوا أو يجبروا على الإجابة على سؤال عن الهوية، وحيث إن الجالية اليهودية لم تكن جالية من نسيج واحد، بل من عشرات الاتجاهات والأفكار والأوضاع الاجتماعية ونوع الجنسية التي حملها كل منهم، فإنه لم يكن من الممكن أن تُجمع الجالية على إجابة واحدة تعبر عنها.

وكان أمام التيارات الأساسية التي حاولت الإجابة عن هذا السؤال المهم ثلاثة، إما الانضمام للتيار الوطني المصري أو الانضمام إلى الحركات الشيوعية واليسارية أو الانضمام إلى الحركة الصهيونية، وهو ما يعني الذوبان اليهودي في الوطن، أو الذوبان في حركة شيوعية عالمية، أو الهجرة إلى الوطن المرتقب، تقول كرامر إنه من الغريب أن أغلبية اليهود لم يفكروا في الإجابة عن هذا السؤال وفضلوا الحياة في وضعهم الحالي، ولم يشعروا بخطر حقيقي من أن التطور والتغيير قادمان لا محالة.

بداية النهاية

بدأ الشباب اليهودي المصري في نهاية الثلاثينات وخلال الأربعينات يهتم بالسياسة تدريجيًا وكان الطلبة الذين تعلمون في المدارس الفرنسية يتخذون مواقف يسارية، على حين بدأ أبناء الشريحة السفلى من الطبقتين الوسطى الفقيرة –الذين يتعلمون في المدارس اليهودية المصرية ـ يتخذون مواقف تميل إلى الصهيونية، والحقيقة أنه كان بين اليساريين والصهاينة شباب يهود مصريون يؤمنون بالوطنية المصرية، وكانت هناك مجموعة من الشباب اعتقدت أنه لا يوجد

تعارض بين الوطنية المصرية والآمال اليهودية.

وأصبح السؤال: هل هناك أية فرصة توحد بعض المصريين –من الأصول الأجنبية الذين عاشوا أجيالاً في مصر باستثناء المسلمين والأقباط ـ في التيار الوطني المصري؟ والسؤال الذي طرحته كرامر: هل لو أصبح كل اليهود مصريي الجنسية، ويتحدثون العربية، وأصبحوا وطنيين من ناحية الميول والأفكار، هل كان ذلك سوف يغير من الأمر شيئًا؟ وتعتقد كرامر أن هذا لم يكن ممكنًا حدوثه، لأن معظم اليهود المصريين لم يشعروا بأنهم مصريون، بالرغم من أنهم كانوا يحبون مصر والحياة فيها، لكنهم كانوا يريدون أن يبقوا فيها بوصفهم طائفة مختلفة مثل اليونانيين والإيطاليين والأرمن المصريين.

في عام 1937 وقعت مصر معاهدة مونترو التي ألغت المحاكم المختلطة والمميزات الممنوحة للأجانب، والتي لا يتمتع بها المصريون، وألغيت القنصلية البحرية والحجر الصحي الخاص بالأجانب في الإسكندرية، وتحول البنك المصري إلى البنك المركزي بإدارة مصرية، وفي عام 1942 أصبحت اللغة العربية إجبارية في المعاملات التجارية

والمالية، وفي عام 1946 صدر قانون يلزم المحلات التجارية بكتابة لافتتاها بالعربية، وألزمت هذه القوانين أصحاب المحلات والأعمال الذين لا يعرفون العربية بتوظيف مصري يعرف اللغة، وفي عام 1947 صدر القانون رقم 132 الذي يلزم الشركات المساهمة التي تطرح أسهمها في البورصة بأن يكون 75٪ من الموظفين فيها مصريين، 90٪ من العمال مصريين، 51٪ من رأس المال مصري، ونتج عن ذلك تسريح نحو 60 ألف موظف من اليونانيين والمالطيين والشوام واليهود، ولم يكن القانون موجهًا بأي حال ضد اليهود، ولم يضار اليهود الذين يحملون الجنسية المصرية، قالت جريدة يهودية إن معظم المديرين كانوا من اليهود واستطاعوا أن يتحايلوا على هذا القانون ولم يكن هناك تجريم أو عقوبة على الذي لا ينفذ القانون، ولم ينطبق القانون على الأعمال الصغيرة والمتوسطة، وإنما على الشركات الكبيرة المساهمة فقط.

والغريب أن هذا القانون الوطني الثوري أصدرته حكومة النقراشي السعدية التي كان الشعب يرى أنها لا تمثله، وفي عام 1947 ـ نتيجة لهذا القانون ـ تقدم ألف أجنبي مقيم

بطلبات للحصول على الجنسية المصرية، وبدأت في الوقت نفسه حملات لمقاطعة المحلات الأجنبية، وبدأ يعم شعور بعدم الأمان بين كل الأقليات الأجنبية متضمنة اليهود.

وبالرغم مما حدث في ذكرى وعد بلفور في نوفمبر 1945 عندما قام اليهود بمظاهرة كبيرة، في القاهرة تأييدًا لوعد بلفور، إلا أن أغلبية المصريين لم تضمر أو تظهر أي عداء ضد اليهود، ولم تؤثر دعايات الإخوان المسلمين ومصر الفتاة المضادة للصهيونية أساسًا، ولليهودية بالتبعية على الرأي العام المصري، ونفى الحاخام ناحوم في 13 نوفمبر 1946 أن هناك مصاعب تواجه اليهود المصريين، وكانت هناك صعوبة واحدة قابلت اليهود منذ عام 1946 هي الحصول على وثيقة سفر للذهاب على فلسطين ومع ذلك استمر تدفق اليهود من الخارج إلى فلسطين عبر مصر.

وفي عام 1947 أثناء مناقشة الأمم المتحدة لمشكلة فلسطين، وافقت المجموعات اليسارية والشيوعيين وجريدة الشمس الصهيونية على قرار التقسيم، على حين رفضه كل العرب، وبدأت الصحف المصرية والعربية في الهجوم على الصهيونية، ولم تعد هناك تفرقة بين الصهيونية واليهودية

عند الكثير منهم، وحدث هجوم على اليهود في الصحف، واتهموا بأنهم يحطمون الاقتصاد المصري.

ومنعت الحكومة المصرية جميع المظاهرات ضد الإنجليز واليهود، وأعلنت حالة الطوارئ في ذكرى إعلان وعد بلفور عامي 1946، 1947 وأصدرت الحكومة أمرًا بمنع النشاط الدعائي ضد أي من أفراد المجتمع المصري، وأعلنت الحكومة أن الشيوعية هي مصدر البلاء، وأن كل الصهاينة شيوعيون.

وقد علم الصهاينة القادمون من فلسطين أن الدولة العربية عازمة على إعلان الحرب فغادروا مصر على عجل، وفي مايو 1948 قبض على الصهاينة المصريين، وكذلك الشيوعيين، وتقول كرامر: "إن المعتقلات في المكس وأبو قير وسجن النساء في القناطر كانت معقولة، وكان يسمح لهم بالزيارة والأكل من الخارج والاحتفال بالأعياد اليهودية. وعندما احتج الشعب البريطاني لم يبال بذلك النقراشي باشا رئيس الوزراء".

وقد وضعت تحت الإدارة الحكومية بعض الشركات المملوكة لليهود، وبعد أسابيع حدث الشيء نفسه للشركات المملوكة

للإخوان المسلمين، وقال محمد حسين هيكل في الأمم المتحدة عام 1947 عند مناقشة قضية فلسطين "إنه عندما يسيل الدم الفلسطيني في إسرائيل سوف يؤدي بالضرورة إلى إسالة الدم اليهودي في البلاد العربية، مهما حاولت الحكومات العربية بإخلاص منع ذلك".

وخلال تلك الفترة ـ التي اهتز فيها وضع اليهود المصريين وعلاقتهم بالوطن لأول مرة ـ أعلن الملك فاروق أن اليهود جزء من نسيج مصر، وحاول زعماء اليهود التفاهم مع السلطات المصرية وتأييدها، وطالب زعماء الجالية اليهودية بالتضامن مع الشعب الفلسطيني، وأرسل رينيه وأصلان قطاوي خطابًا إلى (الأهرام) ـ بعد أن استقالا من هيئة الجالية اليهودية ـ قالا فيه إنهما يهوديا الديانة ومصر هي وطنهما وجنسيتهما مصرية، وأصدرت الجالية اليهودية في بور سعيد بيانًا تندد فيه بإسرائيل، ونشرت جريدة (الشمس) في مارس 1946 مقالاً عن أهمية إنشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين، لكن الجريدة لم تعلن خبر إنشاء دولة إسرائيل يوم إعلانها، وقالت (صوت الأمة) الوفدية إنه يجب اتخاذ إجراءات ضد الطابور الخامس من اليهود والصهاينة

المصريين، وأثناء حرب فلسطين كان الموقف هادئًا، ولم تحدث أي متاعب لليهود، إلا بعد الغارات الإسرائيلية على القاهرة والإسكندرية في 20 يونيو 1948، وقتل نحو عشرين شخصًا في حارة اليهود القرائين من جراء انفجار قنبلة، وفي سبتمبر انفجرت قنبلة أخرى في حارة اليهود، ثم نسفت وكالة الأنباء اليهودية، وقد كانت كل هذه الحوادث فردية غير منظمة من الشعب وغير مدعومة من الحكومة، تقول كرامر إن معظم الاعتداءات على اليهود قام بها الإخوان المسلمين الذين اغتالوا ـ بعد ذلك ـ النقراشي رئيس الوزراء، ثم تم اغتيال حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين.

وفي عام 1950 أضيفت مادة إلى قانون الجنسية تعطي الحق للحكومة في سحب الجنسية المصرية ممن يعادي المصالح العليا الوطنية، وحتى عام 1956 لم يصدر أي قانون مصري موجه ضد اليهود بالذات.

وخرجت الجالية اليهودية من حرب فلسطين الأولى عام 1948 بخسائر قليلة في الأفراد والممتلكات، لكن بدأ الشعور بعدم الأمان في المستقبل، لكنه لم يصل إلى الدرجة التي تحفز اليهود على الهجرة إلى خارج مصر، وقدر معظم

اليهود أن الحوادث التي حدثت سببها حرب 1948، وبانتهاء الحرب سوف تزول الأسباب، لكن الإحساس بعدم الأمان استمر خاصة في الطبقة المتوسطة وطبقة الأغنياء، وإن لم يكن اليهود يريدون أن يفقدوا مراكزهم الاقتصادية المتميزة في مصر بالهجرة، لكن الشرائح السفلى من الطبقة الوسطى والطبقة الفقيرة اهتزت أوضاعها بسبب النزعة إلى تمصير الاقتصاد المصري، وقد هاجر من مصر خلال المدة من 1949 ـ 1951 أعداد من هاتين الطبقتين، وكان السبب الاقتصادي أحد العوامل، والسبب الآخر هو الخوف من المستقبل، ولم يكن أمام هذه المجموعة من الذين لا يحملون جوازات سفر أوروبية إلا الهجرة إلى إسرائيل، وكان الحل الصهيوني هو الأمثل بالنسبة لهم، وقد تم تمويل هذه الهجرة بواسطة المؤسسات اليهودية الدولية، ولم تعترض الحكومة المصرية على ذلك، ثم فتحت مكاتب للهجرة تابعة للموساد في القاهرة والإسكندرية لتنظيم الهجرة إلى أوروبا، ومنها إلى إسرائيل، وتعاونت معهم السفارات الإيطالية والفرنسية والإنجليزية لتسهيل استخراج وثيقة سفر مؤقتة، تقول كرامر "إنه قد دفعت رشاوى لبعض الموظفين المصريين لتسهيل

هذه المهمة"، وفي الوقت نفسه هاجر بعض الأغنياء وبعض الأفراد من الشريحة العليا للطبقة المتوسطة، على نفقتهم الخاصة إلى أوروبا، ولم يذهبوا إلى إسرائيل.

وقدر عدد المهاجرين من 1949 – 1951 بنحو 15 ـ 20 ألفًا (20٪ من اليهود المصريين)، وأفاد الإحصاء الإسرائيلي أنه من عام 1949 ـ 1954 هاجر 15 ألف يهودي مصري إلى إسرائيل، وكان قرار الحكومة المصرية إغماض العين وترك اليهود يهاجرون.

وتعتقد كرامر أن حريق القاهرة لم يكن موجهًا ضد اليهود أساسًا، وإنما إلى القوى الأجنبية المتحكمة في مصر، خاصة الإنجليز، وكان بعض اليهود متواطئًا مع القوى الأجنبية المسيطرة المتعاونة مع الاستعمار، كما أن الحرب كانت موجهة أيضًا إلى الملك وقطاع أصحاب الأعمال من اليهود، مثلهم مثل الإيطاليين واليونانيين والفرنسيين والإنجليز، وبعد الثورة حاول النظام تهدئة وطمأنة الأجانب، وزار محمد نجيب المعبد اليهودي والمدارس اليهودية، وبعد عام 1948 توقفت الحركة الصهيونية العلنية في مصر، وأصبحت سرية بين الشباب في النوادي، ومن هذه النوادي تم تجنيد الأعضاء

الإرهابيين الذين اشتركوا في عملية سوزانا، التي حطمت العلاقة بين الجالية اليهودية والنظام المصري، لكن الضرب القاصمة كانت في أكتوبر (1956) حين اشتركت إسرائيل في العدوان الثلاثي على مصر، وتم القبض على الصهاينة، وطرد الإنجليز والفرنسيين واليهود من الصهاينة، وعدل القانون لتصبح الصهيونية جريمة.

اليهود والحركات الشيوعية في مصر

هاجر اليهودي الروسي جوزيف روزنتال وابنته شارلوت إلى مصر عام 1892 قادمين من روسيا، محملين بالأفكار البلشفية اليسارية، وقد استطاع رزونتال تنظيم أول نقابة لعمال السجائر في مصر، وفي أوائل القرن تمكن روزنتال من تأسيس اتحاد نقابات العمال المصريين، واستطاع في العام نفسه ضم عدد من المصريين إلى تنظيمه، وقام بالاتصال بزعيم الأمة سعد زغلول الذي صرح له بأنه لا يهتم بالمشاكل الاجتماعية، وأن شاغله الأساسي التحرير الوطني والسياسي لمصر والمصريين، ولم يكن البعد الاجتماعي للتحرر واضحًا في ذهن زعيم الثورة، إلا أن سعد زغلول قدره وتفاهم معه. وكان الحزب الشيوعي الوليد يضم

مجموعات مختلفة الأفكار والخلفيات، وانشق عن الحزب بعض المثقفين المصريين بعد تأسيسه، مثل سلامة موسى عام 1912 وكالعادة تحالفت الحكومة المصرية مع الإنجليز لضرب الحزب الشيوعي المصري الأول، وكل الأحزاب التالية له في المستقبل.

تكون أول حزب شيوعي مصري برئاسة روزنتال اليهودي الروسي الأصل، واشترك معه محمود حسني العرابي ومحمد عبد ا عنان وعلي العناني وسلامة موسى، وانضم الحزب إلى الكمنترون الدولي للأحزاب الشيوعية عام 1920، وكان الحزب الشيوعي المصري خلال العشرينات نشيطًا وسط العمال المصريين، لكن الحكومة والإنجليز مارسا العنف والقبض على أعضائه، حتى توقف عن النشاط في نهاية العشرينات، وكان حسني العرابي قد قاد حملة لطرد الأجانب من الحزب الشيوعي المصري، حتى إنه طرد روزنتال مؤسس الحزب، وفي العشرينات كانت الحركة الشيوعية المصرية حقيقة واقعة، وكان عدد المنتمين إليها من اليهود قليلاً جدًا، لذا لم يكن لهم تأثير يذكر فيها.

وفي عام 1934 أنشأ الصحفي السويسري اليهودي بول دي

كامب تجمعًا سياسيًا أغلبه من اليهود، كان من أعضائه راؤول كوربيل، والشاب الصغير هنري كوربيل، وقد لعب دورًا مهمًا ومؤثرًا في الحركة الشيوعية المصرية داخل مصر وخارجها بعد أن طرد منها وكانت هذه بدايات الحركة الشيوعية المصرية الحديثة.

وفي منتصف الثلاثينات نظمت الحركات اليسارية في مصر ـ بقيادة اليساريين من كل الجاليات الأجنبية من إيطاليين وفرنسيين وأرمن ويونانيين ويهود مع بعض المثقفين المصريين، نشاطًا كبيرًا، وبدأت الصحف اليسارية الناطقة بالفرنسية ـ برئاسة تحرير ليون كاسترو وإسحاق ليفي من اليهود المصريين، وآخرين من غير اليهود، مثل المصري جورج حنين –نشاطًا صحفيًا يساريًا كبيرًا، وحيث إن الكثيرين من هذه الجماعات الماركسية كانوا من المهاجرين الأشكيناز من شرقي أوروبا، فقد حاولت الحكومة المصرية إيقاف هجرة اليهود الأشكيناز في العشرينات والثلاثينات، ليس خوفًا من الصهيونية وإنما من الشيوعية.

وأثناء صعود النازية في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا، نظم اليساريون من اليهود جمعيات لمكافحة الفاشية، خاصة ضد

الجناح الفاشي المنحاز إلى موسوليني بين الجالية الإيطالية المصرية، وكانت أكثر الجماعات اليهودية محاربة للنازية جمعية مرتبطة بالماسونية أعضاؤها من اليهود، سميت بناي بريت.

وفي عام 1935 أنشأ دي كامب حركة السلام اليسارية، وأنشئت الحركة المعادية للفاشية بواسطة اليهود الصهاينة، أما المصريون مسلمين وأقباطًا فبدأت الحركات اليسارية والشيوعية تلعب دورًا مهمًا في اجتذابهم أثناء الحرب العالمية الثانية، بإنشاء الحركة الديمقراطية، ومن هذه الحركة تكونت عدة أحزاب شيوعية مختلفة، وتعتقد

##

صور يتم سحبها عن طريق الماسح الضوئي

المؤلف مع اليهود

1 ـ مادا ماير مع المؤلف في جنيف.

2 ـ ديدار فوزي مع المؤلف في قهوة في جنيف.

3 ـ السيدة آني كرم وزوجها مع المؤلف في القاهرة.

4 ـ يوسف درويش مع المؤلف في القاهرة.

5 ـ سام حكيم في محطة قطار جنيف مع المؤلف.

6 ـ ألبير أربيه مع المؤلف في جروبي بالقاهرة.

7 ـ المؤلف مع يوسف (سوسو) حزان وريمون استمبولي وسعيد سلامة.

8 ـ المؤلف مع السيدة ميشيل في باريس.

أماكن وشخصيات

1 ـ حفل طهور طفل يهودي بالقاهرة.

2 ـ رحلة شباب يهودي إلى أبو قير 1930.

3 ـ مدرسة الاليانس الإسرائيلية في طنطا 1942.

4 ـ مدرسة قطاوي باشا اليهودية العربية.

5 ـ شارع سعد زغلول بالإسكندرية وهو موقع معظم المتاجر اليهودية.

6 ـ المهندس رافائيل الادجين مدير مصلحة الكيمياء (1880 ـ 1956).

7 ـ الحاخام الأكبر حاييم ناحوم أفندي.

8 ـ معبد بن ميمون بحارة اليهود ـ القاهرة.

9 ـ أحد أغنياء اليهود في سيارته الفورد 1927.

10 ـ أول أتوبيس عام في مصر أنشأه سوارس مؤسس حي المعادي بالقاهرة.

11 ـ طقم المستشفى الإسرائيلي بالقاهرة 1938 يجلس في الصف الثاني علي باشا إبراهيم عميد طب القصر العيني.

12 ـ باروخ مسعوده رئيس طائفة القرائين عام 1936.

13 ـ يعقوب قطاوي بك رئيس الجالية اليهودية في مصر.

14 ـ يوسف باشا قطاوي وزير مالية مصر في عهد الملك فؤاد توفي عام 1965.

15 ـ أبو حصيرة صاحب المولد الشهير في دمنهور.

16 ـ السيدة ليا نادلر بنت المليونير اليهودي السكندري نادلر وحرم بطرس بطرس غالي.

17 ـ الحاخام الأكبر في احتفال تيلفين الديني عام 1953.

18 ـ موسى باشا قطاوي مؤسس الإمبراطورية الاقتصادية للعائلة (1848 ـ 1924).

19 ـ محامي القصر الملكي الشاعر مراد بك فرج.

20 ـ عائلة يهودية بالقاهرة (1910).

21 ـ الحاخام في افتتاح البرلمان المصري عام 1934.

22 ـ زيارة الرئيس محمد نجيب للمعبد اليهودي الكبير بالقاهرة يوم كيبور (1952).

23 ـ حفل زواج عائلة من الأشكيناز في القاهرة.

24 ـ المتاجر اليهودية الكبرى ـ القاهرة (1910).

25 ـ معبد حنان بالعباسية.

26 ـ قصر عائلة يهودية في طنطا.

27 ـ حفل في فيلا باروخ مسعودة من أغنياء اليهود القرائين.

نماذج من الصحف اليهودية

####################################

كرامر أن الحركات الشيوعية في مصر كانت خلافاتها تدور حول رأيهم في تمصير الحركة واشتراك العمال في قيادتها، وكذلك أيهما أولاً القضية القومية والاستقلال أم الاشتراكية، وتكونت أحزاب شيوعية مختلفة كلها بقيادة يهود مصريين، هم هنري كورييل، ومارسيل إسرائيل، وهيليل شوارتز، وكانت كبراها هي الحركة المصرية للتحرير الوطني بقيادة كورييل واستطاعت الحركة جذب عدد كبير من المصريين، وكذلك حركة تحرير الشعب بقايدة مارسيل إسرائيل، وأصدرت الحركة المجلة الجديدة، والعصبة والتطور وجماعة الفجر الجديد برئاسة أحمد صادق سعد ويوسف درويش وريموند دويك وأحمد رشدي صالح، وكانت هذه

الحركة هي الأقرب إلى الشعب المصري، بالإضافة إلى الجناح اليساري للوفد، أما الشرارة فقد كونها هيليل شوارتز من المثقفين الأجانب والمصريين، وأصدرت صحيفة (الجماهير).

وفي الأربعينات كانت مدرسة الليسيه فرانسيه في الإسكندرية والقاهرة معقلاً للفكر الماركسي، وقد نجحت في ضم المسلمين والأقباط إلى الماركسية، وكان اليهود في موقع القيادة حتى تم القبض عليهم عام 1948.

وشكل تكوين لجنة العمال والطلبة في فبراير 1946 تطورًا شعبيًا هائلاً، مما أدى إلى الهجوم العنيف على الشيوعيين من إسماعيل صدقي رئيس الوزراء، الذي أصدر أمرًا بالقبض عليهم وإغلاق صحفهم، وتكونت (حدتو) من وحدة الشرارة مع الحركة الديمقراطية، لتتكون منظمة حدتو التي ازداد أعضاؤها في سرعة فائقة وانتشرت صحيفتهم (الجماهير).

وفي مايو 1948 بعد حرب فلسطين والقبض على الشيوعيين، انفكت أواصر حدتو مرة أخرى، وكانت حدتو منقسمة إلى فروع الطلبة والعمال والمثقفين والمرأة والجيش والسودانيين والأجانب، وكان لليهود تمثيل قوي في الحركة.

وكان على حدتو - الحركة التي أعلنت أنها حركة مصرية للتحرر الوطني بكافة أنواعه - أن تحدد موقفها من قضية فلسطين، وطبقًا للخط السوفيتي أعلنت أولاً عن موافقتها على إقامة دولة ديمقراطية للعرب واليهود في إسرائيل، لكنها غيرت موقفها تبعًا لتغير موقف الاتحاد السوفيتي، ووافقت على قرار التقسيم وإقامة دولتين في فلسطين، وكان رأي حدتو الأول أن الصهيونية حركة بورجوازية موالية للإمبريالية العالمية، لكن حدوث تغيير في موقف حدتو بالنسبة من قضية فلسطين أدى إلى عزل حدتو إلى حد ما عن الجماهير المصرية والعربية، ولم يوافق كل أعضاء حدتو على قرارات القيادة بالموافقة على تقسيم فلسطين، وبدأت الجماهير تنظر بقلق إلى دور اليهود البارز في الحركة الشيوعية، وترى أن دورهم البارز في القيادة سوف يكون معطلاً لتقدم الحركة بين جماهير الشعب المصري، واعتقدت بعض القيادات المصرية مثل أحمد صادق سعد ويوسف درويش (من اليهود القرائين) وريموند دويك أن الحل في التحول إلى الإسلام، واعتقد البعض أن الانخراط في نشاط مضاد للصهيونية في أوساط اليهود هو الحل.

وينقد توماس ماير كتاب رفعت السعيد (اليسار المصري والمسألة الفلسطينية)، لأن السعيد اتهم الأغنياء والرأسمالية المصرية بتمويل وتشجيع الحركة الصهيونية في مصر، ويعتقد ماير أنه قد دق إسفينًا بين المصريين واليهود، ويقول إن هذا الكلام مرسل لا إثبات ولا دليل عليه، وعكس ما أثبتته الدراسات من جميع الاتجاهات، يقول السعيد في هذه الدراسة إنه بالاشتراك مع زملائه من الشيوعيين المصريين دافعوا بأنفسهم ضد الاعتداءات التي حدثت في الأربعينات على الممتلكات اليهودية، والتي قام بها مصر الفتاة والإخوان المسلمين، وأنا أتفق مع ماير في الجزء الأول من تحليله، فلم أجد في الوثائق والكتب والمجلات التي قرأتها دليلاً على أن أغنياء اليهود السفارديم في مصر قدموا دعمًا ذا أهمية للحركة الصهيونية، فإن الكثير منهم كانوا على وعي وإدراك كامل بأن نجاح الحركة الصهيونية فيه نهاية لأعمالهم الناجحة في مصر وحياتهم الرغدة فيها، ومعظمهم ـ إن لم يكن كلهم ـ لم يهاجروا إلى إسرائيل حين حان وقت الرحيل، وكانت جذور الصهيونية في اليهود الأشكيناز الذين تم تجنيدهم بواسطة أعوان الصهيونية القادمين من فلسطين

لتجنيد اليهود المصريين في النشاط الصهيوني، ولم يتم تجنيد بعض أغنياء اليهود من الإسكندرية إلا في مرحلة متأخرة جدًا، بعد أن أصبح وضع اليهود في مصر حرجًا بسبب قيام دولة إسرائيل وبسبب الثورة الشعبية ضد الاعتداءات اليهودية السافرة على الفلسطينيين.

أما بخصوص الجزء الثاني من رأي ماير، فأنا اتفق مع رفعت السعيد في أن مصر الفتاة والإخوان المسلمين كانا الصوت الأعلى والأكثر حماسًا في إثارة الغضب والكراهية تجاه اليهود المصريين بكافة طوائفهم واتجاهاتهم، ورأوا أن كل اليهود صهاينة، ولم يفرقوا بين يهودي وصهيوني، وهو ما كان مهمًا في ذلك الوقت، لعدم تقوية الصهاينة بالمساعدة على انضمام كل اليهود إليهم.

وقد قال رفعت السعيد "إن اليهود الشيوعيين قاموا بتكوين الجبهة المعارضة للصهيونية، والتي حلتها الحكومة بعد ذلك"، ويقول أيضًا إن اليسار المصري نجح في منع الكثير من اليهود المصريين من الالتحاق بالصهيونية، وهنا اتفق مع رفعت السعيد جزئيًا فقط، لأن الأحزاب الشيوعية المصرية كانت فعلاً مضادة للصهيونية، واستمرت في معارضتها

للصهيونية حتى بعد خروجها من مصر، لكن يجب ألا ننسى خريجي مدارس الأليانس الإسرائيلية الفرنسية، التي كان مدرسوها يمثلون أقصى اليسار من الفرنسيين على مختلف اتجاهاتهم، والذين أشرفوا على تعليم وتخريج طلاب يؤمنون بأفكار اشتراكية مختلفة، معظمها ماركسية، وهذا في تقديري هو السبب في الإحصائية التي أوردها ماير، بأن أكثر من سبعة آلاف مهاجر مصري إلى إسرائيل ضمن العشرين ألف مهاجر كانوا ينتمون إلى اليسار. لكن يجب أن أوضح أن هذا اليسار ليس له علاقة بالتنظيمات الشيوعية المصرية الأساسية حدتو واسكارا وأيضًا التنظيمات الشيوعية الصغيرة الأخرى التي كانت كلها تناضل ضد الصهيونية، وكانت هذه المجموعات الماركسية يهودية صرفة، وليست لها علاقة بتاتًا بالحركة الشيوعية المصرية، ويذكر ماير بالتفصيل الشهادات التي أجراها رفعت السعيد مع الشيوعيين المصريين، مدافعًا عن موقفهم، برغم أن بعضهم كان من أصول غير مصرية.

وبالرغم من أن الشيوعية جذبت الكثير من اليهود، إلا أن المصريين على وجه العموم رأوا أن الصهيونية تسيطر على

الحركة الشيوعية في مصر، وقد رأى الكثير من المصريين من المسلمين والأقباط، أن الشيوعيين اليهود يمثلون خطرًا على مجتمعهم، وكذلك رأت الحكومة ـ ممثلة في النقراشي رئيس الوزراء ـ أن الشيوعيين والصهاينة شيء واحد، ولا فارق بينهما، ويمثلان خطرًا على المجتمع، ويجب محاربتهم وسجنهم، وبالطبع كان ذلك يمثل قصورًا شديدًا في تفكير الحكومة المصرية.

ويذكر ماير خطبة جمال عبد الناصر في عيد العمال عام 1954 التي اتهم فيها اليهود بأنهم يؤمنون بخليط من الصهيونية والشيوعية اللتين رأى عبد الناصر أنهما متماثلتان وأن الذي يمولهما الصهيوني هنري كورييل، وهذا غير صحيح تمامًا لأن الثابت في جميع المراجع أن كورييل كان ضد الصهيونية، وأنه كان شيوعيًا أرثوذكسيًا، وأنه لم يتعاون مع الصهيونية وإسرائيل، بل ظل مواليًا ومخلصًا لمصر حتى بعد طرده منها، وإن كانت له أفكاره التي تبلورت في مراحل لاحقة، وحاول فيها التعاون مع الحزب الشيوعي الإسرائيلي لحل المشكلة الفلسطينية، وفي تلك الفترة كتبت جريدة (الدعوة) لسان حال الإخوان المسلمين أن الصهيونية

والشيوعية وجهان لعملة واحدة، وكلاهما يريد أن يحكم العالم، وفي دراسة لذكريا سليمان بيومي نشرت في القاهرة عام 1978 عن الإخوان المسلمين واليهود من 1937 ـ 1947 نقل منها ماير أن الإخوان اعتقدوا أن اليهود المصريين طابور خامس، وكلهم يدينون بالصهيونية.

اليهود والتنظيمات الشيوعية الرئيسية

يقول بنيين إنه بين الثلاثينات والخمسينات من القرن العشرين انضم نحو ألف يهودي مصري إلى الحركة الشيوعية المصرية، وكان هناك نحو ألف آخرين من اليهود المتعاطفين مع الحركات الماركسية، وهناك اعتقاد خاطئ عند كثير من المؤرخين بأن الحركة الشيوعية المصرية في معظمها كانت يهودية، وهذا غير صحيح، لأن أغلبية الحركة كانت من المصريين المسلمين والأقباط، لكن تمثيل اليهود فيها كان أكبر بكثير من نسبة تمثيلهم في المجتمع المصري، وكان الكثير من مواقع القيادة لهم، وهؤلاء اليهود المصريون الذين شاركوا مع المصريين في إنشاء التجمعات الماركسية لم يكونوا يؤمنون بالصهيونية، وذلك على عكس المجموعة اليسارية التي جمعت بين الماركسية والصهيونية، وكانت

تضم اليهود فقط، وهم خريجو مدارس الأليانس اليهودية، وهذه المجموعة اليسارية من اليهود هاجر معظمها إلى إسرائيل بين عامي 1946، 1950 والتحقت بمستعمرة يهودية تحدثت عنها بالتفصيل في فصل آخر.

وفي الفترة التي بدأ النشاط الشيوعي في مصر يشتد فيها، كان الضغط من الحكومة والملك والإنجليز على مصر شديدًا، لإحباط النشاط الشيوعي، حيث كانت الشيوعية بمبادئها الجذابة للمساواة تجذب عددًا كبيرًا من الشباب المصريين، بمن فيهم اليهود والأجانب من اليونانيين والإيطاليين وغيرهم، حيث كانت الماركسية حلاً مثاليًا يضعهم مع الأقباط والمسلمين من المصريين في قارب واحد.

هنري كورييل

هنري كورييل ولد في مصر من أبوين يهوديين يحملان الجنسية الإيطالية، وينحدر من عائلة ثرية، وحصل على الجنسية المصرية عام 1935 وتعلم في مدرسة الجيزويت الكاثولكية، ولم يكن يجيد العربية بالرغم من انتمائه الشديد إلى مصر، بدأ نشاطه السياسي في الثلاثينات وأوائل

الأربعينات، بتكوين جماعات لمحاربة الأفكار الفاشية معظم أفرادها من الأجانب المتمصرين، إلا أنه في عام 1943 أسس الحركة المصرية للتحرر الوطني (حدتو) التي أصبحت أهم منظمة شيوعية في مصر لمدة طويلة، وكانت النواة لوحدة المنظمات الشيوعية المصرية، وبعد ذلك قام بتمصير هذه الحركة والتأكيد على اشتراك المصريين فيها.

يحكي جيل بيرو في كتابه عن هنري كورييل تاريخ حياته ونضاله، وقد نشر د. رؤوف عباس دراسة عن أوراق كورييل، وتناولت كتب د. رفعت السعيد المؤرخ الرئيسي لتاريخ الشيوعية والشيوعيين في مصر معلومات مهمة عن كورييل.

وفي عام 1942 أسس هيليل شوارتز ـ وهو يهودي أيضًا ـ منظمة اسكارا الشيوعية التي انضم إليها عدد كبير من المثقفين من الطبقتين الوسطى والعليا، وكانت تجمع بين اليهود والمسلمين والأقباط، وكان لها نشاط ثقافي واجتماعي تميز بالاختلاط والحرية التامة بين أفراده من النساء والرجال، ولم تكن العلاقات بين الرجال والنساء يتحكم فيها الدين، بل كانت مشتركة بين كل الأديان، وحدثت عدة

زيجات بين ديانات مختلفة في تلك الحركة.

وقد انضمت منظمة شيوعية صغيرة بقيادة اليهودي مارسيل إسرائيل ـ اسمها تحرير الشعب ـ إلى اسكارا، وبعد ذلك قاد كوربيل توحيد المنظمات الشيوعية تحت اسم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو)، وقد كانت اللجنة المركزية للتنظيم مكونة من 15 عضوًا، منهم ثلاثة هم: كوربيل وشوارتز وايميه سيتدن، ولم ينضم مارسيل إسرائيل إلى الحركة، لأنه عد نفسه أجنبيًا، بالرغم من أنه الوحيد الذي كان يجيد العربية في القيادات اليهودية.

وكانت هناك جماعة أخرى ماركسية التفكير التفت حول مجلة (الفجر الجديد) أسسها ثلاثة من اليهود، هم: يوسف درويش، وأحمد صادق سعد (بعد أن غير اسمه وأشهر إسلامه) وريمون دويل، وقد اكتشفت هذه المجموعة أن مشكلة الحركة الشيوعية المصرية أن الذي يقودها هم المتمصرون من اليهود، ولذا قرروا أن من ينضم إلى جماعتهم لابد أن يعبر (الممر)، وهو ما يعني أن الممر لا يمر فيه إلا المصري الذي يجيد العربية ويشعر هو والآخرون، بأنه مصري صميم، وفي هذه الحالة يمكن أن

ينضم إلى المجموعة، وقد أحس زعماء عمال النسيج في شبرا الخيمة أن هذا هو الطريق السليم لحركة شيوعية مصرية حقيقية، وانضموا إلى هذه المجموعة، وكان اليهودي المصري الصميم يوسف درويش هو المستشار القانوني لنقابات العمال والتجارة لسنوات طويلة. وكان يوسف درويش شخصية محبوبة وطنية يكن لها جميع العمال الاحترام بدون أي اعتبار أو أهمية لديانته اليهودية، وذلك على عكس بعض المثقفين المصريين الماركسيين الذين كان عندهم قليل من الديانة اليهودية لهذه القيادات الثلاث، حتى بعد أن تحولوا إلى الإسلام، وقد تحدثت مع يوسف درويش ساعتين، وحكى لي بفخر عن نشاطه الوطني في خدمة العمال المصريين، والمنظمة الأخيرة التي تكونت في نهاية الأربعينات هي الحزب الشيوعي المصري، وأطلق على المجموعة اسم (الراية) نسبة إلى جريدتها السرية، وكان من زعماء هذه الحركة إسماعيل صبري عبد ا وفؤاد مرسي وسعد زهران، ورفضت دخول اليهود ضمن أفرادها، ورأت أنهم يشجعون الانحلال داخل حزبهم، وقد تميزت هذه المجموعة بدخول نسبة كبيرة من الأقباط المصريين تحت

لوائها.

وتغلبت وجهة النظر التي توافق على أحقية اليهود المتمصرين في الاشتراك في قيادة المنظمات الشيوعية المصرية، واتفق الجميع على أهمية تمصير (حدتو) باجتذاب أعداد كبيرة من المصريين في قيادتها.

ونقلاً عن بنيين يقول ريمون استامبولي ـ الوثيق الصلة بهنري كورييل الذي تم اغتياله في السبعينات في باريس ـ إن حرب 1948 كانت ضربة قاصمة لأحلامنا، وكنا نظن أننا مصريون، بغض النظر عن أن بعض المصريين كانوا ينظرون إلينا على أننا أجانب، والآن لسنا فقط أجانب، وإنما أيضًا أعداء، وربما نكون طابورًا خامسًا لإسرائيل في نظر المصريين.

وقد قضت القضية الفلسطينية على وحدة حدتو، وأدى ذلك إلى ظهور القيادات المصرية الشابة ممثلة في شهدي عطية الشافعي وأنور عبد الملك وغيرهما ممن أرادوا تمصير المنظمات الشيوعية وتحجيم دور اليهود فيها. يقول بنيين حدتو مثل كل المنظمات الشيوعية العربية وافقت على قرار تقسيم فلسطين، وذلك مسايرة لموقف الاتحاد السوفيتي،

بالرغم من اتهام البعض لهم بأن الموافقة كانت بسبب وجود يهود في قيادات المنظمة، ولا يعتقد كورييل أن انقسام حدتو كان سببه وجود القيادة اليهودية في ظل النزاع العربي الإسرائيلي.

ولا يعتقد بنيين أن كورييل كانت له أي دوافع أو علاقات صهيونية، بل يعتقد أنه شيوعي أرثوذكسي يؤيد موقف الاتحاد السوفيتي على طول الخط، وأنه كان يريد السلام مع إسرائيل، حتى تتفرغ مصر لحل القضية الاجتماعية عن طريق الحل الاشتراكي، وغداة الحرب العربية الإسرائيلية في 1948 قبض على اليهود من المنظمات الصهيونية وكذلك من معظم المنظمات الشيوعية، وعندما أفرج عنهم بعد ذلك قررت المحكمة عام 1950 ترحيل هنري كورييل ـ بالرغم من أنه كان مصري الجنسية ـ إلى إيطاليا، ومنها استقر في باريس.

الشيوعيون اليهود المصريون في فرنسا

كونت مجموعة اليهود المصريين في فرنسا مجموعة أطلق عليها الاسم الحركي (مجموعة روما)، وكانت بقيادة كورييل وسكرتارية يوسف حزان الذي أنشأ مطبعة ودار نشر

صغيرة في باريس، وضمن هذه المجموعة كان جاك حسون وريمون استمبولي وآخرون، واستمر كورييل في إرسال آرائه بالحبر السري إلى منظمة حدتو في مصر، يقول كورييل إنه شعر بمصريته وانتمائه الشديد إلى مصر بعد نفيه إلى فرنسا، وكان لديه أمل كبير في العودة إلى مصر، ويبدو أن هذا الشعور قد لازم الكثيرين من أفراد هذه المجموعة من المتمصرين الذين لا يجيد بعضهم العربية، وكانوا يعدون أجانب في نظر معظم المصريين، وهاهم يعتقدون أن انتماؤهم قد كبر وأصبح أقوى في المنفى، لأنهم كانوا يعدون أيضًا أجانب في فرنسا، وبالطبع هناك اختلافات كبيرة بين المؤرخين والمحللين حول موقف هذه المجموعة، التي يبدو أن انتماء أفرادها القوي للأيديولوجية الماركسية كان يغلب عليهم، وبالرغم من ذلك استمروا في الاحتفاظ بولائهم لمصر التي ولدوا وعاشوا فيها، واعتقدوا أن الماركسية سوف تكون حلاً شاملاً لمشاكل وطنهم مصر.

وقد قامت مجموعة كورييل في فرنسا بنشر مطبوعة غير دورية عن مصر والسودان، وعند قيام ثورة 1952 لم تستطع مجموعة كورييل تقييم الموقف عن بعد، خاصة بعد

أن حدث انقسام آخر في حدتو حول موقف المنظمة من ثورة يوليو، الذي أيده البعض وعارضه البعض الآخر، خاصة بعد إعدام خميس والبقري إثر مظاهرات العمال في كفر الدوار بعد محاكمة عسكرية غير عادلة، وترددت أقاويل بأن هناك علاقة خاصة بين النظام الجديد والسفارة الأمريكية والمخابرات المركزية الأمريكية، ورأى البعض أن النظام الجديد نوع من الدكتاتورية العسكرية.

قام نظام عبد الناصر بالقبض على جميع الشيوعيين المصريين، بدون تفرقة بين المجموعة التي كانت تؤيده والمجموعة التي لم تؤيده، واستمرت مجموعة روما برئاسة كورييل في حضور الاجتماعات العالمية للشيوعيين من مختلف بلاد العالم ممثلة لمصر، وكذلك في المنظمة العالمية للشباب الديمقراطي ومجلس السلام العالمي، وعندما هاجمت حدتو نظام عبد الناصر في نهاية عام 1953 انضمت مجموعة روما إلى الخط السياسي نفسه، بالرغم من عدم موافقة كورييل الشخصية على ذلك.

وقد رفض الشيوعيون المصريون في الوطن الموافقة على الاجتماعات التي تمت بين مجموعة روما والأحزاب

الشيوعية الإسرائيلية عام 1954 وأيد الشيوعيون المصريون في الوطن جمال عبد الناصر في مواقفه ضد الإمبريالية العالمية، بالرغم من معارضتهم لديكتاتورية النظام الذي فرض قيودًا على الحركات العمالية والنقابات، وألغى حق الإضراب ولم يسمح للأحزاب الشيوعية المصرية بالحركة.

وبالرغم من إشكالية اشتراك اليهود المصريين منذ الأربعينات في الحركة الشيوعية المصرية، إلا أن الحماس المشترك في الدفاع عن الوطن ضد الاستعمار أدى إلى التغاضي عن ذلك، وعدم إثارة موضوع اشتراك غير المصريين في الحركة الوطنية المصرية، لكن بعد أن أطلق عبد الناصر العنان للحركة القومية العربية، أصبح عرب ويهود البلاد العربية في صراع مع دولة إسرائيل ـ وهي الدولة اليهودية ـ مما جعل اليهود المصريين الشيوعيين في الخارج في موقف شديد التناقض، وبه مصاعب كثيرة.

وقد ساعد التقارب بين الشيوعيين ونظام الحكم في مصر على وحدة الأحزاب الشيوعية المختلفة وتكوين الحزب الشيوعي الموحد في فبراير 1955 وفي تلك الأثناء علق المصريون عضوية كوربيل في الحزب الشيوعي المصري،

ومع ذلك استمرت مجموعة روما في النشاط لدعم الحزب الشيوعي المصري، وقامت بترجمة الجريدة السرية (كفاح الشعب) وجريدة (كفاح شعوب الشرق الأوسط) إلى الفرنسية، وقد قرر مؤتمر باندونج ـ بموافقة عبد الناصر ـ قبول حل سلمي بين مصر وإسرائيل يشمل الاعتراف المتبادل وإعادة أراضٍ احتلتها إسرائيل بعد قرار التقسيم، وكان سكرتير المؤتمر يوسف حلمي ناشطًا في محاولة تحقيق هذا الأمر، وأيدته في ذلك مجموعة دبلوماسية جادة في هذا الاتجاه، وكان رأي الكثير من أعضاء حدتو أن تقارب مجموعة روما مع الشيوعيين الإسرائيليين يسبب إشكالية كبيرة لهم.

وقد ذكر ثروت عكاشه في مذكراته ـ وأيد نفس المعلومة بنيين ـ أن هنري كورييل عام 1956 استطاع الحصول على نسخة من وثيقة الخطة الكاملة للهجوم على مصر بعد تأمين قناة السويس، وأنه سلمها إلى عبد الرحمن صادق الملحق الإعلامي المصري في السفارة المصرية في باريس، لكن عبد الناصر اعتقد أن ما ذكر في الوثيقة يصعب تصديقه، وبعد انتهاء العدوان الثلاثي على مصر عرف أن

ثروت عكاشة الملحق العسكري المصري في باريس كان على علم بتحركات كورييل الإيجابية تجاه مصر، وطلب من عبد الناصر إعادة الجنسية المصرية إليه بعد تقديم هذه الوثيقة المهمة إلى مصر، بالرغم من أنها ضد مصالح إسرائيل، وهو يهودي وضد مصالح فرنسا التي هي وطنه الثاني، بعد طرده من مصر وسحب الجنسية المصرية منه، لكن عكاشة لم يتلق ردًا على طلبه.

وفي عام 1957 قرر الحزب الشيوعي المصري ـ بناء على طلب مجموعة الراية بقيادة إسماعيل صبري عبد ا وفؤاد مرسي ـ حل مجموعة روما والتخلص من أي نفوذ يهودي في الحركة الشيوعية المصرية، وكما يقول رفعت السعيد المؤرخ الأساسي للحركة الشيوعية المصرية، فإن كثيرًا من أعضاء حدتو كانوا سعداء بهذا القرار، بالرغم من علاقتهم الوثيقة وتقديرهم لكورييل.

وفي أول يناير 1959 قام عبد الناصر بالقبض على الشيوعيين المصريين، وبالرغم من أنه سبق طرد مجموعة روما من الحزب، إلا أنها استمرت في جمع الأموال لمساعدة المسجونين من الحزب، وكذلك بالدعاية لقضيتهم في أوروبا.

وفي تلك الأثناء شعرت المجموعة اليهودية المصرية في باريس بأنهم لم يستطيعوا أبدًا أن يكونوا مصريين، ولم يستطيعوا أيضًا أن يكونوا فرنسيين في وطنهم الثاني، فسارعوا إلى الانضمام إلى حركة تحرير الجزائر، وبعد استقلال الجزائر تبرع كورييل ببيته في الزمالك للحكومة الجزائرية ليصبح مقر السفارة الجزائرية في القاهرة، وما زال مقرها حتى الآن، وقد استمر كورييل ومجموعته في النشاط السياسي تأييدًا للنضال الثوري في مختلف أنحاء العالم، وقاموا بعدة محاولات لبدء الحوار العربي الإسرائيلي، لكن النجاحات كانت محدودة، وقد أسعدني الحظ بإجراء حوارين مع اثنين من أعمدة هذه المجموعة، هما يوسف (سوسو) حزان، وريمون استمبولي، والحواران منشوران في هذا الكتاب، كما قابلت مجموعة أخرى من اليهود المصريين الشيوعيين في باريس وجنيف ومصر، وكان انطباعي أن هذه المجموعة مصرية القلب والعاطفة، تحب مصر وتتمنى لها الخير، ولم تؤمن بالصهيونية حلاً لمشكلة اليهود، وقد طردت هذه المجموعة من مصر قبل الثورة، بسبب انتمائها إلى الشيوعية، ولم يكن للديانة اليهودية أو الاشتباه في الميول

الصهيونية دور في طردهم من مصر، وأحب أن أشير إلى كتاب ألبير أوديز الصادر حديثًا في باريس، والذي يفيض بالحب والعشق لمصر أم الدنيا، وأعتقد أن كل الشيوعيين اليهود الذين قابلتهم في مصر وخارجًا مصريون وطنيون يكنون للوطن التقدير كله.

اليهودية المصرية.. لماذا تدهورت؟

وماذا حدث لليهود في القرن العشرين؟

يقول يعقوب الإسكندراني إن اليهود المصريين الأصليين عاشوا أكثر من ألفي عام في مصر، وحصلوا على مناصب مهمة ووضع اقتصادي متميز، ونادرًا ما تعرضوا لأي نوع من الاضطهاد، وتكلموا العربية باللهجة المصرية، وبالرغم من اندماجهم الكامل في الشعب المصري قرر اليهود المصريون لأسباب كثيرة الهجرة.

ومن المعروف أن اليهود المصريون حتى بداية القرن التاسع عشر كانوا منتشرين في كل أنحاء مصر، من الفيوم إلى دمياط، وكانوا يسكنون المدن والقرى، وكان معظمهم يعملون في الحكومة موظفين أو محصلين للضرائب، بالإضافة إلى المهن المختلفة كالأطباء والمدرسين والمحاسبين، وكثير منهم

كانوا من الصناع المهرة.

ومن المعروف أن بعض اليهود السفارديم المهاجرين من أسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر عملوا في الزراعة، واستمروا على ذلك حتى عام 1950 مثل عائلة وهبة في الغربية وما حولها، وكانوا يمارسون الزراعة في قويسنا وصنبو وخلوة الغلبان، وكان لهم أيضًا تواجد زراعي في زفتى والمحلة وميت غمر ودمياط.

يرجع تاريخ اليهود في مصر إلى الزمن القديم، وتوجد بردية - ترجع إلى نحو خمسمائة عام قبل الميلاد - تشير إلى الوجود اليهودي في جزيرة الفانتين في أسوان.

وفي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين اتجهت أنظار اليهود المصريين إلى أوروبا، ومنذ تلك اللحظة انقسم اليهود المصريون إلى جناحين، الجناح الأول أراد أن يبقى على شعوره بالانتماء إلى مصر، والجناح الآخر خضع للنفوذ المتناهي للغرب، وبهذا مهد الطريق لأن يفقد انتماءه للوطن، لكن الكثيرين من أعضاء هذا الفريق استطاعوا الحصول على الحماية الفرنسية، وعبر عدة عقود انبهروا تمامًا بالغرب، وأصبحوا يمثلون المصالح الأوروبية التي تعاونوا

معها ضد المصالح المصرية الوطنية.

وكانت هذه المجموعة ممثلة بوضوح وبقوة في مدينة الإسكندرية، والتفت مجموعة كبيرة من اليهود الذين يريدون الانتماء إلى أوروبا حول البارون منشه النمساوي الأصل، وحدث خلاف شديد مع مجموعة اليهود المصريين الذين أرادوا الاحتفاظ بمصريتهم، وتم الاتفاق على قواعد لتنظيم العلاقة بين اليهود المقيمين في الإسكندرية، وكانت المكاتبات والأوراق الرسمية للجالية تكتب اللغة الإيطالية التي لا يعرفها معظمهم يهود الإسكندرية، وقد ذهب أبناء هذه الطائفة إلى المدارس الإسرائيلية الفرنسية التابعة لباريس، على حين كانت الطائفة اليهودية المتمسكة بمصريتها ترسل أبناءها إلى المدارس المصرية.

أما في القاهرة وبورسعيد وطنطا والمنصورة فلم يكن الانقسام واضحًا بهذه الدرجة بين اليهود، إذ لم يكن يمثل اليهود من أصول أجنبية الذين وفدوا حديثًا إلى مصر أكثر من عشرين بالمائة من اليهود، لكن تدريجيًا كان تأثير هذه القلة اليهودية أوروبية الميل يزداد، حتى أصبح هو التأثير الطاغي قبل الهجرة النهائية لليهود المصريين.

يقول جاك حسون "إن اليهود كانوا مصريين، لكنهم كانوا دائمًا يحلمون بأن يصبحوا يهودًا أوروبيين، لأن ذلك في نظرهم كان هو التحضر، وهكذا بدأ استخدام اللغة العربية يصبح مظهرًا من مظاهر التخلف والفقر، وبالرغم من أن هناك نسبة حصلت على البكالوريا المصرية ودخلت الجامعة المصرية، إلا أن حلم الجميع أصبح الهجرة من مصر".

وحدث تحول كبير بعد جيلين فقط، وأصبح معظم اليهود المصريين يجيدون الفرنسية والإيطالية واليونانية واللادينو والإنجليزية، وتركوا العربية، وكذلك دراستهم الدينية التقليدية لفقراء اليهود، وبذا اغتربوا داخل وطنهم، وأصبحوا يمثلون ثقافة مختلفة عن ثقافة معظم المصريين، يركزون على التعاون الوثيق مع القوى الأجنبية الأوربية، وأصبح الشعار الطاغي (يجب أن نقلد أوروبا ونتعلم منها، ويجب أن تخجل بوصفك يهودي من لغتك العربية)، كان هذا هو الشعار المتداول بين الطبقات العليا، والطبقات الوسطى اليهودية، لكن كانت هناك مقاومة لهذا التغيير، مركزها المعابد اليهودية التي حارب حاخاماتها أي تغيير من الخارج، ومن المعروف أن التاريخ يشهد بوجود أفراد من المثقفين اليهود

الذين دافعوا عن الوطنية المصرية بقلوبهم وجوانحهم، ومن أمثلة هذا الجناح الكاتب الصحفي يعقوب صنوع صاحب الجريدة الشهيرة (أبو نظارة) الذي نفاه الإنجليز إلى فرنسا، فدافع عن حرية مصر من باريس، وكان أول من رفع شعار (مصر للمصريين) في مظاهرات الجيزة أمام الأهرام، وفي أربعينات القرن العشرين انضم عدد كبير من اليهود المصريين إلى منظمة حدتو الشيوعية، بوصفها خلاصًا لهم من هذا المأزق في الهوية، وفي تلك الآونة لم تكن كلمة الصهيونية واضحة، وكان الكثيرون من اليهود المصريين يمقتون الكلمة.

تقول كرامر في مقدمة أطروحتها للدكتوراه إنه من مجموع نحو 75 ألف يهودي كانوا يعيشون في مصر في الثلاثينات والأربعينات هاجر 20 ألفًا بعد عام 1948 ثم من 40 ـ 50 ألفًا بعد حرب السويس في 1956 وكانت قرارات التأمين في عامي 1961، 1962 هي الضربة التي أخرجت عدة آلاف أخرى، وبعد حرب 1967 غادر من تبقى، وفي الثمانينات كان في مصر أقل من ألف يهودي معظمهم من كبار السن.

ولا يوجد تفسير واضح لماذا خرج اليهود من مصر؟ وهناك

وجهات مختلفة في تفسير هذا الأمر، الأولى تقول إن التاريخ أثبت أن هناك إمكانية للتفاهم والتعايش والحياة المشتركة بين المسلمين والأقباط واليهود، ووجهة النظر الأخرى تقول إن الإسلام كان عنيفًا مع اليهود، ولم يتعايش معهم، وتقول كرامر إن كل وجهة نظر تأخذ في الاعتبار الفترة التاريخية التي تحكي فيها عن العلاقة بين اليهود والمسلمين، وكذلك موقفهم من الصهيونية.

وتقول وجهة نظر إن اليهود المصريين كانوا تاريخيًا يشعرون بأنهم مختلفون عن العرب، وأن الوطنية المصرية كانت كافية وواضحة داخلهم، وحددت علاقاتهم بباقي دول المنطقة وكذلك بالغرب وثقافته، إلا أنه في الثلاثينات من القرن العشرين حدث تغير في الفكر المصري، وبدأ تعاطف المصريين مع وجهة النظر المؤيدة للعروبة خاصة في أوساط المثقفين في المدن وبعض الأحزاب السياسية، ومما لا شك فيه أن الشعور الوطني المصري المطالب بالاستقلال ـ الذي بدأت ملامحه تكتمل في أوائل القرن العشرين ووصل إلى ذروته في ثورة 1919 ـ كان شعورًا مصريًا خالصًا، حاول البعض أن يعده صحوة لمصر الفرعونية التي اندثرت،

وحاول البعض الأخر عده صحوة للحضارة الإسلامية التي انهارت أركانها وأصبحت تاريخًا، وتعتقد كرامر أن تطور الوطنية المصرية أخذ بعدًا جديدًا في منتصف الثلاثينات، هو تحرك الوطنية المصرية في اتجاه العروبة، فمن المعروف أن سعد زغلول وزعماء الوفد الأوائل لم تشغلهم القضية العربية، بل بالعكس أعلنوا مرارًا أن قضيتهم هي مصر واستقلالها، إلا أن مكرم عبيد سكرتير عام حزب الوفد ـ وهو القبطي المصري الوطني ـ كان أول من عبر عن البعد العربي للتيار الوطني المصري، وأقنع مصطفى النحاس رئيس الحزب بأهميته، وتعتقد كرامر أن التغيير في الاتجاه الوطني المصري نحو العروبة، كان سببًا أساسيًا في تحول الرأي العام المصري، من مجرد مشاهد لما يحدث في فلسطين من تغيرات بسبب الهجرة اليهودية، إلى متعاطف مع الفلسطينيين، ثم مشارك فعال في الدفاع عن القضية الفلسطينية، وتعتقد كرامر أن هذا التحول في الرأي العام المصري أحدث شقًا بين اليهود المصريين وبقية الشعب المصري، والذين رأوا أن البعد العربي للوطنية المصرية يخرجهم من دائرة المواطنة.

وكذلك لم تكن الجالية اليهودية المصرية مماثلة لبقية الجاليات اليهودية في العالم العربي.

وهناك عوامل أدت إلى اختلاف مصر عن بقية الدول العربية، ذلك أن الاقتصاد ونظام الحكم المصري أخذ مسارًا متقدمًا قبل الدول العربية بفترة طويلة، وأن المجتمع المصري كان فيه عدد كبير من الجاليات الأجنبية المؤثرة، منها اليهود المصريون، وقد ساعدت هذه الجاليات على إدماج الاقتصاد المصري في الاقتصاد الأوروبي، لكن في الوقت نفسه كان هناك صعود للوطنية المصرية، وصعود للإخوان المسلمين، ونزعة إلى الاستقلال، وشعور قومي ضد الصهيونية سببه القضية الفلسطينية، وتتساءل كرامر، هل كان موقف اليهود المصريين مختلفًا عن موقف بقية الأقليات الأجنبية في مصر بين الحرب العالمية الأولى وعام 1952؟ ماذا حدث للأرمن واليونانيين والإيطاليين؟ هل ما حدث لليهود كان خاصًا؟ أم أنه كان عامًا على الأقليات كلها؟ وهل كان هناك عداء مصري خاص باليهود؟ وما السبب في هذه الهجرة الجماعية الضخمة؟ تقول كرامر إنه لم يحدث تغيير أساسي في الجالية اليهودية، وإنما حدث التغيير الأساسي في

المجتمع المصري ككل، وتساءلت كرامر عن دور الصراع العربي الصهيوني حول فلسطين في التأثير على العلاقة بين اليهود المصريين وباقي المجتمع، وهل حاول اليهود التأقلم مع الأوضاع الجديدة، وتعتقد كرامر أن العداء لليهودية لم يظهر في المجتمع المصري إلا في الستينات بعد أن غادر اليهود كلهم تقريبًا مصر.

كانت مصر مكانًا جاذبًا للمهاجرين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، وقد جذب النظام الحاكم المهاجرين بدعوى حماية الأقليات الأجنبية، وقد أدى ذلك إلى دفع الاقتصاد المصري وربطه بالاقتصاد الأوروبي، وكان المهاجرون يرون أن مصر بلد خصب، وأهله طيبون، ويعملون بجدية، وكان عدم الاستقرار في حوض البحر الأبيض المتوسط مع تدهور الإمبراطورية العثمانية عاملاً مهمًا في هجرة اليونانيين الإيطاليين والأرمن واليهود إلى مصر، فارتفع عدد الأجانب في مصر من 150 ألفًا عام 1850 إلى 200 ألف بعد نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918، وبدأ العدد في التناقص نتيجة الهجرة إلى الخارج مرة أخرى حتى بلغ 150 ألفًا عام 1947.

ولابد من ملاحظة أن رعايا الدولة الأوروبية المدونين في التعداد لا يعني أنهم أصلاً من هذه البلاد التي يحملون جنسياتها، بل كان الكثير منهم رعايا من بلاد تحتلها فرنسا أو إيطاليا مثلاً. فمثلاً ضمن 24254 بريطاني حسب إحصاء عام 1917 هناك 45٪ فقط كانوا بريطانيين قادمين من بريطانيا، والباقون حضروا من مالطا واليونان والهند، والأمر مماثل بالنسبة للفرنسيين وغيرهم، وكان ضمن هؤلاء المهاجرين نسبة كبيرة من اليهود، وارتفع عدد اليهود من 7 آلاف يهودي مصري عاشوا قرونًا طويلة في مصر إلى 25 ألفًا عام 1897، 60 ألفًا عام 1920 ثم وصل العدد من 75 ألفًا إلى 80 ألفًا بعد ذلك، وترجع هذه الهجرة اليهودية إلى عوامل جذب من مصر، وأيضًا عوامل طرد لهم من البلاد التي كانوا يعيشون فيها، وكانت هذه الهجرة أساسًا من السفارديم من حوض البحر الأبيض المتوسط وقد استقروا أساسًا في القاهرة والإسكندرية والقليلون في طنطا والمحلة الكبرى، وكان معظم المهاجرين من الشباب والفقراء، وكان موقف الجالية اليهودية في مصر تجاه هذه الهجرة يتراوح بين مساعدة المطرودين وعدم الترحيب بهم، لكن الأغلبية من

قيادة الجالية لم تكن سعيدة بهجرة أعداد كبيرة من اليهود إلى مصر، وحاولوا توجيه هذه الهجرة إلى خارج مصر، إلى فلسطين مثلاً، بل طالبوا بوقف هجرة اليهود إلى مصر ـ كما يقول دانون ـ عام 1903 لأسباب اقتصادية، وكذلك لعدم رغبتهم في تغيير التركيبة الإثنية لليهود المصريين، لكنهم فشلوا في وقف الهجرة، وقد أدت هذه الهجرة بالفعل ـ التي تواصلت في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ـ إلى تغير في نوعية وطبيعة اليهود المصريين، وحدثت لهم تغيرات كبيرة، فبعد أن كان اليهود المصريون وحدة مصرية واحدة أصبحوا جماعات يهودية مختلفة اجتماعيًا وإثنيًا، وأصبح اليهود المصريون الأصليون في معظمهم أفقر بكثير من الأقليات الأخرى المهاجرة إلى مصر، لكنهم كانوا أحسن حالاً من معظم الأقباط والمسلمين المصريين، بدأ اليهود الأصليون عملهم في الصرافة وتغيير العملة والسلفيات والعمل في صياغة الذهب والفضة، وكان تعليمهم متواضعًا للغاية، وكانت عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم مماثلة للمصريين، وذابوا وسط المصريين، لكن هذا الأمر الذي كان موجودًا في منتصف القرن التاسع عشر تغير بعد

ذلك.

تقول كرامر إن اليهود المصريين كانوا من خلفيات مختلفة، بحيث يصعب الحديث عنهم باعتبارهم مجموعة واحدة، مقارنة بالجاليات الشامية والإيطالية واليونانية، فكانوا يتكلمون لغات مختلفة ولهم طباع وعادات مختلفة حسب أصولهم.

وكان اليهود السفارديم يتحدثون اللادينو والفرنسية والإيطالية والتركية والعربية، أما اليهود اليونانيون فتحدثوا اليونانية والإيطالية، واليهود الإيطاليون تحدثوا الإيطالية والتركية واللادينو، والأشكيناز تحدثوا اليديش والبولندية والروسية، وفي تلك الآونة حيث الهجرة الكبرى لمصر، ظهرت الصحف باللادينو واليديش، لكن بعد نهاية الحرب العالمية الأولى تحولت اللغة الأولى لليهود إلى الفرنسية بالنسبة للأغنياء والطبقة الوسطى، وأصبحت اللغة الثانية هي الإنجليزية، وكانت تستخدم في التعاملات، وفقدت اللغات الأخرى أهميتها، حتى العربية بدأت تفقد أهميتها بين الحربين العالميتين، وأصبحت تعد لغة مهملة، وكانت المجلة الصهيونية (إسرائيل) التي صدرت عام 1920 قد اضطرت

للتوقف عن الصدور عام 1933 بسبب قلة عدد القراء الذين يعرفون العربية، بالرغم من أن عدد المؤمنين بالصهيونية قد زاد خلال تلك الفترة، واستمر اليهود المصريون عمومًا يتكلمون العربية، لكن قل التوجه نحو تعلم القراءة والكتابة بها. وكانت العبرية لغة ميتة في مصر، لم يتكلمها إلا قلة قليلة، وفي المدارس اليهودية كانت تدرس بوصفها لغة ثانية في المرحلة الثانوية مثلها مثل اللاتينية واليونانية، وفي الأربعينات كانت هناك مجموعة صغيرة من اليهود الأشكيناز الذين كانوا يستخدمون العبرية في كلامهم، والحقيقة أن الأغنياء من اليهود المصريين كانوا يجيدون على الأقل الإنجليزية والفرنسية، ويتكلمون بالعربية دون قراءة أو كتابة وبعضهم كان يجيد لغة أو لغتين إضافيتين كالإيطالية أو اليونانية أو اللادينو.

وأعتقد أن عدم استخدام اللغة العربية ـ لغة الوطن الذي ينتمي إليه اليهود ـ كان أحد العوامل التي أدت إلى انفصام الكثير من اليهود عن مصر وطنهم، ولو كان اليهود المصريون جميعًا يقرءون العربية، ويكتبون بها لتفهموا وطنهم الذي عاشوا فيه أجيالاً متلاحقة، ولكان إحساسهم

وشعورهم نحوه قد أصبح مختلفًا، ومن المثير للانتباه أنني في مقابلاتي لبعض اليهود المصريين في أوروبا ـ ممن تراوحت أعمارهم بين الستين والتسعين عامًا ـ للتحضير لهذا الكتاب شعرت بأن حبهم لمصر حقيقي ومن القلب، ويذكرون مصر بكل خير، أما بالنسبة للغة فسوف أتحدث عن حالتين، الأولى لسيدة خرجت من مصر وكان عمرها 15 عامًا، وهي متزوجة من سويسري، وتعيش في جنيف، وتذكر مصر بكل خير، تعرف بعض العامية، أما اللغة العربية فلم تتعلم حرفًا واحدًا منها، حتى خرجت من مصر عام 1956 ولم يضطرها أو يضغط عليها أحد للخروج من مصر، وكان والدها رجلاً ثريًا يسكن في شارع شجرة الدر في الزمالك، ومن كبار تجار الخردة، ويجيد العربية قراءة وكتابة، ويستمع إلى أغاني أم كلثوم، وكان مصريًا أبًا عن جدًا، لكن ابنته درست في مدرسة أجنبية، ومعرفتها بالعربية لا تتعدى بعض الجمل من العامية، وهذا مثال واضح للتغريب التام الذي حدث لليهود المصريين، فتركوا مصريتهم ولغتهم وانضموا إلى الغرب بحياته ولغاته.

مثال آخر الأستاذ سامي حكيم الذي يتكلم عن مصر بحب

شديد، وتشعر بعينيه تدمعان عند ذكرها، ويعرف كل شيء عن مصر منذ خرج منها عام 1957 عندما كان عمره 26 عامًا، وله الكثير جدًا من الصداقات المستمرة في مصر حتى الآن، هذا الرجل الذي كان سكرتيرًا فخريًا لنادي اليخت المصري، وله نشاط اجتماعي كبير لانتمائه إلى الطبقة الوسطى، سكن في باب اللوق، وكان مديرًا عامًا لقسم الإحصاء في بنك التسليف الزراعي التعاوني في الأربعينات، وهي الفترة التي كان فيها والدي مديرًا لقسم التعاون في نفس البنك، هذا الأب المصري لحمًا ودمًا خريج المدارس والمعاهد المصرية الذي يعمل ويكتب ويراجع إحصاءاته بالعربية ينتمي لأسرة متوسطة مصرية، وتعلم في المدارس الحكومية، وتعلم ابنه في مدرسة الليسيه فرانسيه التي كانت تدرس بالفرنسية فقط، وبعد الثانوية لم يشأ أن يدخل الجامعة المصرية عام 1948 وبدأ يعمل في توكيل وستنجهاوس في مصر، وهو بالطبع يتكلم العربية جيدًا، لكنه لا يقرأها ولم يتعلمها أبدًا.

هاتان الحالتان تعبران عن موقف غير مفهوم لأسرتين، الأب فيهما مصري أبًا عن جد، يتكلم ويكتب ويعمل بالعربية،

ويرسل أبناءه إلى مدارس لا تعلم العربية، هنا حدث الانفصام الحقيقي، لأن الأبناء بالرغم من حبهم لمصر ـ الذي لا شك أنه مازال مستمراً إلى هذه اللحظة ـ إلا أنه حب غير مكتمل، وأنا هنا ألقي باللوم على الآباء الذين لم يتعلموا العربية، واللوم أيضا على الحكومة المصرية في ذلك الوقت التي تركت المدارس تعلم اللغات الأجنبية دون اللغة العربية، وأعتقد أنه لو كان اليهود المصريون يجيدون العربية قراءة وكتابة لكانت اللغة قد وحدت بينهم وجذبتهم إلى الوطن.

يقول نبيل سيد أحمد "إن قيام إسرائيل في 15 مايو 1948 كان حدثاً أشبه بالزلزال الذي هز حياة يهود مصر واستقرارهم هزاً عنيفاً، فقد كانت حياتهم في مصر قبل قيام إسرائيل تتسم بالهدوء والاستقرار والازدهار".

وفي أعقاب قيام إسرائيل ظهرت صور من معاداة مصر شعباً وحكومة من كل يهودي تورط في نشاط صهيوني أو حامت حوله شبهة الصهيونية، وواكب ذلك اعتداءات متفرقة على بعض اليهود، إلا أن الأمور هدأت بعد ذلك حتى عام 1954 حين انفجرت فضيحة لافون، وتلا ذلك عدوان 1956

حين حدث الخروج الكبير. وفي فترة الهدوء قام الضباط المصريون بما أسموه حركة الجيش المباركة التي سميت ثورة يوليو بعد ذلك. وكانت الثورة حريصة على وجود علاقات طيبة مع اليهود المصريين، فقد زار محمد نجيب رئيس مجلس الثورة الحاخام اليهودي الأكبر في المعبد الكبير، وكذلك زار المدرسة اليهودية.

وفي عام 1953 تكلم الشيخ أحمد طاهر في الإذاعة المصرية بطريقة فجة عن اليهود المصريين الذين رأوا أنه أهان شرفهم وأمانتهم، وفي حديث آخر للإذاعة هاجم الشيخ أحمد حسن الباقوري اليهود وديانتهم هجوماً شديداً، وقد احتج على ذلك الحاخام أمام اللواء محمد نجيب، الذي أصر على أن يعتذر الباقوري رسمياً، وحاول الباقوري الاعتذار تليفونياً، لكن نجيب أصر على أن يقوم بزيارة رسمية إلى مقر الحاخامية للاعتذار، وقد انصاع لذلك الباقوري وقام بالاعتذار. وقد نشر ذلك ألبير مزراحي في جريدته (التسعيرة)، وقال إن ذلك يسيء إلى مصر في العالم الخارجي، ولا يتماشى مع سياسة الحكومة، وطالب مزراحي صلاح سالم وزير الإرشاد القومي بأن يكدر الشيخ، وأن

يقول له إن الدين   والوطن للجميع. وكان مزراحي يطبع أيضاً برنامج حفلة أم كلثوم وأغانيها.

وقد كان تمثيل اليهود في الصحافة أعلى صوتاً من الأقباط والمسلمين بالنسبة لتعدادهم. وأصدر ألبير مزراحي (الصراحة) في عام 1950 تحت رعاية فؤاد سراج الدين، وكان أيضاً رئيس تحرير (التسعيرة) وهي مجلة تجارية أسبوعية صدرت منذ عام 1944 وتوقفت المجلتان عن الصدور عام 1954 وقد كان له شريك قبطي وآخر مسلم، وذلك لتمثيل الأديان الثلاثة، وحفز ذلك نجيب الريحاني على إخراج مسرحيته (حسن ومرقص وكوهين) التي عرضت عام 1954، أي بعد وفاته بسنوات.

وقد ألقي القبض على مزراحي لفترة قصيرة عام 1952 ثم أفرج عنه، وقد انتقد الحكومة عند القبض عليه، ويبدو أن انتماءه الوفدي، وليس دينه اليهودي، كان السبب في القبض عليه.

وفي نهاية الأربعينات بدأت بعض الصحف المصرية ـ خاصة صحف الإخوان المسلمين ومصر الفتاة وبعض الصحف غير الحزبية ـ تتساءل عن موقف اليهود

المصريين من الوطن مصر ومن إسرائيل، ودافعت صحيفة (الشمس) اليهودية عن يهود مصر، وطالبت بالتفرقة بين اليهودية كديانة وبين الصهيونية كمذهب سياسي، وطالبت بإخراج يهود مصر من الصراع. وقال عبد الرحمن عزام إن الدولة الإسرائيلية حين تقوم في فلسطين سوف تكون شيوعية.

وحقيقة الأمر أن حكومات الأقلية التي حكمت مصر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى عودة الوفد عام 1950، كانت متربصة بالشيوعية ومهتمة بالقضاء عليها أساسا، ولم تكن مهتمة بالصهيونية. وكانت وزارة الداخلية تعلم جيداً أن الحركة الشيوعية المصرية الواعدة في مصر بها عدد كبير من اليهود، وقد قبض على هؤلاء اليهود وسجنوا ورحلوا من مصر في فترة مبكرة قبل قيام دولة إسرائيل، خوفاً من الشيوعية، وليس خوفاً من نشاط اليهود في خدمة إسرائيل. ومن المعروف أن الحركات الصهيونية في مصر كان يترك لها الحبل على الغارب، ولم تتدخل المباحث في نشاطها، إلا في أضيق الحدود، ولم تحدث مواجهة بين وزارة الداخلية وبين الصهاينة، إلا في مراحل متأخرة جداً من الصراع، وحتى في

حالة القبض المحدود على بعض أصحاب النشاط الصهيوني، فإن الأعداد التي سجنت كانت محدودة، وكانت تتلقى معاملة ممتازة على عكس الشيوعيين. وكان بعض رجال الحكومات المصرية على علاقة وثيقة مع زعماء الصهاينة في فلسطين، مثل إسماعيل صدقي وحسين سري، حيث كانت تربطهم بها أواصر الصداقة والعمل المشترك في السوق.

ويعني هذا أن الحركة الجماهيرية المصرية كانت تشعر بخطر الصهيونية مبكراً، وحاولت قدر استطاعتها إظهار غضبها من النشاط الصهيوني، ولم يظهر الشعب غضباً من النشاط الشيوعي، سواء كان من قام به يهود أو أقباط أو مسلمون. أما الحكومة فكان شاغلها الأكبر هو الشيوعية، وهنا يأتي التصريح الغريب لعزام باشا أول أمين عام لجامعة الدول العربية الذي يخشى من قيام دولة شيوعية في فلسطين، ولا يخشى من قيام دولة صهيونية، ويبدو أن هذا النوع من التفكير كان غالباً على دوائر زعماء الأقلية والقصر الملكي ورجال الأعمال المصريين.

وبعد دخول مصر حرب 1948 بدأت الدولة لأول مرة في اتخاذ قرارات ضد الصهاينة الذين تم اعتقال أعداد منهم

وترحيل بعضهم. يقول نبيل سيد أحمد إن اليهود المصريين والمسئولين عنهم أيدوا الحركة الصهيونية وتعاونوا معها بشكل واضح أو خفي. وأنا لا أوافقه على هذا الرأي، لأنه ثبت أن معظم اليهود المصريين لم يكن لهم نشاط صهيوني، ولم يكونوا متحمسين لقيام دولة إسرائيل، وإنما كانوا متعاطفين مع قيامها حتى يسكن فيها يهود أوروبا لكن الوضع تغير حين اشتد عود الحركة الصهيونية في الأربعينات، وبدأت الحركة الصهيونية في مصر تجذب اليهود المصريين، وحسب رأي نبيل سيد أحمد فإنه قد غادر خلالها ربع يهود مصر من 1947 إلى 1950 ونحو نصفهم ذهبوا إلى إسرائيل.

كتب أحد اليهود في جريدة (الشمس) أن بعض التجار عمد إلى تطبيق قانون الشركات على المحلات الفردية، بالرغم من أن القانون كان ينطبق على الشركات المساهمة فقط، واتهم البعض بأنهم فسروا قانون الشركات تفسيراً عنصرياً لم يكن ضمن نصوص القانون، ولم يفسره المشرع بهذه الطريقة.

ويذكر نبيل سيد أحمد أن ألبير مزراحي الصحفي اليهودي الوفدي ـ هاجم بعد الثورة برنامج (ساعة لقلبك) ـ وهو برنامج إذاعي شهير ـ لأنه كان يتهكم على اليهود، وهاجم

بشدة صلاح سالم وزير الإرشاد القومي، وهو ما يعني أنه كانت هناك حرية متاحة لصحفي يهودي في الشهور الأولى للثورة.

وفي عام 1954 أعلن عبد الناصر اكتشاف شبكة شيوعية بقيادة هنري كورييل، واتهم أعضاءها بأنهم يضللون الشعب، وفي نوفمبر 1954 قبض على اليهود المشتركين في عملية سوزانا. وترددت في بعض المصادر حكاية عن سيدة يهودية اسمها مدام يعقوب فرج شمويل كانت تسكن بجوار أسرة عبد الناصر في طفولته، وكانت تعامل جمال عبد الناصر بعطف شديد بعد أن فقد أمه، وكانت صديقة لأمه أيضاً قبل وفاتها، وأنها حضرت إلى الرئيس جمال عبد الناصر تطلب منه تخفيف حكم الإعدام على المتهمين الأول والثاني في قضية سوزانا (فضيحة لافون) ووعدها بالتفكير، لكن الحكم نفذ في اليوم التالي، وقد قال شحاته هارون المحامي المصري الماركسي إن اليهود كانوا يستشعرون القلق أيام عبد الناصر، ولم يصحح الوضع إلا أيام السادات.

وحقيقة الأمر أن اليهود فعلاً كانوا يشعرون بالقلق، لكن هذا الشعور لم يكن يختلف كثيرًا عن شعور أعداد كبيرة من

الأجانب الذين عاشوا في مصر سنوات طويلة، لكن وجود حكومة وطنية ـ تحرص على صالح مصر والمصريين وتحقق العدالة لهم ـ كان مصدر قلق الجميع، لأن معنى ذلك أن يفقد هؤلاء الأجانب واليهود أيضًا المميزات الكثيرة، المادية منها والمعنوية، والتي كانت تضعهم في مرتبة أعلى من المصريين، ومشكلة اليهود –الذين كان الكثيرون منهم مصريين لحمًا ودمًا ـ أنهم لم ينسلخوا عن قوميتهم اليهودية ولم يذوبوا في بحر القومية المصرية، وبذلك استمروا أجانب في مصر، وعندما مصرَتْ مصر كانوا خارج الإطار باختيارهم، وأصبحوا مثل كل الأجانب الذين فقدوا المميزات القانونية والمعاملة الخاصة، فكان عليهم أن يغادروا مصر، لأنهم لم يريدوا أن يعيشوا في وطن يتساوون فيه مع أبنائه، بل أرادوا دائمًا أن يكونوا طبقة فوق الشعب.

وبعد اشتراك إسرائيل في عدوان 1956 أصبح وضع اليهود المصريين الذين لهم نشاط صهيوني غير مستقر، وكان اندراج بعضهم في منظمات صهيونية وصلات البعض بإسرائيل، تشكلان خطرًا على نظام الحكم في مصر، واتخذت تدابير وقائية، منها اعتقال أعداد من اليهود

المصريين لفترات، ووضعت الحراسة على أموال وممتلكات الإنجليز والفرنسيين وبعض اليهود المصريين.

يقول حاييم كوهين الأستاذ بالجامعة العبرية إنه خلال الأيام الأولى من نوفمبر 1956 صدرت الأوامر لليهود بمغادرة مصر، ومعهم أشياء بسيطة من متعلقاتهم الشخصية تساوي ثلاثين جنيهًا مصريًا نقدًا، وتم إبعاد 7 آلاف يهودي حتى مارس 1957، و7 آلاف يهودي آخرين حتى سبتمبر 1957.

وحقيقة الأمر أن من طردوا من مصر كان معظمهم من اليهود الحاملين للجنسيتين الفرنسية والبريطانية، وفقط تم ترحيل 280 يهوديًا بدون جنسية للاشتباه في نشاطهم الصهيوني، أما الباقون فقد خرجوا من مصر بناء على رغبتهم، وقد باعوا ممتلكاتهم، وكان السبب الأساسي في خروجهم هو الخوف الشديد الذي صاحب عدوان 1956 والذي خلق شعورًا عدائيًا ضخمًا ضد إسرائيل في مصر وفي المنطقة كلها.

وفيما عدا ذلك فإن اليهود المصريين استمرت معاملتهم بطريقة طبيعية كما أثبتت تقارير السفارة الأمريكية، وكما قال الصحفي اليهودي الأمريكي دافيد لينتتال، نقلاً عن نبيل

عبد الحميد سيد أحمد.

يقول بنيين إن هجرة أصحاب رؤوس الأموال الأوروبية والأغنياء من اليهود المصريين وثيقي الارتباط بالجاليات الأجنبية، كان مسألة وقت، وأن اليهود كانوا سيغادرون مصر نهائيًا في جميع الأحوال، حتى لو لم يقع عدوان 1956 وأنا أوافقه في ذلك، لأن تأميم جميع الشركات المصرية والأجنبية عام 1961، 1962 كان من شأنه أن يؤدي إلى هجرتهم النهائية لأن اليهود كانوا قد هاجروا إلى مصر، لما توافر فيها من فرص ضخمة للاستثمار، ومميزات كبيرة للأجانب ولا يوجد فيها أي اضطهاد لليهود، ولم يحاول اليهود الاندماج في الشعب المصري، وإنما اندمجوا مع الأجانب الذين هاجروا إلى مصر في الفترة نفسها وللأسباب نفسها، وعندما لم تصبح مصر مكانًا به مميزات خاصة للاستثمار تخلوا عن مصر وتركوها، وفي ذلك الوقت هاجر الكثير من رجال الأعمال اليهود المصريين، ليبدءوا أعمالهم في البلاد العربية أو أوروبا أو حتى أمريكا أو استراليا، ولم يكن بوسع حكومة تنوي تطبيق نظام اشتراكي، وتملك فيها الدولة كل وسائل الإنتاج أن تبقى على رجال أعمال، وبالذات

إذا كانوا من الأجانب أو المرتبطين بهم مثل اليهود.

ويعتقد بنيين أن هذه العوامل المهمة أدت إلى هجرة اليهود المصريين، بالرغم من أن الصهاينة من اليهود المصريين كانوا قلة ولا يشكلون قوة محلية، وأنا أوافقه في ذلك، إلا أنني أعتقد أن مفهوم الصهيونية عند المصريين كان مختلفًا عن مفهومه عند الأشكيناز في أوروبا الشرقية، كان الأشكيناز يخططون ويعملون بكل جهودهم لإقامة دولة يهودية في فلسطين عن طريق الهجرة والضغط على القوى الكبرى طلبًا لمساعدتها المادية والمعنوية والقانونية، في ذلك الوقت كان اليهود المصريون متعاطفين مع ما حدث لليهود في أوروبا، وأنشئت مجلات وصحف إسرائيلية كثيرة تؤيد هذا الاتجاه وتظهر التعاطف مع اليهود الأوروبيين وتؤيد هجرتهم إلى إسرائيل، لكن معظم اليهود المصريين لم يكن واردًا ضمن تفكيرهم أن مشروع إنشاء الدولة سوف ينجح، لتصبح إسرائيل دولة كبرى في الشرق الأوسط، وكان معظم اليهود القرائين والربانيين من السفارديم سعداء في الحياة، آمنين في مصر لمدة قرون طويلة لم يشعروا فيها بأي تهديد حقيقي عليهم في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين،

وكان نفوذهم القوي داخل مصادر صنع القرار السياسي والاقتصادي في الحكومة مصدر ثقة بأنه لن يحدث شيء يضيرهم، وكان ارتباط أغنياء ومثقفي هذه الطبقة في القرن العشرين بالأجانب المتمصرين والشركات الأوروبية والجاليات الأجنبية ارتباطًا كبيرًا أبعدهم عن بقية الشعب المصري، وعند تبلور الحركة الوطنية المصرية بعد ثورة 1919 وخلال الثلاثينات وأربعينات القرن الماضي أصبح المطلب المصري بالاستقلال عن الاحتلال، وكذلك الاستقلال عن النفوذ السياسي والاقتصادي الأجنبي مطلبًا ملحًا، وقد أدى عدم تحقق ذلك إلى ثورة الغضب المصري التي رد عليها الإنجليز بمجزرة للبوليس المصري في الإسماعيلية، وكان الغضب الشعبي عارمًا، وأدى ذلك إلى حريق القاهرة الذي طال كل المحلات والأماكن المملوكة للأجانب، ومنهم اليهود، وعزز ذلك من الشعور بالقلق لدى الطبقات العليا من السفارديم، وبدءوا يقلقون على مستقبلهم في مصر، فلا هم يريدون أو يستطيعون الانضمام إلى الشعب المصري في أحلامه وتطلعاته للحرية السياسية والاقتصادية، لا هم يريدون إعلان العداء تجاه مطالبه المشروعة لأنهم عاشوا

بينه سنوات طوال وتمتعوا بخيرات البلد، ولم يؤذهم أحد، بل بالعكس كان وضعهم الاقتصادي أعلى بكثير من مستوى الشعب المصري، وبدأ الإحساس بالغربة والاختلاف يؤثر عليهم.

أما معظم اليهود الأشكيناز الوافدين حديثًا إلى مصر في القرن العشرين هربًا من الاضطهاد الأوروبي لليهود، فلم يشعروا أبدًا بالانتماء، ولم يتحدثوا باللغة العربية إلا للضرورة، ولم ينضموا أبدًا للمصريين في أي مطلب، وكونوا جالية أجنبية استطاعت أن تنجح بعلمها ومعرفتها في رفع مستوى الجالية في مصر، وكان هؤلاء اليهود هم الممثلون الحقيقيون للصهيونية العالمية، وهم الذين قاموا بتنظيم المؤسسات الصهيونية المصرية وقادوا ونظموا حركات الجاسوسية الصهيونية في مصر، وحيث إنهم كانوا بعيدين عن الشعب وعن اللغة فقد قاموا بذلك عن طريق تجنيد بعض اليهود المصريين الأصليين، مثل د. موسى مرزوق بطل قضية سوزانا وفضيحة لافون، وهو من اليهود القرائين، ولم تكن الحركات الإرهابية الصهيونية في مصر ضد المصالح الأجنبية والعربية فقط، وإنما أيضًا لإرهاب

اليهود المصريين وتخويفهم وحضهم على الهجرة.

يقول بنيين إن اليهود المصريين كانوا مختلفين عن بقية اليهود في ثلاثة أمور: أولها أن نسبة ضئيلة جدًا من المصريين كانت تنتمي إلى الفكر الصهيوني، وثانيها أن معظم اليهود الذين غادروا مصر بعد عام 1948 كانت عندهم الإمكانيات الاقتصادية أو الثقافية أو التعليمية، وإنما ذهب إلى إسرائيل من لم يكن له مكان آخر يذهب إليه، ولم يكن عنده مؤهلات تعليمية أو مادية، ثالثها أن اليهود المصريين أينما ذهبوا حتى داخل إسرائيل في معظمهم عاشوا حياة اجتماعية مشابهة لحياتهم في مصر، وهذه الأسباب توضح أن المقولة الإسرائيلية بأن المصريين ذهبوا إلى إسرائيل لإيمانهم بالمشروع الصهيوني، وأنهم انسلخوا تمامًا عن الأرض التي ولدوا فيها ووطنهم الأصلي، مقولة غير دقيقة، لأن نسبة كبيرة لم تذهب إلى إسرائيل، ومن ذهب إليها كان مضطرًا لذلك، لأنه لم يجد له مكانًا آخر يقبله.

ويعتقد بنيين ـ وأؤيده في ذلك ـ أن هجرة اليهود كانت مماثلة لهجرة الأقليات الأجنبية والمتمصرين، وليست مرتبطة

أساسًا بالمشروع الصهيوني، لأن قانون 1947 للشركات المساهمة حد من احتكار وتوسع الأجانب في مصر، وحيث إن معظم أفراد الجاليات اليهودية لم يكونوا يتمتعون بالجنسية المصرية، لعدم رغبتهم في ذلك وإصرارهم على الاحتفاظ بجنسيتهم الأوروبية، لذا وضعهم هذا القانون في مأزق، والحقيقة أن هذا القانون العادل وضعته حكومة السعديين التي كانت تحكم مصر من عام 1945 إلى عام 1950، وكان قد قتل اثنان من رؤساء وزرائها بتهمة عدم الوطنية وممالأة القوى الأجنبية وهي الحكومة التي كان لديها أغلبية في البرلمان، بسبب مقاطعة الوفد للانتخابات، والغريب أن هذه الحكومة التي لقبها كتاب التاريخ ومعاصروها بالرجعية وممالأة الملك والإنجليز قد سنت هذا القانون الذي كان من أهم أسباب البدء في تمصير الصناعة والاقتصاد المصري، ويعتقد بنيين أن الشعور الوطني السياسي المصري قد أبعد عن الحلبة السياسية الأقليات الأجنبية واليهود، وأنا لا أعتقد ذلك، فالواضح أن اليهود والأقليات الأجنبية هم الذين ابتعدوا عن الشعور الوطني العام، ولم يحاولوا أن يندمجوا مع الشعب في مشاعره وآماله، فعلى حين كان الشعب يريد أن

يطرد الإنجليز والنفوذ الأجنبي، نرى اليهود يوطدون صلاتهم وعلاقاتهم الاقتصادية ومصالحهم مع المتمصرين والأجانب، مما جعل الشعب يضعهم مع الأجانب في سلة واحدة، خاصة أنه كان هناك شعور دفين عند المصريين بأن اليهود لابد أن يكونوا متعاطفين مع الصهيونية، لكنهم لم يظهروا ما ينم عن انتمائهم إلى مصر بالقول والفعل في الثلاثينات والأربعينات كما فعلوا أثناء ثورة 1919 حين كان ليون كاسترو معاونًا لسعد زغلول، وكان اليهود المصريون ورجال الصحافة يدًا واحدة مع الشعب المصري في كفاحه، وأعتقد أن السبب في هذا التحول هو التعاطف مع مشروع الوطن القومي لليهود الذي بدأت تتضح ملامحه، ولم يكن عند اليهود في تلك الفترة النية لأن يكونوا جزءًا من الشعب المصري، وفضلوا الاندماج في النظام الرأسمالي الأجنبي الذي كان يتحكم في اقتصاد مصر، وهناك مثال واضح لذلك يذكره بنيين عن محلات شيكوريل التي كانت تملكها عائلة يهودية من السفارديم، ففي أثناء ثورة 1919 أعلن الوفد مقاطعة البضائع والمحلات الأجنبية عندما نفى سعد زغلول إلى جزيرة سيشل، ورأى الوفد والشعب أن محل شيكوريل

المملوك لعائلة يهودية مصرية هو محل مصري، ولم يقاطعه المصريون ولم يوضع ضمن قائمة المقاطعة بعكس ما حدث عام 1948 حيث أحرق المتظاهرون عن عمد محلات شيكوريل الذي نظر إليه على أنه يمثل سلطة أجنبية، بالرغم من أن ملاكه هم نفس أفراد العائلة، لكن شيكوريل في عام 1948 كان معظم موظفيه من اليهود الذين لم يكونوا يحملون الجنسية المصرية، وكانت لغة التعامل بين الموظفين اللغة الفرنسية، وجميع المستندات تكتب بالفرنسية، ولم يحاول شيكوريل أن يصبغ نفسه بالصبغة المصرية، وإنما أصبح خواجة تدريجيًا، وبمرور الوقت أصبح معظم موظفيه أيضًا من الخواجات اليهود، وهذا يفسر التغير في الموقف الشعبي تجاه شيكوريل، وقد هاجر سلفادور شيكوريل من مصر نهائيًا إلى فرنسا عام 1957 بعد أن باع سلسلة متاجره لعائلة مصرية، ثم تم تأميم المحلات من ملاكها المصريين عام 1961.

عملية سوزانا

(فضيحة لافون)

أعطت المخابرات الحربية الإسرائيلية أوامرها بتكوين خلية من اليهود المصريين والذين طلب منهم فيما بعد أن يقوموا بتفجير مقر البوسطة الرئيسية بالإسكندرية، والمركز الثقافي والمكتبة الأمريكية ومحطة باب الحديد بالقاهرة، بالإضافة إلى عدد من دور السينما في القاهرة والإسكندرية.

وقد قبض البوليس المصري على الخلية بعد تنفيذها بعض العمليات الموكلة إليها، وبالرغم من أن هذا العمل عمل إرهابي من الدرجة الأولى، وموجه من مواطنين في دولة ضد بقية المواطنين في الدولة نفسها إلا أن أحدًا من المعلقين أو المحللين الغربيين ـ وحتى الحكومات الغربية ـ لم يسم تلك العملية باسمها الحقيقي، وهي أنها عملية إرهابية، وإنما فقط سموها عملية سوزانا، وكان الغرض من هذه العملية إثارة القلق في مصر. مما قد يؤجل جلاء الإنجليز من مصر، ويضع إسفينًا بين الولايات المتحدة والنظام المصري الجديد، الذي يبدو أن علاقته كانت ممتازة مع الأمريكان في الشهور الأولى من الثورة، وكذلك إضعاف صورة حكومة

الثورة أمام العالم والإيقاع بينهما وبين الإخوان المسلمين، لكن الجميع استبعدوا أن يقوم الإخوان بذلك، لأن الانفجار حدث قبل صلاة الجمعة بقليل، ويقال إنه كانت هناك محاولات جس نبض لاحتمال تفاهم مصري إسرائيلي لتحقيق سلام بين البلدين تنظمه الولايات المتحدة، لكن هذه العملية نسفت ـ بالطبع ـ أي احتمال للتفاهم من جانب عبد الناصر مع إسرائيل.

وقد تمت محاكمة المتهمين أمام محكمة عسكرية قضت بالإعدام على اثنين من الذين نفذوها، وهما موسى لتو مرزوق، وهو طبيب مصري يهودي، وسامي عازر، وتم إعدامهما بالفعل بالرغم من الضغوط العالمية الشديدة على عبد الناصر لتخفيف الحكم، وحكم على اثنين آخرين بالإعدام غيابيًا، وبالسجن مدى الحياة على مارسيل نينو وروبير داسا، وحكم على اثنين بالسجن 15 عامًا، وواحد بالسجن سبع سنوات، وبرئ اثنان من المتهمين، وأعلن زكريا محيي الدين وزير الداخلية المصري أن الجواسيس اليهود المخربين قلة، وأن معظم اليهود من أبناء مصر وجزء من نسيجها، وهذه القضية لا تمسهم من قريب ولا من بعيد، وفي نص الحكم

الذي أصدره اللواء فؤاد الدجوي قيل المعنى نفسه.

وقد قامت الحكومة الإسرائيلية والأمريكية والإنجليزية جميعها بإعدام جميع وثائق هذه العملية، أما الوثائق المصرية فلا يعلم أحد أين هي، وفشل الباحثون في العثور عليها للإطلاع، ومن الناحية الأخرى نشر النائب الإسرائيلي في الكنيست شلومو كوهين كتابًا يعترض فيه على ما قاله الإرهابيون الذين قاموا بعملية سوزانا بعد عودتهم إلى إسرائيل، ورأى أن مصر كانت وطنًا عظيمًا، وأن التقارب والتفاهم مع شعبها أمر مهم، وعندما كتب ذلك كان يسبح ضد التيار في إسرائيل، وقد كان لهذه الفضيحة آثار داخلية كبيرة في إسرائيل، منها استقالة وزير الداخلية لافون، وكانت لها آثار ضخمة على وضع الجالية اليهودية في مصر.

وفي تبادل للأسرى بعد حرب 1967 تم الإفراج عن خمسة من المحكوم عليهم بالسجن في قضية سوزانا، وقد قررت الحكومة الإسرائيلية اعتبار وجودهم سرًا حتى عام 1971، عندما ظهروا على شاشة التليفزيون الإسرائيلي ليحكوا أنهم لم يشعروا أبدًا بأنهم مصريون، ولم يجيدوا اللغة ولم يحصل بعضهم على الجنسية، بالرغم من أنهم جميعًا من مواليد

مصر، وأن عائلاتهم هربت من أوروبا في القرن التاسع عشر إلى مصر، ومع ذلك لم يقولوا كلمة حق واحدة في مصر التي احتضنتهم لقرن كامل وأعطتهم كل شيء.

وكانت هذه العملية التي تم فيها تجنيد يهود مصريين، ولدوا وعاشوا وتعلموا في مصر، ليقوموا بها ضربة قاصمة لثقة المصريين في الجالية اليهودية التي أثبتت هذه العملية أنهم يمكن أن يكونوا طابورًا خامسًا ضد مصالح المصريين، وعندما كنت أحاور هذا العام اليهودي الشيوعي المصري ريمون استمبوللي قبل وفاته، قال إن عملية سوزانا كانت الضربة القاصمة التي وجهتها إسرائيل إلى الجالية اليهودية المصرية، ونتج عنها أن أسقطت كل احتمالات انصهار اليهود المصريين في الشعب المصري، ومن المعروف أن ريمون استمبوللي كان من قيادات جامعة القاهرة في الأربعينات، وكان ضمن مجموعة الطلبة الذين فتح عليهم النقراشي كوبري عباس، مما نتج عنه وفاة وإصابة أعداد كبيرة منهم، وقال استمبوللي إن المصريين فقدوا الثقة في اليهود، وأصبحت إعادة العلاقة إلى ما كانت عليه في السابق شبه مستحيلة.

وكتب روبير داسا في كتابه (العودة إلى الإسكندرية) تفاصيل تاريخه الشخصي في مصر وحكاية عودته إليها مع مناحم بيجن أثناء زيارته الرسمية إلى الإسكندرية، وقال إنه في يوم الجمعة 23 يوليو عام 1954 في يوم الاحتفال بالذكرى الثانية للثورة توجه النقيب زكي المنياوي نائب مأمور قسم العطارية في الساعة السابعة مساء إلى منطقة دور السينما بجوار شارع فؤاد والمكتبة الأمريكية وشاهد تجمعًا حول شاب ـ هو روبير داسا نفسه ـ إطفاء النار المشتعلة في جيبه، وقبض عليه واعترف وسقطت الشبكة، وكان الضابط الذي حقق معه هو الرائد ممدوح سالم ضابط المباحث العامة في الإسكندرية الذي أصبح رئيس وزراء مصر بعد ذلك، وقد قضى روبير داسا أربعة عشر عامًا في السجون المصرية وأفرج عنه عام 1968 في عملية تبادل الأسرى، وقال داسا أثناء زيارته للإسكندرية إنه كان يتطلع بلهفة ورغبة إلى زيارة مسقط رأسه، وقد قابل في الإسكندرية الضابط الذي حقق معه عام 1974 واصطحبه في سيارته إلى الفندق الذي يقيم فيه، ووافق السادات على أن تصحب أخت داسا المتزوجة من مصري في الإسكندرية أخاها إلى

إسرائيل في رحلة العودة.

كيف خرج اليهود المصريون من مصر؟

ولماذا خرجوا؟

يقول بنيين إنه بعد إعلان الدولة اليهودية عام 1948 صدرت بيانات وتقارير تحذر من اضطهاد اليهود في البلاد العربية، ومنها مصر، وذلك حسب اتفاقيات حقوق المواطنة، لكنه يعلق قائلاً إنه بعد قيام دولة إسرائيل كان لابد أن يلاقي اليهود بعض المتاعب، وأن التفرقة التي تحتج عليها المنظمات اليهودية تطبقها بطريقة أشد وأكثر تعنتًا الحكومة الإسرائيلية على الأقلية العربية، وهي بالتأكيد أسوأ بكثير من معاملة اليهود المصريين بين عامي 1948، 1956 وكان الإسرائيليون العرب تحت الحكم العسكري حتى عام 1965، وتعرضت أراضيهم للمصادرة بكميات كبيرة، ومنعوا من الانضمام إلى اتحاد العمال، وهذه هي إسرائيل التي تطالب العرب بالمساواة بين اليهود والعرب تقوم بمعاملة سيئة للغاية، وكانت هذه الدعاية الإسرائيلية هي التي سببت القلق على اليهود في مصر، لكن الجزء الأكبر كان دعاية سوداء ضد مصر لتشجيع اليهود على أن يدركوا أن الصهيونية هي الحل الوحيد المتاح لليهود

المصريين، ويعتقد بنيين أن العداء لليهود ـ خلال المدة من 1945 حتى 1956 ـ كان مركزًا في الإخوان المسلمين ومصر الفتاة، ولكن الأغلبية ممثلة في حزب الوفد والجماعات الليبرالية المختلفة واليسارية لم تكن أي عداء لليهود كأفراد، وإنما العداوة كانت أساسًا للصهيونية كنظام سياسي.

قال ممثل مصر في الأمم المتحدة الدكتور محمد حسين هيكل ـ العضو البارز في الأحرار الدستوريين عشية التصويت على قرار التقسيم عام 1947 وهو سياسي معروف بأنه ليبرالي ـ إن صحيفته السياسية دافعت عن ولاء اليهود المصريين، وعن وحدة الأمة المصرية تجاه القضية الفلسطينية، بالرغم من أن إسرائيل أو الصهيونية العالمية تقول غير ذلك.

وعند النظر إلى هجرة اليهود نجد أن 16514 يهوديًا هاجروا من مصر إلى إسرائيل بين عامي 1948، 1951 منهم 6 آلاف إلى بلاد غير إسرائيل، منهم الماركسيون المصريون، ومنذ عام 1950 وعودة الوفد إلى الحكم، حتى عام 1956 هاجر 4918 فقط إلى إسرائيل، 5600 إلى بلاد أخرى، وبقي نحو 50 ألف يهودي حتى عام 1956.

وكان أول من هاجر اليهود الأشكيناز، وبقي الكثير من القرائين حتى الستينات، وقد ذهب الفقراء إلى إسرائيل، والأحسن حالاً إلى أوروبا وأمريكا وأستراليا، وهاجر الشباب قبل الكبار.

يقول ميشيل لاسكير في كتابه (اليهود المصريون تحت الحكم الناصري) إن اليهود كونوا مستعمرة صغيرة في جزيرة الفنتين في أسوان قبل دخول الإسكندر الأكبر إلى فلسطين عام 322 قبل الميلاد، واستمروا في مصر، وزاد عددهم تدريجيًا في العصر الفاطمي، ثم في عصر محمد علي، ثم في القرن التاسع عشر.

وفي عام 1948 انقسم اليهود المصريون إلى معسكرين، أولهما معسكر الشباب الذي انضم الكثيرون منه إلى الحركة الصهيونية، لكن الأغلبية من اليهود المصريين كانوا ضدها بسبب الخوف على مراكزهم في مصر وسط جيرانهم من المصريين وكان البعض الآخر غير مهتم بالقضية الصهيونية.

وكانت حرب 1948 أول خطوة حقيقية في بداية النهاية للمجتمع اليهودي المصري، وكما ذكرنا سابقًا فإنه في يوم 2 نوفمبر 1945 بمناسبة الذكرى الثامنة والعشرين لوعد بلفور اندلعت المظاهرات الغاضبة ضد الإنجليز والصهاينة، وجزئيًا

ضد اليهود بإحراق معبد الأشكيناز وبعض المباني اليهودية، وهي المرة الأولى في العصر الحديث التي حدث فيها اعتداء على ممتلكات يهودية، وكما هو واضح فإن الغضب الشعبي العارم كان وراء المظاهرات، وتؤكد كثير من المصادر أن الإخوان المسلمين كانوا وراء العنف، إلا أنه لم يثبت بصفة قاطعة من المسئول الذي أشعل الحرائق، غير أن الحكومة المصرية اتخذت قرارات حازمة، ووضعت حراسة مشددة على المنشآت اليهودية.

وعند إعلان دولة إسرائيل عم الغضب الشعبي في مصر، ولأول مرة أصبحت الجالية اليهودية محل اتهام، وأعلنت الأحكام العرفية في 14 مايو 1948، وكذلك فرضت الرقابة على الصحف، وتم القبض على 600 شخص ارتفع عددهم إلى 1300 وكان ألف منهم من المصريين المسلمين والأقباط، وكذلك بعض اليهود وعدد من الأوروبيين بسبب معارضتهم للحكومة، بالإضافة إلى 300 يهودي بسبب نشاطهم الصهيوني الواضح، وعند دخول مصر حرب 1948 تم القبض على الصهاينة المصريين والشيوعيين المصريين، والإخوان المسلمين، ووضعوا في معتقل حتى نهاية الحرب، وصاحب

ذلك عداء ضد اليهود بصفة عامة ثم تولى الوزارة حسين سري باشا الذي كان صديقًا وشريكًا لكثير من اليهود، واستطاع تهدئة الأمور وطمأنة اليهود، إلا أنه خرج في تلك الفترة نحو عشرة آلاف يهودي من مصر، لكن أقل من 45٪ منهم هاجروا إلى إسرائيل وصدر أمر ملكي بقانون ينص على مصادرة أموال المصريين، سواء كانوا داخل البلاد أو خارجها، إذا ما قاموا بتعريض أمن الدولة للخطر، ووضعت ممتلكات هؤلاء الأفراد تحت الحراسة، وطبق هذا القانون - كما يقول لاسكير - على بعض اليهود، كما طبق على قلة من المصريين، وتم إلغاء الأمر بعد ذلك وإعادة الأموال، وقام النقراشي باشا رئيس الوزراء بحملة ضخمة ضد الإخوان المسلمين واعتقلهم بدعوى تهديدهم نظام الحكم والأمن العام.

وقد تم احتجاز مائة من اليهود مع الشيوعيين وبعض المناهضين لنظام الحكم في معسكر أبو قير، ومائتين من اليهود في معسكر هايكستب في القاهرة، وكانت المعاملة السيئة من نصيب الشيوعيين على حين لم يلق اليهود ولا حتى الصهاينة أي معاملة سيئة.

وأعتقد أنه واضح من قراءة تاريخ تلك الفترة أن الحكومة

السعدية كانت شديدة الصرامة مع كل من الإخوان المسلمين والشيوعيين الذين كان بينهم بعض اليهود، أما اليهود الصهاينة فقد عوملوا معاملة جيدة للغاية، وأعتقد أن الحكومة المصرية عندما قبضت على بعض اليهود من الناشطين في الحركة الصهيونية كانت تريد تهدئة الشعور الملتهب لدى المواطنين، أما العداء الحقيقي، والاعتقال الحقيقي، والمعاملة السيئة والعنيفة فكانت من نصيب أعداء الحكومة الخطرين عليها، وهم الشيوعيون والإخوان المسلمون، أما الصهاينة الخطرون على الوطن ووحدة الأمة المصرية بعناصرها المختلفة متضمنة اليهود المصريين فكان القبض عليهم مسألة مرحلية، وكان ذلك واضحًا في المعاملة المختلفة بين الشيوعيين والصهاينة في نفس المعسكر.

وفور التوقيع على اتفاق الهدنة في فبراير 1948 نقص الشعور العدائي نحو اليهود، وألغت الحكومة قرار المصادرة، وعادت الممتلكات المصادرة لأصحابها، وألغيت حالة الطوارئ وأفرج عن المسجونين تدريجيًا، وسمح لهم بالسفر، وقد نجح حزب الوفد في انتخابات يناير 1950 ورفع كل أوامر الحظر على المصريين، وقد غادر مصر من مايو 1948 حتى يناير 1950

نحو 20 ألف يهودي من نحو 80 ألفًا. وقد سافر من مصر إلى إسرائيل حسب الأوراق الإسرائيلية الرسمية 7154 يهوديًا عام 1950، 2086 يهودي عام 1951، 2151 عام 1952، 1041 عام 1953، 1069 عام 1954، 677 عام 1955، 880 عام 1956، وهكذا كان عدد المهاجرين يقل بالتدريج، ويرجع السبب الأساسي في هذا ـ في تقديري ـ إلى استقرار وضع اليهود في مصر، يدعي لاسكير أن إجراءات الهجرة كان فيها بعض الصعوبات، وكانت الهجرة الأساسية لليهود المصريين إلى أوروبا، خاصة إلى فرنسا وأستراليا وإيطاليا وبقية دول أوروبا الغربية، يقول لاسكير إن من أسباب توقف الهجرة لإسرائيل والاستقرار في مصر أو الهجرة إلى بلاد أخرى هو صعوبة حياة المصريين الذين هاجروا إلى إسرائيل، وصعوبة ذوبانهم في المجتمع المحكوم باليهود الأشكيناز، وقد وصلت خطابات من اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل يحكون فيها عن صعوبة المعيشة والتفرقة في المعاملة داخل إسرائيل، وكثيرون منهم هاجروا مرة أخرى إلى أوروبا.

وأعتقد أن الكثير من اليهود الذين هاجروا ـ خاصة من البسطاء والطبقة المتوسطة الذين لم يكونوا مؤمنين بالأفكار

الصهيونية ـ قد انزعجوا من مكانتهم في قاع المجتمع الإسرائيلي، أما اليهود الصهاينة الاشتراكيون فقد انتظموا في الحياة في الكيبوتز لكنهم لاقوا صعوبات شرحناها في فصل آخر.

وهنا أجد تفسيرًا واضحًا لفشل اليهود المصريين الذين هاجروا في تلك الفترة في تعليم أبنائهم تعليمًا متميزًا، حيث لم أجد أطباء من أصل مصري في المؤتمرات الطبية الدولية التي يكون معظم الإسرائيليين المشتركين فيها من اليهود الأشكيناز، وهذه النقطة سبق لي أن أثرتها، ووجدت الإجابة عليها عند لاسكير فهؤلاء اليهود المصريون لم تكن عندهم أية فرصة لإلحاق أبنائهم بكلية الطب في إسرائيل، على حين كانت الفرص متاحة في القاهرة والإسكندرية بسهولة، وقد كانت هذه الحقيقة مفاجأة لي، وهذا الأمر يفسر أيضًا لماذا هاجرت أغلبية اليهود المصريين إلى بلاد أخرى غير إسرائيل، حيث لم يهاجر إلى إسرائيل في الأغلب إلا الفقراء والأقل تعليمًا، وبعض الشباب الذي كان يؤمن بالصهيونية إيمانًا كبيرًا.

في الفترة من يوليو 1952 حتى مارس 1954 ـ بعد طرد الملك وقيام نظام الضباط الأحرار ـ تحسنت أحوال اليهود في

مصر، ويتجاهل لاسكير تمامًا فضيحة لافون (عملية سوزانا) والاعتداء على غزة عام 1954، وهما السببان الأساسيان لتوتر العلاقة بين مصر واليهود المصريين، ومنع الوصول إلى صلح مصري إسرائيلي في تلك الفترة، وأعتقد أن هذا الانتقاء التاريخي فيه نوع من التجاهل المتعمد لأحداث في غاية الأهمية، على حين ركز لاسكير على تحديد إقامة بعض اليهود في المعتقلات، وهو الوضع الذي اشترك فيه مع اليهود المصريون مسلمين وأقباطًا وأجانب من جنسيات مختلفة، وكانت معاملة اليهود المصريين داخل المعتقلات أفضل بمراحل من معاملة بقية المصريين، وقد استرد الصهاينة كل ما صودر منهم في أحداث 1948، وطريقة لاسكير في شرح تاريخ تلك الفترة يجعل القارئ يشك في كثير من التحليلات والاستنتاجات التي ذكرها، إذ يمكن مقارنته بجويل بنيين المؤرخ اليهودي الأمين، أو كرامر الألمانية في أطروحتها للدكتوراه عن اليهود المصريين، أما ما كتبه المتحيز لاسكير فيمتلئ بالمغالطات المفضوحة، فهو يذكر مثلاً أن قانون الطوارئ قد صدر عام 1954 لتسهيل القبض على اليهود الصهاينة، ووضع ممتلكاتهم تحت الحراسة، وأتاح حق سحب

الجنسية المصرية منهم في حالة الإخلال بأمن مصر، وقد طبق هذا القرار على مئات من اليهود، وهنا يجدر بي أن أعلق على ما كتبه لاسكير بأن هذا القانون صدر خصيصًا لليهود بدون سبب واضح غير العداوة لهم، إلا أنه لم يذكر أن هذا القانون قد صدر بعد فضيحة لافون (كارثة عملية سوزانا) التي شرحت بالتفصيل في مكان آخر، والتي قام بها صهاينة من إسرائيل حرضوا بعض شباب اليهود المصريين، لتفجير الممتلكات الأمريكية، وإثارة الذعر بين اليهود، ليهاجروا من مصر.

هناك أمر آخر لم يذكره لاسكير ـ وهو المؤرخ المحترف ـ أن هذا القانون تم تطبيقه، واعتقل بسببه الآلاف من الإخوان المسلمين، وصودرت ممتلكاتهم وتم تعذيبهم وإعدام بعضهم، كما حوكم به أيضًا الشيوعيين وبعض المدنيين المصريين من المشتغلين بالسياسة قبل الثورة، أي أن هذا القانون لم يوضع خصيصًا لليهود، وأن تنفيذه على اليهود كان بعد القيام بعملية سوزانا، التي اشترك فيها اليهود المصريون في خيانة وطنهم الذي تربوا وتعلموا فيه، ومع ذلك كانت المعاملة السيئة لليهود أقل بكثير من معاملة الإخوان المسلمين، أما عن الفصل الخاص باليهود المصريين، من نوفمبر 1956 حتى منتصف

1957، ففي مقدمة هذا الفصل كتب لاسكير أسطر قليلة عن الهجوم الإسرائيلي على سيناء الذي تلاه الهجوم الإنجليزي الفرنسي، ولم يحاول أن يوضح أن المشاكل التي تعرض لها اليهود المصريون ـ بعد ذلك ـ لها صلة بالهجوم الإسرائيلي غير المبرر على مصر، وما زلت أذكر الجمل التي كرها اليهودي أندريه اسيمان في كتابه الصادق، والتي عبر بها عن سعادة العائلة اليهودية السكندرية بحدوث العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، والفرحة العارمة للعائلة باحتلال بور سعيد، وقولهم إن هذه العملية العسكرية سوف تخلصهم من الحكم الوطني المصري، وسوف يعود الأمن والأمان والسعادة لهم في وجود المستعمرين الإنجليز.

ويقول لاسكير إنه تم القبض على مئات من اليهود الذين احتجزوا في مدارس اليهود، وتم وضع بقيتهم الإقامة الجبرية في بيوتهم، ولم يقارن ذلك لاسكير بما حدث لليابانيين في أمريكا بعد بيرل هاربر، وما حدث للألمان والإيطاليين في مصر أثناء الحرب العالمية الثانية، ولا غير ذلك من الحوادث الكثيرة المماثلة تاريخيًا، فها هي حرب سافرة قامت بها إسرائيل الدولة اليهودية ـ بدون سبب واضح ـ على مصر،

وسبقها ثبوت تهمة التخريب الذي قامت به إسرائيل بالاشتراك مع اليهود المصريين، وهجرة عدة آلاف من المصريين إلى إسرائيل، وإقامة جمعيات صهيونية، وإصدار صحف صهيونية لسنوات طوال في مصر للدعوة إلى دولة إسرائيل بدون تدخل من مصر، وهاهي هذه الدولة تهاجم مصر بدون سبب واضح، غير الحصول على مكاسب عسكرية، وهي تعلم جيدًا أن فعلتها هذه سوف تدمر العلاقة بين اليهود المصريين ووطنهم، وأنها سوف تحطم أي محاولة لبناء الثقة بين اليهود المصريين والدولة والأمة المصرية وعندما يحدث مجرد وضع بعض اليهود تحت التحفظ تثور ثائرة لاسكير، ولم يحاول هذا الكاتب أن يربط بين غزو سيناء وما حدث لليهود، وفعلاً تم وضع ممتلكات 486 مؤسسة يهودية تحت الحراسة، لكنها لم تكن وحدها، وإنما وضعت مؤسسات البريطانيين والفرنسيين أيضًا تحت الحراسة لأنهم اشتركوا مع إسرائيل في العدوان على مصر، ألم يحدث ذلك بسبب الهجوم الإسرائيلي؟ ألم تعرف إسرائيل أن ذلك سوف يؤثر على وضع يهود مصر؟ ألم تفكر في مستقبلهم الاقتصادي؟ أو علاقتهم بالمصريين؟ أضرت عامدة متعمدة بمصالحهم ووضعتهم في خانة أعداء المصريين،

لأنها تريد أن تفرغ مصر من يهودها، حتى لو لم يذهبوا إلى إسرائيل، وأعتقد أن هذه أنانية شديدة تمثل قمة التطرف، وما فعلته إسرائيل يعني أن وجود جالية يهودية مصرية، مصرية كان سيظهر مصر بالمظهر الديمقراطي المتسامح الذي تسبق فيه المواطنة الديانة، ولكن إسرائيل أصرت على العدوان على مصر وأهلها، وأيضًا على يهودها، لأنها كانت تعلم أن عدوانها سوف يؤدي إلى خروج اليهود من مصر في النهاية.

ماذا حدث لليهود في الخمسينات والستينات؟

يقول توماس ماير إنه في عام 1969 صدرت دراسة غير عادية في سلسلة كتاب (الهلال) بمقدمة لأحمد بهاء الدين، والدراسة لأحمد أبو كف وأحمد غنيم، وهي الدراسة الأولى في هذا الموضوع في العهد الناصري، يشرح ماير قائلاً إن الكاتبين أشادا بالحرية الكاملة والمساعدة من الحكومة التي لاقتها الطائفة اليهودية في العصر الملكي في أوائل القرن العشرين، يقول الكاتبان إن الحياة المستقرة والمنتعشة اقتصاديًا واجتماعيًا بدأت تتأثر بالدعوة الصهيونية القادمة من الغرب، ولم يكن ذلك يسعد اليهود المصريين، وانتهى الأمر إلى جماعات إرهابية قامت باغتيال اللورد موين، وقد ورد في

الكتاب أن اليهود قد قاموا بالاستيلاء على جزء كبير من الاقتصاد المصري، ونشرت قائمة بالشركات التي يملكها اليهود بما فيها من أسماء كبار الرأسمالية والمديرين، وكان رأي الكاتبين أن الحركة الصهيونية هي المسئولة عن انهيار العلاقة بين مصر والجالية اليهودية، وقد جاء في الكتاب أن بعض اليهود المصريين كونوا الرابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية، وقد كررها أيضًا طارق البشري في كتابه المهم عن (تاريخ الحركة السياسية في مصر 1945 ـ 1952).

يقول لاسكير إن وضع شركات اليهود تحت الحراسة أثر ـ أيضًا ـ على وضع الموظفين اليهود في هذه الشركات، حيث فقدوا وظائفهم، وأثر ذلك على حياة اليهود بصفة عامة وأن السياسة المصرية للتخلص من اليهود المصريين شملت طرد اليهود من ناحية، وإعطاءهم فرصة الهجرة الاختيارية من ناحية أخرى، وشمل ذلك اليهود الذين بدون جنسية، ثم بدأ اليهود المصريون من حاملي الجنسية يطالبون بالهجرة والتخلي عن جنسيتهم، فهاجر 22 ألف يهودي خلال التسعة أشهر التالية لنوفمبر 1956 وقد غادر الكثيرون منهم في ظروف صعبة خلال أيام كما يقول لاسكير، وعندما راجعت

المصادر المحايدة لم أجد فيها تأييدًا لكتابات لاسكير، صحيح أنه حدثت حالات طرد لأعداد قليلة من الصهاينة الذين ثبت تعاملهم مع إسرائيل أثناء الحرب وبعدها، لكن الأغلبية اليهودية في مصر لم يقم أحد بطردها، أو معاملتها معاملة سيئة، والواضح أن تأثير الهجوم البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر كان كبيرًا، وكان اشتراك إسرائيل فيه غير مبرر، لأنها لم تكن لها علاقة بقناة السويس، وكان غرضها الوحيد التوسع وتحطيم الجيش المصري، وهناك غرض خفي هو خلق مناخ غير صحي لحياة اليهود في مصر، حتى يغادروها إلى إسرائيل، وخلال اللقاءات التي تحدثت فيها مع عدد من اليهود المصريين الذين خرجوا بعد 1956 لم ألاحظ أن أحدًا منهم طرد، وكانت المقولة المتكررة من الجميع بعد اشتراك إسرائيل في العدوان على مصر عام 1956 هي أنه (أصابنا خوف شديد من استمرار حياتنا في مصر)، وأنكر الجميع حدوث أي اعتداء أو تهديد عليهم، وأدى الخوف والسرعة في التخلص من الممتلكات إلى بيعها بثمن بخس في بعض الأحيان، خاصة محتويات الشقق البسيطة والمحلات الصغيرة، ولم يحدث ذلك مع كبار الأغنياء الذين باعوا كل

ممتلكاتهم بالسعر المناسب، وحولوا أموالهم إلى الخارج بطرق غير قانونية، وإذا راجع القارئ الأحاديث التي أجريتها مع بعض اليهود، سيكتشف أن الرعب الذي اجتاح بعض اليهود كان غير مبرر، وقد قادت المنظمات الصهيونية واليهودية الأمريكية حملة ضخمة ضد جمال عبد الناصر ونظامه، واتهمته بالنازية وأنه استخدم موظفين سابقين من النظام النازي لاضهاد اليهود، وادعى اليهودي المصري موريس مزراحي أن النازيين الألمان في مصر اتخذوا أسماء مصرية، وهذه الادعاءات بالطبع ينقصها أي إثبات، ومما لا شك فيه أن الخروج الكبير لليهود المصريين مأساة إنسانية كبيرة، والكثير من هؤلاء اليهود هم مصريون أبًا عن جد، عاشوا في مصر حياة كريمة سعيدة، بل وكانت ظروفهم أفضل بكثير من ظروف بقية المصريين من مسلمين وأقباط، وسوف نرى أن نسبة كبيرة منهم كانت تحب مصر، وترى أنها وطنها الحقيقي، ولم تفكر أبدًا في الهجرة خارجها.

فيكتور نحمياس

في كتاب جديد نشر عام 2004 باللغة العربية يقول فيكتور نحمياس إنه في عام 1956 وقع العدوان الثلاثي لتحجيم عبد

الناصر، واشتركت إنجلترا في الحرب بسبب تأمين قناة السويس، وفرنسا بسبب الجزائر، وإسرائيل اشتركت فيها بوصفها حربًا دفاعية قبل أن يتمكن الجيش المصري من استيعاب صفقة الأسلحة التشيكية على حد قوله، وهذه الجملة الأخيرة كتبها نحمياس ولم يعلق عليها برأيه في هذا النوع من الحروب، وفي ذلك الوقت كان نحمياس مصريًا، من المفروض أنه تم الاعتداء على بلاده عندما حاول أن ينمي قدراته الدفاعية التي ثبت أنها في غاية الضعف عام 1948 وعند هجوم إسرائيل على غزة عام 1954.

يقول نحمياس إن أغلبية اليهود فضلوا العيش في كنف الحماية الأجنبية، وقال إن أقلية مثل سعد يعقوب مالكي رئيس تحرير جريدة (الشمس) كانوا مصريين مندمجين في شعب مصر، وكان يؤمن بأن يهود مصر والشرق يمكن أن يكونوا جسرًا بين الشرق والغرب، وقال نحمياس إنه قرأ كل أعداد جريدة (الشمس) في مكتبة الجامعة العبرية بعد هجرته إلى إسرائيل، وقال أنه كان يحضر اجتماعات مع الشباب اليهود ـ وهو في الخامسة عشرة من عمره ـ ليتدارسوا أحوال وأخبار يهود فلسطين، وقال إنه درس العربية والقرآن الكريم.

وفور اتخاذ قرار السفر إلى إسرائيل ذهب إلى مكتب سياحة يهودي في عمارة الإيموبيليا يمنح تذاكر السفر لمن يرغب دون أن يتقاضى شيئًا، وكانت الوكالة اليهودية تدفع ثمن التذاكر في مقر شركة السياحة في الخارج، ويذكر نحمياس أن لسان حال إسرائيل كان يقول إنه ما دامت مصر قد تنازلت عن يهودها فنحن أولى بهم.

وحقيقة الأمر أن مصر لم تتنازل عن يهودها أبدًا، وإنما كان معظم اليهود المصريين ـ وليسوا كلهم ـ قد تنازلوا عن مصر ـ وفي أحيان كثيرة بدأ التنازل عن مصر في فترة مبكرة جدًا، حين أهمل الكثيرون من اليهود تعلم اللغة العربية، وحين فضل الكثيرون من اليهود أن يتجنسوا بجنسية أجنبية أو حتى يبقوا بدون جنسية على أن يحصلوا على الجنسية المصرية، ولم يحاولوا الحصول عليها حين كان ذلك سهلاً ومتاحًا، وإنما حاولوا الحصول عليها عندما أصبحت مزايا الجنسية المصرية واضحة ولها فوائد كثيرة بعد أن قام البعض منهم بالانضمام إلى الحركات الصهيونية، وحين هاجر البعض إلى إسرائيل في مراحل تاريخية مبكرة وانضموا إلى الجيش الذي هاجم سيناء عام 1956، فإن الكثيرين منهم نسوا أو

تناسوا أيامًا جميلة في مصر لهم ولآبائهم وأجدادهم، حيث عاشوا معززين مكرمين، ولم يذكر معظمهم مصر بكلمة طيبة إلا بعد زيارة أنور السادات إلى إسرائيل وإبرام اتفاقية السلام، حيث بدءوا يتحدثون عن الأيام الجميلة في مصر.

يقول نحمياس إن إجراءات الخروج كانت سهلة، وحصلوا على وثيقة سفر بلا عودة. وكانت الوكالة اليهودية في انتظارهم، ويقول إنه تذكر ـ على السفينة التي رحل عليها ـ خروج بني إسرائيل من أرض الفراعنة، وهذا الكلام يؤيد ما قاله كل اليهود الذين قابلتهم، ويؤيد ما ذكر في الدراسات المهمة التي كتبت في هذا الموضوع، ويخالف المقولة التي ترددها الدعاية الصهيونية من أن جميع اليهود طردوا وعذبوا وصودرت أموالهم، ويقول نحمياس إنهم لم يكونوا يملكون شيئًا يستحق أن يباع، أما حادثة ماكينة الخياطة التي تركتها أمه في الجمرك فهي حادثة فردية من شرطي واحد، وحقيقة الأمر أن معظم كبار الرأسماليين اليهود باعوا ممتلكاتهم في هدوء، وحولوا أموالهم إلى الخارج في سهولة ويسر، وينطبق الأمر نفسه على الشريحة العليا من الطبقة الوسطى التي كانت تملك محلات أو ورشًا صغيرة، أما المهنيون فقد استطاعوا أيضًا أن يبيعوا

ممتلكاتهم ويهربوا أموالهم، أما أصحاب الدخول الصغيرة والمحلات الصغيرة وصغار الموظفين فلم يكن لديهم الاتصالات والخبرة والتفكير السليم في تصفية أعمالهم ونقل أموالهم، أو كانت رؤوس أموال بعضهم ضعيفة، بحيث لا توجد سوق حقيقية لها، وينطبق هذا الكلام على عائلة نحمياس التي لم تكن تملك شيئًا غير شقة صغيرة، وهي أسرة شريفة تكد وتعمل لكسب قوتها، وحين جاءت ساعة الرحيل لم تجد شيئًا تبيعه أو أحدًا تبيع له، وتحدث نحمياس عن الصعوبات الشديدة في الحياة خلال السنوات الأولى للهجرة إلى إسرائيل.

يقول نحمياس إنه بالرغم من أن الفرصة لم تكن متكافئة لليهود الشرقيين، فقد وصل معظمهم إلى مناصب مهمة في إسرائيل، وعندما سأله مكرم محمد أحمد رئيس تحرير مجلة (المصور) لماذا لا يوجد ساسة مهمون في إسرائيل من أصل مصري؟ أجابه إجابة غير مقنعة، هي أنهم كانوا مشغولين ببناء حياتهم، وكأن بقية الإسرائيليين كانوا غير مشغولين بذلك لكنه قال بعد ذلك إنهم تعودوا على عدم الاشتغال بالسياسة في مصر، والحقيقة أن اليهود في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين اشتغلوا بالسياسة في مصر، وعندما قرروا الاغتراب

داخل الوطن توقفوا عن العمل بالسياسة.

يحكي نحمياس عن دراسته للإعلام في إسرائيل، وتركه دراسة الصيدلة التي كان قد بدأها في مصر بعد ذلك في القسم العربي بالإذاعة الإسرائيلية، يقول نحمياس إن المقاهي الشعبية في معظم العواصم العربية كانت تستمع جهارًا إلى الإذاعة الإسرائيلية، وأنا أعتقد أن ذلك غير صحيح باعتباري شاهد عيان مهتم، وذلك على الأقل في مصر، وأن أكثر الإذاعات أهمية في تلك الفترة الإذاعة البريطانية وصوت العرب.

أعتقد أن شخصية نشيطة ومتحمسة ولديها طموح مثل نحمياس، لو كانت تعيش في أوائل القرن العشرين، ربما اشتركت مع سعد زغلول وأيدته دفاعًا عن مصر، لكنها جاءت في النصف الثاني من القرن العشرين، وفي ظل الظروف السياسية التي أوجدها إنشاء دولة إسرائيل ما كان من الممكن أن يلعب دور مهمًا في مصر بوصفه مواطنًا مصريًا، خاصة أنه كان شديد الشعور بيهوديته، حتى سن المراهقة.

يقول ألبير أوديز في كتابه (نهار مصري) المنشور بالفرنسية عام 2004 إنه في يوم الأحد من كل أسبوع في باريس يذكر طفولته في مصر، وتهيم روحه بهذا البلد، ويتذكر مساء كل

جمعة اجتماع الأسرة حول مائدة الطعام، ويقول ما زلت أذكر شتاء القاهرة الدافئ وشوارع الحي، ومحل نيكولاس الحلاق ولحمي الخردواتي، ومصطفى المكوجي، وما زلت أذكر رائحة البوظة مشروب البوابين الكحولي، فأنا ابن الظاهر، وولدت بالقرب من الميدان وغادرت مصر عندما كان عمري خمسة وعشرين عامًا، وفي عام 1935 أقيم احتفال البلوغلي (بارميتزفاه) يقول أوديز وما زلت أذكر شوارع القاهرة الخالية من السيارات، وكانت الكثيرات من بنات البلد يلبس الملاءة اللاف عند الخروج، ويذكر ردح هؤلاء السيدات (يا قعر الحلة يا إبرة مصدية يا حبل معدية..... إلخ).

ويقول إنه كان في منطقتهم ثلاثة معابد يهودية كرايم وحنان والمعبد الكبير، وبعد حفل البلوغ الديني تبدأ الصلاة يومياً في الصباح لمدة عام ثم توقفت، والتحق بمدرسة قطاوي باشا الابتدائية، ثم مدرسة الليسية الإسرائيلية التي أسسها البرجوازيون الفرنسيون عام 1860 لتعليم اليهود في أنحاء العالم، وكانت الليسية بالقرب من مدرسة ماري سوارس ونوتردام للبنات. ويقول أوديز "ما زلت أذكر الفتي الذي التحق بفصلنا عام 1934 وكان أسود اللون، وعرفنا أنه من اليهود

الفلاشا، في الحبشة وأصبح هذا الطفل يعقوب تاديس وزيراً للزراعة مع هيلاسلاسي، وهاجر إلى إسرائيل بعد سقوط الإمبراطور".

وقد صمم والد أوديز على نقله من مدرسة الليسيه إلى مدرسة الظاهر، لأنها تدرس بالعربية مع الفرنسية، وقال له: إذا أردت البقاء في هذا البلد لابد أن تجيد العربية، ويضيف: ولم نكن أغنياء، لكن أمي كانت شديدة التدبير، وكنا نذهب للتصييف في رأس البر، وفي شبابه انضم إلى كشافة جمعية المكابي بفضل جاره ريمون استمبوللي الذي قدمه لهم.

ويقول أوديز إنه في ثلاثينات القرن العشرين كان يذهب إلى السينما بصفة منتظمة، وكن معظم الأفلام أمريكيًا، والقليل منها فرنسيًا، ولم تكن أفلامًا جيدة، وكان الجمهور يشارك في التمثيل أثناء العرض، وعندما يقبل البطل البطلة يصيح الجمهور (سيب النعجة يا خروف) وعندما كان يطارد أحد البطل بسكين أو مسدس يصيح الجمهور (حاسب وراك) وعندما ينتصر البطل يصيح الجمهور: (ولا يا ولا).

ويتذكر أوديز رائحة الزهور والنباتات التي كانت تمنح القاهرة رائحة جميلة مميزة، ويقول: "في عام 1946 كنت على مقهى

في ميدان الخديو إسماعيل (التحرير الآن)، وقمت بتوصيل أوديت إلى منزلها قبل العاشرة حسب التقاليد، وعندما ذهبت إلى المنزل صاحت والدتي من البلكونة: سلم نفسك للبوليس، وظهر أبي في البلكونة وتوسل إلي أن أسلم نفسي للبوليس، ورأيت عم يوسف البواب وبجواره مخبر، وسأله عم يوسف، هوه؟ فقال له: (أيوه هوه)، وذهبت إلى قسم البوليس، لأجد اثنين من أصدقائي هناك، هما سيسانا وأصلان ومكثنا طوال الليل نتحدث، وفي اليوم التالي نقلونا إلى القسم الكبير في باب اللوق، وهناك قابلنا عشرات من زملائنا الذين تم القبض عليهم، وعلمنا هناك أن قنبلة وجدت مخبأة في سينما مترو، وكانت فرصة للحكومة للقبض على كل اليساريين، وبالطبع لم يكن لأحد منا علاقة بالإرهاب.

وقد تكرر الأمر بصورة كبيرة عام 1948 عند قيام إسرائيل، حيث قبض على الشيوعيين والصهاينة واليونانيين والمسلمين، الذين وضعوا في الهايكستب في القاهرة، وفي أبو قير في الإسكندرية.

وفي 15 مايو 1948 عند إعلان دولة إسرائيل حضر صديق إلى منزلي، وأخبرني بأن حالة الطوارئ قد أعلنت، لكننا لم

نعر الموضوع أهمية وكانت الدول العربية قد أعلنت أنها سوف تحكم دولة إسرائيل، ولم يكن لدينا خلفية سياسية، ولم يصبنا القلق أو الخوف، ولم نكن نعلم أن قيام إسرائيل سوف يغير حياتنا تغييرًا جذريًا، وبعد الإفراج عن أوديز في ديسمبر 1948 غادر مع زوجته أوديت ـ التي تحمل الجنسية الفرنسية ـ إلى مرسيليا، ليبدأ حياة جديدة، ماذا كان سيحدث لو لم يكن أوديز شيوعيًا؟ كان سيبقى في مصر بدون مشاكل حتى عام 1956، ثم يهاجر في فترة الخروج الكبير لليهود المصريين.

وبوصفي مصريًا أعتقد أنني كنت أحب وأرغب أن يكون في وطني مصريون من كل الأديان مسلمين وأقباطًا ويهودًا، ومن كل الأجناس والأصول، ما داموا يحبون هذا الوطن ويعملون من أجله، ويعدون أنفسهم مصريين يدافعون عن الوطن.

يقول الروائي إبراهيم عبد المجيد إن عدوان 1956 كان السبب في كراهية المصريين للإنجليز والفرنسيين واليهود، وأن الدولة لم تطرد اليهود، ولم تسجنهم باستثناء أعداد قليلة وجهت إليها تهم محددة، ورأيه أنه كان من الواجب الحفاظ على اليهود المصريين، وعدم تسهيل خروجهم، لأن ذلك أعطى قوى دفع لإسرائيل، وأساء إلى سمعة مصر.

ولقد كان وجود جالية يهودية مصرية وطنية خير دعاية لمصر في معركتها الضارية مع الصهيونية العالمية التي اتهمت ـ وما زالت تتهم ـ مصر بالعنصرية والعدوان، وكنت أتمنى ذلك، ولكن هل كل الأماني يمكن تحقيقها؟ بالطبع لا، إذن أين الخطأ؟ ولماذا حدث هذا؟ إن شعب مصر لم يكن يريد طرد اليهود من أرضها، ولا يعقل أن شعبًا استضاف اليهود المضطهدين المطرودين من بلاد كثيرة يفكر في لحظة واحدة في طردهم، إذًا لماذا في خمسة عشر عامًا ـ منذ 1945 حتى 1960 ـ حدث كل ذلك لليهود الذين عاشوا قرونًا في مصر؟

لماذا خرج اليهود من مصر؟

ما الذي حدث فجأة وجعل حياة اليهود في مصر غير ممكنة؟ أثبت التسلسل التاريخي الذي ذكرناه أنه حتى نهاية الثلاثينات لم تكن هناك مشكلة، بالرغم من أن الصهيونية بدأت نشاطها في إنشاء دولة إسرائيل منذ القرن التاسع عشر لكن ما حدث هو أن الصهيونية في فلسطين اتخذت إجراءات عنيفة أدت إلى طرد أعداد كبيرة من الفلسطينيين من بيوتهم وأراضيهم، وبدأ الشارع المصري يتعاطف مع الفلسطينيين، وربما كانت أحداث فلسطين هي التي غيرت توجه مسار الشارع من تيار

مصري وطني إلى تيار عربي قومي، ومما لا شك فيه أن أي إنسان على وجه الأرض يرى ما حدث للفلسطينيين، لابد أن يتعاطف معهم، حتى لأسباب إنسانية، وقد قام أغنياء اليهود المصريين في تلك الفترة بالضغط على أصدقائهم من الحكام المصريين لتهدئة الرأي العام، وحاولت مجموعة منهم الضغط على الجماعات الصهيونية في مصر للتوقف عن نشاطها، ولو كان اليهود المصريون يريدون فعلاً أن ينصهروا في بوتقة الشعب المصري لأعلنوا بوضوح أن ما يحدث في فلسطين عمل غير إنساني، وأنهم يتفقون مع الشعب المصري في تأييده للفلسطينيين، لكن ذلك لم يحدث، بل بالعكس عندما قويت شوكة الدولة اليهودية، حتى قبل إعلانها تحول بعض اليهود المصريين إلى الصهيونية وبدأت هجرة البعض إلى فلسطين.

وعندما قامت الثورة في يوليو 1952 كانت حريصة على طمأنة اليهود والحفاظ على ممتلكاتهم وأمنهم، وكانت هناك أقاويل عن احتمال قيام مباحثات بين عبد الناصر وإسرائيل، لكن الحكومة الإسرائيلية سرعان ما نظمت عملية سوزانا التي جندت فيها يهودًا مصريين، وأظهرت اليهود بمظهر الطابور الخامس في وطنهم، وردًا على إعدام اثنين من الإرهابيين

اليهود، قامت بالهجوم على غزة، وكل ذلك كان بغرض وضع إسفين بين مصر ويهودها، ثم كان العدوان الثلاثي الذي اشتركت فيه إسرائيل بدون سبب، وشارك ضمن جنودها اليهود المصريون الذين جندوا في إسرائيل.

وهناك عوامل أخرى أدت إلى إنهاء العلاقة بين اليهود المصريين ووطنهم، من أهم هذه العوامل ازدياد النفوذ الصهيوني العالمي، والذي أصبحت له سطوة كبيرة وقوة ضغط على اليهود المصريين لترك الوطن, وقوة ترغيب في حياة أفضل في إسرائيل أو غيرها، ومن الأسباب الأخرى التغيرات التي حدثت في مصر، إذ لم تعد الوطن الذي يعطي مميزات اقتصادية، فالتوجه الوطني كان ضد كل القوى الأجنبية أو المرتبطة بقوى أجنبية، وكان التوجه الاشتراكي واضحًا في أنه سوف يحرم اليهود من مميزات كثيرة، وهنا كان القرار قرارهم، مصر بلد جميل، وأهله طيبون، والحياة فيه ممتعة بشروطنا وبوضعنا المتميز، وفيما عدا ذلك لا تربطهم به إلا ذكريات جميلة وأرباح اقتصادية عظيمة.

اليهود المصريون من 1957 حتى نهاية الستينيات

يقول لاسكير إنه خرج من مصر بين عامي 1956، 1960

نحو 36 ألف يهودي، وبقي من 8-10 آلاف يهودي حتى نهاية الستينات، يقول لاسكير إن نظام عبد الناصر أراد إلغاء كل القيم والأفكار وطريقة الحياة، التي كانت تتميز بها الأقليات في مصر من مختلف الجنسيات والديانات، وكان إلغاء القضاء الشرعي والملي لمختلف الملل والأديان خطوة على هذا الطريق، وكانت الوحدة بين مصر وسوريا عام 1958 عاملاً في تغير قانون الجنسية وإعطاء حرية أكبر للعرب في الحصول على الجنسية المصرية ومنع الجنسية لمن يدين بالولاء للصهيونية، ورفضت الحكومة إعادة ممتلكات اليهود الذين تركوا البلاد، حتى الحاصلون منهم على الجنسية البريطانية أو الفرنسية، بالرغم من الاتفاقية الموقعة بين البلدين، أما اليهود الذين لم يغادروا مصر فقد أعيدت إليهم ممتلكاتهم عام 1957.

وحسب قول لاسكير فإن الحكومة المصرية والصحف حتى عام 1957 ـ وأثناء العدوان الثلاثي ـ فرقت بوضوح بين الصهيونية التي تمثل عداء لمصر، وبين اليهودية الدين السماوي الذي يحترمه الجميع، لكنه يقول إنه منذ عام 1958 زالت هذه التفرقة، وبالتالي أصبحت الدعاية الناصرية ضد

اليهود موجهة أيضًا ضد يهود الوطن، ويعتقد لاسكير أن قانون العمل أفقد الكثير من اليهود ـ حتى الحاصلون منهم على الجنسية المصرية ـ وظائفهم، وكذلك حدد إصدار تراخيص العمل للأجانب وفرص العمل لليهود غير المصريين، وهو الأمر الذي اعتقد أنه مطبق في العالم كله، ولا غبار إذا قرأت النصوص بعيون محايدة، ويقول لاسكير إن القانون ألزم العاملين الأجانب باستخراج بطاقة عمل مدون فيها الديانة مما قلل فرص العمل لليهود، وأعتقد ـ ويعتقد معي الكثيرون من المصريين ـ أن كتابة الديانة في أي نوع من البطاقات الشخصية أو بطاقات العمل شيء غير حضاري، ولا لزوم ولا فائدة منه، وأنه يسبب أضرارًا نفسية كبيرة للأقليات، وها هم اليهود قد خرجوا، وما زال هذا القانون مستمرًا، مما يعني أنه لم يكن موجهًا ضد اليهود، وإنما هو قانون سببه ضيق الأفق وقصر نظر الحكام، ولا يراعي نفسية الشعب ولا حقوقه الأساسية، ويدعي لاسكير أن سجل المصدرين والمستوردين ووكلاء الشركات الأجنبية أتاح الفرصة للمصريين والأجانب، وتعنت مع اليهود، سواء كانوا مصريين أو أجانب.

وأخيرًا هناك قوانين التأميم التي يقول لاسكير إنها طالت اليهود بعنف، لكن الحقيقة أنها طالت الجميع، وكان المصريون مثل الأجانب تمامًا، فقد كان هذا هو مشروع الدولة الناصرية نحو الاشتراكية ونحو ملكية الدولة لجميع موارد الإنتاج الصناعي الزراعي، والتحكم الكامل للدولة في الاستيراد والتصدير، ولا يمكن القول إن هذا القانون ـ الذي سلب القطاع الخاص في مصر كل أمواله ومصانعه وشركاته ـ ضد اليهود، فمن الواضح أن هذه كانت سياسة دولة طبقت على الجميع.

يقول لاسكير إن نحو 13 ألف يهودي مصري نقلتهم الوكالة اليهودية العالمية إلى إسرائيل، و5 آلاف استقروا في فرنسا، ونحو ألفين في أمريكا الجنوبية، وألف في هولندا والباقي في الولايات المتحدة، وساعدت الحكومات الأوربية والأمم المتحدة في نقلهم ومساعدتهم بوصفهم لاجئين.

وكانت فرنسا أكثر الدول المساعدة واستقبالاً لليهود، وقد نجحت المفاوضات بين الحكومتين الإنجليزية والفرنسية من جانب، والمصرية من جانب آخر في إعطاء بعض التعويضات، وكذلك السماح بجمع بعض المتعلقات

والممتلكات المنقولة، وقد قامت الوكالة الدولية لليهود بالصرف على ترحيل اليهود وتسكينهم في البرازيل والأرجنتين وفنزويلا.

ويبدو أنه بعد موجة الهجرة الأولى إلى إسرائيل وأمريكا الجنوبية كان المكان المفضل لليهود المهاجرين أوروبا، وبالذات فرنسا. ومن الغريب ـ كما يقول لاسكير ـ أن مصر وتونس كانتا الدولتين الوحيدتين اللتين سمحتا بهجرة اليهود من بلادهم إلى الخارج.

وفي مقابلة بين حاخام الإسكندرية مع الوكالة اليهودية ـ أثناء توجهه إلى الأرجنتين ـ قال إن أحوال اليهود (في ذلك الوقت عام 1958) جيدة، وإن الكثيرين منهم لا يرغبون في الهجرة، ولا يشعرون بأن الحياة في الخارج سوف تكون أحسن.

وكل هذه الحكايات من لاسكير تشير بوضوح إلى أنه طوال الوقت لم تكن هناك ضغوط شعبية على اليهود من جيرانهم من المسلمين والأقباط، وأن المشاكل كانت أساسًا اقتصادية خاصة بوضع البعض تحت الحراسة أو تأميم ممتلكاتهم، لذا يجب أن نأخذ في الاعتبار أن هذا الأمر كان سياسة الدولة،

وقد بدأت ضد الأجانب، ثم بعد وقت قصير للغاية طالت المصريين الذين أخذت ممتلكاتهم أيضًا، ولم يعان اليهود في مصر من الاضطهاد الذي لا يمكن مقارنته بما حدث لليهود في أوروبا. نعم هناك فترة قصيرة من عمر مصر ـ لظروف سياسة وحربية وأمنية خاصة للغاية ـ جمع فيها بعض اليهود في معتقلات لفترات كانت غالبًا قصيرة، لكن في الوقت نفسه أعتقل الآلاف من المصريين المسلمين والأقباط لفترات أطول بكثير، ونالوا من التعذيب وسوء المعاملة ما هو أكبر بكثير، بل ولا يمكن مقارنته بما حدث لليهود.

صحيح أيضًا أن بعض ممتلكات اليهود وضعت تحت الحراسة وأممت، لكن الصحيح ـ أيضًا ـ ممتلكات أعداد أكبر بكثير جدًا من بقية المصريين قد صودرت وأممت في فترة زمنية قريبة من وقت تأميم الممتلكات اليهودية، وهو يعني أن الأمر سياسة دولة أساسًا، وهنا أعود إلى كلمة اضطهاد persecution بمعناها المعروف في أوروبا وحين يتكلم أحد عن اضطهاد اليهود في مصر يجب أن يعرف أن هذه الكلمة مرتبطة بأشياء معينة حدثت في أوروبا، وأنه لا

مثيل لذلك حدث لليهود في مصر، وأن التمييز وسوء المعاملة ووضع الأموال تحت الحراسة لم يختص به النظام اليهود فقط، بل خص كل الأجانب والأغنياء المصريين مسلمين وأقباطًا.

أحوال اليهود بين عامي 1959، 1967

حسب تقدير لجنة تقصي الحقائق الدولية فقد أفاد بأن يهود القاهرة كان معظمهم من السفارديم، برئاسة المحامي ألبير رومانو، على حين كان الأشكيناز يشكلون أقلية برئاسة المحامي جوزيف وينشتين وكان الحي اليهودي قد هجره الكثير من سكانه، وأغلق المستشفى الإسرائيلي، على حين ظل بيت العجائز اليهود مفتوحًا، وكذلك المركز الاجتماعي لليهود، وكان اليهود الأشكيناز الذين يقطنون أحياء وسط المدينة قد بقى منهم نحو 160 عائلة فقط، وكان هناك بعض الأغنياء من كلا الفصيلين يسكنون الأحياء الراقية، وكانت هجرة القيادات الغنية من جماعة السفارديم سببًا في تدهور أحوال الجالية، وكان يرأس الجانب الديني الحاخام حاييم ناحوم أفندي الذي كان قد قارب التسعين من عمره وضعفت صحته، وكان الموقف أفضل في الإسكندرية تحت قيادة

موريس مزراحي.

وكان سلفاتور ورينيه شيكوريل قد غادرا مصر عام 1957 بعد أن باعا متاجرهما الكبرى للسيدة قوت القلوب الدمرداشية، وعادا لفترة قصيرة عام 1958 لبيع بقية ممتلكاتهما، وباع جاتنيو متجره الفاخر للتاجر السوري عبد القادر الحراكي، وتوفي الحاخام ناحوم أفندي بعد تاريخ حافل عام 1960 وخلفه الحاخام حاييم دويق من الإسكندرية.

وفي ذلك الوقت كانت وزارة الشئون الاجتماعية قد ضيقت الخناق على كل الجمعيات الأهلية في مصر، ومنها الجمعيات اليهودية، وهو الشيء الذي لم يكن موجهًا ضد اليهود، وإنما ضد نشاط المجتمع المدني بصفة عامة، والحقيقة أن القوانين المكبلة للعمل العام في المجتمع المدني ما زالت موجودة في مصر، وتحكم النشاط الأهلي كله، واستمرت بعد ذلك هجرة اليهود بدرجة أقل، وفي عام 1961 بقى في مصر 7 آلاف يهودي في القاهرة والإسكندرية، منهم ألفان من طائفة القرائين، 500 أشكينازي، واستمرت الهجرة منذ عام 1962 بدرجة أقل، حيث هاجر 2100 حتى عام 1963 واستمرت الهجرة بمعدل مائة شخص في الشهر، وحتى عام 1961

ترددت كثير من العائلات اليهودية في بيع ممتلكاتها في مصر، لأنه كان لديها أمل في عودة الحالة الطبيعية، لكن بعد ذلك التاريخ تيقنت الجالية أنه لا مستقبل لليهود في مصر.

واستمر رومان رئيسًا للجالية اليهودية، لكن بعد هجرة مساعده جروينبرج إلى كندا لاقى صعوبات مع أعضاء المجلس الذين اتهموه بعدم تنفيذ قرارات المجلس، واتهموه بسرقة أموال المعونات التي تصل إلى الجالية من الخارج، وحدثت أيضًا خلافات بين اليهود الأشكيناز والسفارديم، وكانت العائلات التي هاجرت في الستينات هي العائلات التي لديها أبناء تخرجوا في المدارس الثانوية ولم ترغب العائلات في إدخال أبنائها الجامعات المصرية، وفضلت العائلات التي لديها أطفال صغار الانتظار في مصر مدة أطول، يقول لاسكير إنه في تلك الفترة لم تكن هناك فرصة لليهود أو المسيحيين من أصول أجنبية في الحصول على أي مناصب، وكانت الفرص المتاحة للمسلمين والأقباط فقط، وبعد حرب 1967 تبقى في مصر 2500 يهودي انخفضوا إلى ألف في نهاية عام 1968.

وخلال الفترات الأولى التي تلت الحرب قبض على نحو

أربعمائة يهودي من الرجال لعدة أسابيع، وأفرج عنهم تدريجيًا، وترك الكثيرون منهم مصر خلال أشهر قليلة ويشكو لاسكير من المعاملة داخل سجن طرة التي لم تكن جيده ويقول أنه كان هناك جهاز تليفزيون واحد لكل السجناء اليهود، ويبدو أن لاسكير لا يعرف ـ أو يتناسى ـ وضع السجون في مصر ففي الوقت نفسه كان هناك الألوف من السجناء السياسيين المصريين من اليساريين والإخوان المسلمين وبعض السياسيين القدامى، وقد لاقوا أشد العذاب وأسوأ معاملة مقارنة بهم، كان المساجين اليهود يعيشون كأنهم في فندق خمس نجوم، وبعد خروج اليهود من المعتقل احتضنتهم القنصلية الفرنسية وأعطتهم وثيقة سفر مؤقتة للسفر إلى الخارج، وقد أثار سجن بعض اليهود في مصر موجة احتجاجات في أوروبا وأمريكا. وقد خرجت آخر مجموعة من السجناء اليهود، وعددهم ثمانون، واشترط عليهم أن يوقعوا على وثيقة تخل عن الجنسية المصرية، ووافقوا ما عدا اثنى عشر رفضوا التخلي عن الجنسية المصرية، وفي سبتمبر 1970 تبقى 300 يهودي في مصر من أصل 80 ألفًا عام 1948.

يقول لاسكير إن استقلال دول الشرق الأوسط ـ الذي بدأ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ـ أدى إلى ظهور قوى وطنية لديها شعور عدائي نحو الأقليات، الذين كثيرًا ما ساندوا المستعمر أثناء فترة حكمه، ويقول إن هذا الشعور لا يشمل اليهود فقط، وإنما يشمل أيضًا الأرمن واليونانيين والإيطاليين وغيرهم، وقد ساعد على ذلك تنامي الروح الوطنية التي التفت حول حلم الوحدة العربية.

هجرة طائفة القرائين من مصر

كتب بنيين دراسة ممتازة وموثقة عن اليهود القرائين المصريين، وتقول إحصائيات الوكالة اليهودية إنه كان يقطن القدس عام 1948 يهودي واحد من طائفة القرائين، بقى ليحافظ ويرعى أملاك الطائفة، وبعد عام 1948 هاجرت أعداد قليلة من القرائين إلى إسرائيل من فقراء اليهود، على حين بقى رجال الأعمال والحرفيون في مصر، ولم يكن لدى أهل الطائفة الرغبة في ترك حياة المدينة والهجرة لإصلاح الأرض وزراعتها في المستعمرات، وكانوا واعين بالصعوبات الاقتصادية في إسرائيل في أوائل الخمسينات، وحسب إحصائيات بيت الدين (مقر القرائين في القاهرة) فإن

أقل من مائة يهودي من الطائفة غادروا مصر قبل عام 1956، لكن موريس شماس الذي هاجر في الخمسينات يقدر العدد بنحو خمسمائة.

ومنذ هجرتهم إلى إسرائيل تم توطينهم في مدينة الرملة لكنهم فوجئوا بالاعتراض عليهم بحجة أنهم ليسوا يهودًا، بل وصدر قرار بمنع هجرة القرائين إلى إسرائيل، وأدى ذلك إلى موجة من الغضب في الدوائر الصهيونية في مصر، التي أوقفت الهجرة إلى إسرائيل حتى تم إلغاء القرار، ومرت فترة في إسرائيل إلى أن عد القرائون يهودًا يمكنهم أداء الخدمة العسكرية، وقد أدى ذلك إلى موقف غريب من طائفة يهودية موجودة في مصر، لها تاريخ عريق، وتعامل من الجميع بوصفها طائفة يهودية لها حاخام خاص، وعندما هاجر أفرادها إلى أرض الميعاد كان ينظر إليهم على أنهم ليسوا يهودًا، وعندما حاول يوسف مرزوق أخو موسى مرزوق الذي أعدم في مصر بعد اشتراكه في عملية سوزانا الزواج، رفضت السلطات الدينية زواجه من يهودية ربانية، بدعوى أنه ليس يهوديًا، وأثار الأمر جدلاً انتهى بتحويل الأمر إلى حاخامية يافا، وهي الأكثر ليبرالية، وقد وافقت على الزواج،

على أن يكون حالة فردية لا تمثل عرفًا في المستقبل لبقية أفراد طائفة القرائين.

ولم يشجع حاخام القرائين أعضاء الطائفة على الهجرة إلى إسرائيل، ورأى أنهم آمنون في مصر ومندمجون في المجتمع، وكان يعلم المشاكل التي سوف تصادفهم في إسرائيل، وقد كان تأثيره قويًا، لأن معظم اليهود القرائين لم يغادروا مصر حتى حرب 1956، عندما غادر أربعون بالمائة منهم، واتجه معظمهم إلى إسرائيل، وعندما غادر مراد القدسي مصر عام 1959 كان ألفان من الطائفة ما زالوا في مصر، وقد طالت قوانين التأمين المصرية اليهود وأغلقت المدارس الابتدائية للطائفة، مما اضطر أفرادها إلى الهجرة إلى الخارج، وفي عام 1970 كان قد بقى منهم نحو مائتين فقط، وقد هاجر في أوائل الخمسينات والستينات أعداد من اليهود القرائين إلى الولايات المتحدة واستقر معظمهم في منطقة سان فرنسيسكو، وانتشرت مجموعات صغيرة في بقية الولايات المتحدة.

وحسب قول بنيين فإن أفراد المجموعة في سان فرنسيسكو جاهدوا في إحياء الطائفة بتقاليدها المصرية، ويحكى بنيين

قصة يعقوب فرج صالح المولود عام 1913، وهو عميد طائفة القرائين في سان فرنسيسكو، وكانت عائلته قد هاجرت إلى مصر من تونس في منتصف القرن التاسع عشر، وكان أول دفعته في كلية الهندسة عام 1936، والتقطت له صورة مع الملك فؤاد بهذه المناسبة، وقام بتصميم ملاجئ للحماية من الغارات الجوية على الإسكندرية أثناء الحرب العالمية، وشارك المصري المسلم يحيى نسيم في مكتب هندسي ناجح، واشترك في تصميم مبان ومشروعات كثيرة في مصر، وكان يسكن في منزل فاخر في ضاحية مصر الجديدة، وكانت زوجته نيللي نشيطة في نادي هليوبوليس، وكانت تنظم دروسًا رياضية للسيدات، وكان ضمن مجموعتها حرم عبد اللطيف البغدادي عضو مجلس قيادة الثورة، وكان أيضًا عضوًا نشطًا في الحركة الماسونية المصرية، وكانت ابنتهما نادية عضوًا في فريق مصر القومي للبالية المائي، ومثلت مصر في بطولة دولية أقيمت في دمشق عام 1961، وكانت نادية الصديقة الحميمة لشهدان الشاذلي بنت سعد الدين الشاذلي، الذي أصبح فيما بعد رئيس أركان حرب الجيش المصري، وبعد أن هاجرت شهدان إلى كاليفورنيا، تجددت

العلاقة التي استمرت حتى الآن بين نادية صالح اليهودية المصرية وشهدان الشاذلي بنت أحد أبطال حرب أكتوبر من المصريين، وعندما طُلب من يعقوب عدم الذهاب إلى نادي هليوبوليس عام 1962، قرر الهجرة ورفض الذهاب إلى إسرائيل، وانتهى به المطاف في كاليفورنيا، وكانت عائلته تشعر دائمًا بأنها مصرية، وقد أحبت مصر وغادرتها مضطرة.

ومثال آخر تحدث عنه بنيين، هو هنري مراد المولود عام 1945، والذي التحق بالمدارس الإسرائيلية الفرنسية، وكان يسكن في منطقة الظاهر، ويجيد العربية كأهلها، وجده كان يملك شركة ناجحة للمصوغات والمجوهرات، لكنه وضع تحت الحراسة عام 1956، وأممت ممتلكاته عام 1961، واضطر إلى أن يغادر مصر عام 1964، ومازال يذكر بمرارة سوء المعاملة أثناء مغادرته مصر، وكذلك يذكر المعاملة السيئة له في كلية الهندسة بوصفه يهوديا، ويقول إنه شعر بالفخر للعمل (البطولي) الذي قام به اليهودي موسى مرزوق في عملية سوزانا، والذي أعدم بسببها، لكنه مازال يذكر مصر الدولة الأم أما زوجته درية المولودة أنها عام

1948 فكانت تقطن الزمالك، التحقت بمدرسة الليسيه، ورفضت تعلم العربية التي رأت، أنها لغة غير مهمة لها، وقد غادرت عائلتها مصر عام 1962 وكان عمرها وقتذاك أربعة عشر عامًا، ورفضت أن تذكر أي انتماء إلى مصر.

وأعتقد أن المقارنة بين هاتين العائلتين اليهوديتين مهم، فالأجيال القديمة مثل عائلة يعقوب صالح عاشت في مصر حياة رائعة، واندمجت في المجتمع بوصفها عائلة مصرية لم تشعر بأي فرق مع بقية المصريين، بل بالعكس كان مستواها الاجتماعي أعلى من مستوى الشعب المصري، ولم تكن المشكلة الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي قد ظهرا على السطح، لذا عاشت عائلة يعقوب صالح حياتها في مصر بدون مشاكل وظهرت بعض المشاكل البسيطة في فترة بعد حرب 1956، ولأن طائفة القرائين كانت تعد مصرية، فإن أوضاعهم لم تتأثر كثيرًا بعد 1948 والدليل على ذلك أن ابنتهما مثلت مصر دوليًا عام 1961 وأصبح وضع أفراد العائلة صعبًا فقط بعد القرارات الاقتصادية عام 1961، بعد أن تم عزلهم عن المجتمع المصري، لذا لا تحمل هذه العائلات ضغينة لمصر، وتذكر أيامها الحلوة فيها، برغم

مرارة النهاية. ولابد أن نذكر أن هناك عائلات مصرية مسلمة وقبطية تم أيضا عزلها عن المجتمع ومنع دخولها النوادي في تلك الفترة.

أما عائلة مراد، فالأمر فيها مختلف، فمراد من مواليد 1945، وهو ما يعني أنه كان تلميذًا في المدرسة إبان حرب 1956 حين هاجمت إسرائيل الأراضي المصرية، وكان طالبًا في الجامعة في الستينات في عصر الثورة القومية العربية التي أشعلها عبد الناصر، وكانت أكبر عدو لإسرائيل والصهيونية العالمية، وطال بذلك بطريقة أو أخرى الديانة اليهودية، لذا لم يشعر مراد أبدًا بالانتماء إلى مصر، بل كان يشعر بالخوف من زملائه المصريين، ووصل الأمر به إلى مصر أنه شعر بالفخر لأنه يهوديًا مصريًا ـ لا يعرفه ـ فجر القنابل في مؤسسات مصرية وأجنبية داخل مصر، ليحرج شعبها وحكومتها، ولم يعش فرح أيام الأخوة والمساواة بين اليهود وبقية المصريين، أما زوجته فبالرغم من انتمائها إلى طائفة القرائين، إلا أنها كانت خواجاية لم تعرف اللغة ولا الناس، وغادرت مصر في سن المراهقة.

وبعد الهجرة كانت أعداد أفراد الطائفة قليلة، وعاشت تحت

ضغوط الاندماج في المجتمع الأمريكي ككل، والجالية اليهودية التي لا تعرف شيئًا عن مذهب اليهود القرائين، وقد صادفت القرائين متاعب الحياة والعمل، فلم يلتفتوا إلى تنظيم أحوالهم لعدة سنوات، حتى استقر بهم الحال وبدءوا في تنظيم مجتمعهم، وكان جوزيف بساح وزوجته ريموند أنشط أفراد الطائفة، وقد نشأ الاثنان في حارة اليهود القرائين ودرس جوزيف الهندسة في جامعة القاهرة، وكان يشعر بالفخر كلما رأى موسى مرزوق في المعبد اليهودي، وذلك لوضعه الاجتماعي المتميز بوصفه طبيبًا، وبعد القبض على مرزوق في قضية سوزانا الشهيرة بتهمة الجاسوسية شعر جوزيف بأنه أيضًا يريد أن يكون جاسوسًا، كما صرح بذلك لبنيين، وقد شعر بالحزن الشديد عند إعدام مرزوق.

وفي حقيقة الأمر فإن هذا الشعور غريب، فمهما كان الأمر فقد عاش ـ جوزيف كما عاش آباؤه في مصر ـ بدون مشاكل حقيقية، ضمن أقلية يهودية، وتعلموا في مصر ودرسوا في جامعتها، صحيح أن الظروف السياسية والضغوط الصهيونية حولت مشاعر بعض اليهود لصالح الصهيونية وأرض الميعاد، إلا أن الإحساس بالرغبة في أن

تكون جاسوسًا ضد البلد الذي ولدت وعشت فيه، يعد شعورًا خطيرًا وغريبًا، خاصة أن تلك الحادثة كانت عام 1954 حين كانت مشاكل اليهود المصريين ما زالت محددة للغاية، ولم يكن الشعور القومي المصري قد تأجج ضد الصهيونية كما حدث بعد 1956 وظهور عبد الناصر بوصفه بطلاً قوميًا، وفي ذلك الوقت كانت جريدة (الكليم) نصف الأسبوعية ما زالت تصدر بلسان حال طائفة القرائين التي ينتمي إليها جوزيف، ومن الغريب أن يصرح جوزيف بأنه يريد أن يصبح جاسوسًا يعمل ضد مصر، وكان عمره يومئذ لم يتعد التسع سنوات، لأنه ولد عام 1945، إلا إذا كانت بقية العائلة والأصدقاء قد شربوه وغذوه بهذه الكراهية لوطنه، ويبدو أن هذا المثال من اليهود القرائين نادر، لأن تصرف معظم أبناء هذه الطائفة كان ـ وما زال ـ مختلفًا تجاه الوطن الأم، يقول جوزيف إن القرائين يعاملون أبناءهم كالمجوهرات الثمينة، وقد احتجز في الحبس الاحتياطي بعد حرب 1967 وفي عام 1970 هاجر إلى الولايات المتحدة، وحاولت الجالية التجمع، لكن المجتمع الأمريكي بقوته استطاع أن يدمج داخله الجيل الثاني من القرائين الذين تزوج

الكثيرون منهم مسيحيين أمريكيين، وانصهروا في المجتمع الأمريكي الكبير.

وبالرغم من ذلك أنشأت الطائفة فرعًا لها في سان فرنسيسكو، وأعلان ذلك رسميًا عام 1983 ثم مجلة تحمل أخبار الجالية من القرائين وبعض تاريخهم، وأنشأوا معسكرًا للأطفال والشباب في كل صيف لمدة أسبوعين، للمحافظة على التقاليد والثقافة الخاصة بهم، وحيث إن قوانين المذهب لا تسمح بالزواج من غير القرائينن ولا تسمح أيضًا بتحول اليهود الربانيين إلى قرائيين، فقد أصبح احتمال الزواج بين أبناء الطائفة ضعيفًا، وأدى ذلك إلى الزواج من خارج الطائفة.

ولقد بدأ داود ليشع مشروعًا كبيرًا عام 1993 يتمثل في رسم شجرة عائلة لكل طائفة القرائين من القاهرة، حتى تعرف الأجيال المختلفة علاقتها وأصلها، وكذلك ساهم الجميع في تكاليف مجلة (اليهود القراءون المصريون) التي كان يصدرها مراد القدسي حتى توفي عام 1986، وحاولت الطائفة أن تحتفظ بعلاقتها مع إسرائيل، وكذلك مع مصر، وأن تشجع الأبناء على سماع الموسيقى المصرية، التي هي

جزء مهم من تراثهم، وما زال الكثيرون من كبار السن يحافظون على قراءة الصحف المصرية. ويعتقد بنيين أن طائفة القرائين تحمل الشخصية المصرية بطابعها وثقافتها ـ ولا تريد في معظم الأحيان ـ أن تخفيها، بالرغم من أن النظرة الأمريكية والإسرائيلية لكل ما هو عربي نظرة سلبية.

الخروج من مصر

حكاية عائلة يهودية سكندرية

لقد كان الانتهاء من بناء مكتبة الإسكندرية وافتتاحها حافزًا لكثير من الكتاب والمفكرين للكتابة عن القلعة العلمية والثقافية العظيمة التي تمركزت في مكتبة الإسكندرية القديمة، وتناولت الكتابات أيضًا مدينة الإسكندرية ذات الطابع الكوزموبوليتاني في نهاية القرن التاسع عشر، حتى العقد السادس من القرن العشرين.

ومما لا شك فيه أن النوستالجيا لعبت دورًا مهمًا عند الكتابة عن تاريخ الإسكندرية الحديث. فالأجيال التي تعدى عمرها الستين عامًا تتذكر الإسكندرية النظيفة الجملية الهادئة المليئة بالمطاعم والكازينوهات والمقاهي، وكانت المدينة مرتعًا

للفنون التشكيلية الرائعة المستوى، وكل من يتذكر رواية لورنس داريل "رباعية الإسكندرية" يعيش الحياة السكندرية في مطلع القرن العشرين، ومن يقرأ ترجمات نعيم عطية الراقية لأعمال كفافيس يحس بتأثير الإسكندرية الشعري الساحر، ومن المؤكد أن بعض المعاصرين يتذكرون ليالي الإسكندرية الساحرة والعشاء البسيط في تافرنا في وسط المدينة، ولم يكن أحد من المصريين سعيدًا بتدهور أحوال الإسكندرية خلال أربعين عامًا، حتى إن العقل الباطن للكثيرين منا جعلهم يبدون أسفهم على الهجرة الجماعية للأجانب التي حدثت خلال عقدين من الزمان، وكنت شخصيًا أود أن تحتفظ الإسكندرية بطابع خاص لها، كما تحتفظ أسوان والواحات بطابع خاص، وفي كتاب أندريه أسيمان (الخروج من مصر) يحكي المؤلف قصة حياة العائلة اليهودية التي عاشت في الإسكندرية أكثر من خمسين عامًا في القرن العشرين، وهاجرت ـ بعد ذلك ـ إلى الخارج، والكاتب بقلم أحد أفراد الجيل الرابع لهذه العائلة، ولقد خرجت بعد قراءة الكتاب بانطباع بأن الكاتب صريح وصادق، ويحكي تاريخ الأسرة ببساطة ودقة، وربما يكون

من أسباب ذلك أن الكاتب كان شاهد عيان على كثير من الأحداث، وأنه قابل بعض أفراد العائلة من كبار السن الباقين على قيد الحياة، وجلس معهم للتوثيق والتأكد من معلوماته، وأن معظم ـ إن لم يكن كل ـ أفراد العائلة الذين ذكرهم الكاتب كانوا قد غادروا الحياة عند نشر الكتاب، مما لا يضعه في موقف حرج مع شخصيات معاصرة يمكن أن تقرأ الكتاب، ولم يحاول أن يجمل وجه العائلة في مصر، بل ذكر كل مشاعرها الحقيقية الجيدة والسيئة تجاه مصر والمصريين.

والكاتب ولد في الإسكندرية، وعاش فيها طفولته وشبابه، إلى أن غادرها عام 1964 وقد درس في جامعة هارفارد العريقة بالولايات المتحدة، وهو يقوم حاليًا بتدريس آداب اللغة الفرنسية في جامعة برينستون.

ترجع أصول العائلة اليهودية منذ مئات السنين إلى أسبانيا حين طرد اليهود منها عام 1492 ميلادية، وهاجرت الأسرة إلى تركيا، وعاشت في إستانبول، وفي القرن التاسع عشر حاول أفراد العائلة ـ مثل كثير من اليهود الأتراك ـ البحث عن جنسية أوروبية أثناء إقامتهم في تركيا، وذلك إلى جانب

جنسيتهم التركية التي حملوها أجيالاً. ونجح الكثيرون في ادعائهم أن أجدادهم القدامى الأسبان هاجروا إلى ميناء ليفورنو الصغير في إيطاليا بجوار بيزا، حيث عاشوا هناك، لذلك فهم يستحقون الجنسية الإيطالية، وبالفعل حصل عليها الكثيرون من أفراد هذه العائلة، ودخل بعضهم المدارس الإيطالية في إستانبول لتعلم الإيطالية، وبقى الكثيرون من الذين يحملون الجنسية الإيطالية لا يعرفون حرفًا من هذه اللغة.

وقد بدأت هذه العائلة في التفكير في الهجرة من تركيا عندما أحست بأفول نجم الإمبراطورية العثمانية، وكان الحافز الأكبر لاختيار بلد للمهجر هو الصداقة الوثيقة التي ربطت بين أحد أفراد العائلة المدعو إيزاك (إسحاق) والأمير أحمد فؤاد ابن الخديو إسماعيل، الذي أصبح سلطانًا ثم ملكًا بعد ذلك، وقد بدأت هذه الصداقة في إحدى الجامعات الإيطالية، حيث تزاملا معًا في السنة الدراسية نفسها، وهاجرت الأسرة بأبنائها الثلاثة: نسيم وإيزاك وأرون (المسمى فيلي) وبناتها الأربع إلى الإسكندرية عام 1905 بعد أن باعت ممتلكاتها في إستانبول (وهي ليست بالكثيرة) واستوطنت الإسكندرية،

وعاشت فيها لأكثر من نصف قرن، حتى غادرها آخر فرع في العائلة، ومنهم مؤلف الكتاب عام 1964، وقد توارثت العائلة لغة اللادينو.

كان الابن الأصغر للعائلة المسمى فيلي شخصية غريبة الأطوار متعددة المواهب والقدرات، تمثل الشخصية اليهودية أصدق تمثيل، فبعد أن تعلم الإيطالية والفرنسية إلى جانب التركية واللادينو، جند في الجيش التركي وحارب في صفوفه، ثم انضم إلى الجيش الألماني، وشارك في الحرب العالمية الأولى تحت العلم الألماني، وبالطبع أتقن اللغة الألمانية، وعندما دخلت إيطاليا الحرب العالمية الأولى مع الحلفاء، انتقل إلى الجانب الآخر، وحارب في صفوف الجيش الإيطالي ضد الألمان، وهرب من الجيش بعد الهزيمة المفجعة للإيطاليين، وذهب ليعمل في جزر البحر الأبيض المتوسط، ثم لحق بالعائلة التي هاجرت إلى الإسكندرية، وفيها افتتح صالة للمزادات تبيع التحف والأنتيكات، وفي الثلاثينات ومع ظهور الفاشية، كان من أكبر مؤيدي موسيليني من الجالية الإيطالية في الإسكندرية، حتى أن موسوليني أهداه موسوعة موقعة منه شخصيًا بيعت بعد ذلك

لإحدى المكتبات قبل مغادرة العائلة مصر نهائيًا، وكان يرسل خطابات تحية وتشجيع لهتلر، وطلبته المخابرات الإيطالية ليكون عميلاً لها وقبل أن يوافق على ذلك ذهب إلى المخابرات البريطانية في الإسكندرية وعرض عليهم الأمر فانضم رسميًا كجاسوس للتاج البريطاني عام 1936، على أن يقبل العمل ظاهريًا مع الإيطاليين، وتنقل بين روما والقاهرة وأثيوبيا التي كان موسوليني قد غزاها ليتجسس على الإيطاليين، لصالح الإنجليز، وكانت المخابرات الإيطالية تصدر له كميات هائلة من التحف والأثاث الإيطالي القديم من روما إلى صالة المزادات في الإسكندرية بمبالغ رمزية حتى يكون هناك مبرر لسفره المتكرر إلى روما أمام عيون الإنجليز، وكان فيلي يتباهى بأن أخاه إيزاك وبالتالي هو شخصيًا يضع الملك فؤاد ثم الملك فاروق في جيب الصديري الصغير، وقد ساعد الملك في تعيين فيلي عضوًا في مجالس الإدارة لعدد كبير من الشركات الكبرى في مصر بمرتبات مرتفعة، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كافأته الحكومة الإنجليزية بمنحه الجنسية البريطانية، ولم تكن علاقة فيلي جيدة بالحركة الصهيونية في مصر، فقد اتهمه رجالها بأنه

يتجسس لصالح الإنجليز ضدهم في الفترة التي سبقت قيام دولة إسرائيل، بل وحاولوا الاعتداء عليه.

وبعد قيام دولة إسرائيل أحس فيلي بقلب الجاسوس وعقله، أنه يجب أن يعد العدة في وقت ما للرحيل من مصر، وتأكد هذا الإحساس بعد قيام الثورة عام 1952، فبدأ يهرب أمواله الضخمة إلى الخارج، وباع بالتدريج كل ممتلكاته، ما عدا فيلا قديمة مليئة ببعض الأثاث الذي لا يساوي شيئًا، ويبدو أن فيلي كان يرأس منظمة للتهريب، وربما للجاسوسية ضد مصر، وفي عام 1955 نظمت الأسرة حفلاً ضخمًا استمر ثلاثة أيام لمئات المدعوين، احتفالاً بعيد الميلاد المئوي للجدة الكبرى رأس العائلة التي هاجرت عام 1905 إلى مصر، وكان عمرها آنذاك خمسة وأربعين عامًا، وبلغت ـ الآن ـ مائة عام، وهي بصحة جيدة وذاكرتها قوية، وفي مساء اليوم الثالث والأخير لحفل عيد الميلاد ألقى ابنها الأكبر نسيم كلمة لتكريم أمه، وتأكد من أن مائة شمعة قد أضيئت في أنحاء المنزل، وألقت الجدة كلمة تحية، بدأتها بالتركية التي كانت قد نسيتها، وحاولت التكملة بالإيطالية الركيكة، لكنها غيرت إلى الفرنسية التي تجيدها، ولم يكن هناك شيء بلغة اللادينو، لأن

أقل القليل من الحضور يعرفها، وفجأة دخل أحد أصدقاء الإخوة، وهو يلهث قادمًا من الخارج، وطلب مقابلة فيلي على انفراد، وأخبره بأن أحد أعضاء الخلية التي ينتمي إليها فيلي قد قبض عليه، وضبطت معه ورقة بها بضعة أسماء منها فيلي وبعض المعلومات الأخرى، منها أرقام الحسابات في سويسرا، ونادى فيلي بقية الإخوة، وأخبرهم بأنه سوف يغادر مصر نهائيًا وفورًا، وطلب أن تستمر الحفلة بطريقة عادية حتى لا يلاحظ أحد شيئًا، وقد رفض السفر هاربًا على ظهر سفينة تجارية يونانية تغادر الميناء بعد بضع ساعات، وأخذ حقيبة من المنزل فيها بعض الملابس القديمة، وانطلق مع السائق إلى مطار القاهرة، وقبل أن يتم التبليغ بالقبض عليه ببضع ساعات كان قد غادر القاهرة، ومن عجائب القدر أن تستدعي الحكومة المصرية فيلي بعد أربع سنوات خبيرًا أجنبيًا لبيع مقتنيات العائلة المالكة في المزاد العلني.

ذهب فيلي حامل الجنسية الإيطالية إلى إنجلترا، وغير اسمه إلى اسم إنجليزي قح، وغير ديانته إلى المسيحية، واشترى ضيعة في الريف الإنجليزي، ليتقاعد فيها دون أن يعلم أو أن يحس أحد بأنه أجنبي، أو أن له تاريخًا تشيب له الرؤوس.

وعندما ذهب مؤلف الكتاب لزيارة خاله فيلي، حين كان في الثمانين من عمره في ضيعته بإنجلترا، حيث يعيش مع أولاده وأحفاده، رفض الحديث عن الإسكندرية، وعندما ذكر أمامه بعض أسماء الأصدقاء والأقارب، قال: إن هذا التاريخ زبالة، والمهم هو الحاضر، أليس المنظر رائعًا هنا في الريف الإنجليزي؟ وبعد قضاء يومين في ضيافته عرف بالمصادفة من أحفاد فيلي أنه كان من عادته قبل أن ينام أن يغلق الحجرة على نفسه، بحيث لا يعرف أحد أنه يستمع لنشرة الأخبار بالفرنسية لمدة ساعة كاملة من محطة راديو إسرائيل.

وقد قام كل المهاجرين الجدد إلى مصر من العائلة بعمل مشروع مختلف، بدءًا من افتتاح صالة بلياردو إلى صالة مزادات إلى محل لبيع وإصلاح الدراجات، وتكبر العائلة في الحجم والثروة ويزداد عددها، وتسكن في الإبراهيمية بالإسكندرية وسبورتنج، ثم تنتقل إلى سموحة، وكان لهم بيت في المندرة ينتقلون إليه كل صيف، وكانوا في بحبوحة من العيش، ولديهم الخدم والطباخون والسفرجية والسائق.

واستمرت العائلة تعيش حياة سعيدة، بالرغم من القلق الشديد

الذي راودهم في فترة معركة العلمين، وخوفهم من انتصار الألمان، وهو ما كان يعني هروبهم من مصر واحتمال القبض عليهم.

وكانت تلك الفترة من الفترات العصيبة في حياة يهود الإسكندرية، وقد حددت الحكومة البريطانية إقامة الرعايا الإيطاليين والألمان، خوفًا من أن يكونوا طابورًا خامسًا لجيش روميل، ولكن هذه العائلة التي كان أفرادها يحملون جوازات سفر إيطالية لم تمس من قريب ولا من بعيد، لأنهم يهود أولاً وثانيًا لأن فيلي يعمل جاسوسًا للإنجليز، وقبل معركة العلمين ترك الجميع منازلهم، وهبوا إلى الجدة الكبرى في منزلها الذي رفع منه الأثاث، وفرشت المراتب على أرض البيت، لينام الجميع رجالاً ونساءً وأطفالاً كل يوم، حتى انتهت المعركة بهزيمة روميل، فعاد كل إلى بيته حتى قيام دولة إسرائيل، في ذلك الوقت عندما شعرت الأسرة مرة أخرى بالخوف من الشعور العدائي المتوقع من المصريين تجاه اليهود، ذهبوا مرة أخرى إلى الجدة الكبرى، ففرشت المراتب ونامت العائلة جميعها على الأرض حتى هدأت النفوس، وعاد الجميع مرة أخرى إلى منازلهم.

أما الأخ إيزاك فكان الصديق الشخصي للملك فؤاد، ومن بعده الملك فاروق، وقد وصلت درجة الصداقة إلى حد أن إيزاك أخبر الملك فؤاد بأن أخته قاربت على سن الأربعين ولم تتزوج بعد، فساعده الملك بترتيب زواج أخته من يهودي يقيم في مصر، يسمى ألدوخون ويعرفه العامة باسم خون باشا.

ولفرط ثقة الملك فؤاد وحبه للسيد إيزاك عينه في منصب مدير عام وزارة المالية، وساعد إيزاك فيلي في الوصول إلى مناصبه الكثيرة، وساعد في تعيين أعداد كبيرة من أفراد العائلة - شبابًا وشيوخًا - في مناصب إدارية كبرى في الشركات والبنوك بمرتبات كبيرة مغرية، وقد بلغت مساعدات الملك لإيزاك حدًا غير معقول، عندما تدخل لمساعدة أحد أقارب العائلة في الهروب من ألمانيا، وأعطاه جوازي سفر دبلوماسيين مصريين له ولزوجته، أما الأخ نسيم فلم يكن له دور واضح، باستثناء حبه للهدوء والقراءة ولعب الجولف بصفة دائمة، أما البنات فقد تزوجن من يهود من ذوي أصول غربية في الإسكندرية، وهناك يهودي عربي كان قادمًا من حلب، تزوج إحدى الأخوات، وكان الوحيد من

غير اليهود الأوروبيين الذي دخل هذه العائلة، وقد نظر إليه الإخوة جميعًا نظرة متعالية فيها بعض الاحتقار.

عدوان 1956

يحتل العدوان الثلاثي على مصر ـ الذي اشتركت فيه إنجلترا وفرنسا وإسرائيل ـ جزءًا مهمًا في تاريخ هذه العائلة، لأنه كان حدًا فاصلاً في علاقتهم بالحكومة المصرية، التي بدأ يشوبها بعض القلق بعد عام 1952، وتطورت العلاقة تدريجيًا حتى وصلت إلى قمة الأحداث أثناء عدوان 1956 حين ظهر بوضوح إلى أي جانب يقفون، واتخذت الحكومة المصرية موقفًا شديد الحزم والحذر منهم. ومن ناحية أخرى كان لاشتراك إسرائيل في العدوان الثلاثي أثر حاسم في إثارة الشعور الشعبي ضد اليهود، خاصة بعد ما ظهر من تصرفاتهم أثناء العدوان.

وهناك الكثير من الأحداث التي كان الكاتب فيها شاهد عيان أثناء فترة حرب 1956، وتدل على عدم تعاطف وانتماء هذه العائلة ومثيلاتها إلى مصر، فعند حدوث أول غارة جوية على الإسكندرية، كان الكاتب صبيًا مع أمه في وسط المدينة، وبعد أن أطفئت الأنوار دخلا إلى محل بقالة يملكه أجنبي،

وأقفل الباب على مجموعة من الزبائن كلهم من الأجانب، فسمع الصبي في الظلام أصواتًا تقول: سوف يتم سحقهم في يوم أو اثنين، وسوف يلقن الإنجليز المصريين درسًا يستحقونه لقيامهم بتأميم القناة، وسوف تعود الأمور كما كانت، وأيده آخر بلكنة أجنبية قائلاً: إن شاء ا ، وبعد أن وصلت الأم بعد معاناة إلى منزل العائلة مع ابنها في الظلام وجدت هذه العائلة مكتملة، وقد فرشت المراتب على الأرض للمرة الثالثة خلال خمسة عشر عامًا، حتى ينام جميع الإخوة والأبناء مع أسرهم، ولم تلتزم العائلة بإطفاء الأنوار بالكامل، وبدءوا يسمعون صياحًا في الشارع: أطفئ الأنوار، وصعد أحد البوابين إلى شقتهم قائلاً: أطفئوا النور تمامًا، هل تريدون أن يضربونا بالقنابل، وإذا لم تطفئون الأنوار سوف أبلغ البوليس بأنكم جواسيس.

وأثناء الظلام الدامس قال الأخ الأكبر نسيم الذي كان عمره أكثر من ثمانين عامًا: دعنا ننتظر حتى تنتهي الحرب، وسوف يرى هؤلاء المتوحشون جزاء ما فعلوا، لقد تحملنا هذه الأفكار والشعارات الوطنية أكثر مما ينبغي، ورد عليه أخوه إيزاك، وكان عمره ثمانين عامًا: هل يعرف هؤلاء

الذين يزعقون لنا: أطفئ الأنوار من نحن؟ لقد كان في استطاعتي معاقبتهم بالجلد بالكرابيج والسجن يومًا ما (وذلك في إشارة إلى علاقته القوية بالملك السابق) وصاح أحد الصغار: آه لو كان الملك موجودًا، وصاحت الأخت مارتا التي تعدت السبعين: نحن في حاجة إلى موسى جديد، أعني بذلك موسى مودرن، ورجلنا الذي يصلح أن يكون موسى هو فيلي الذي غادرنا العام الماضي إلى إنجلترا ليعيش بقية عمره.

ثم سأل أحدهم كم من الوقت يكفي لسحق الجيش المصري؟ وأجاب آخر يومان أو ثلاثة، وسوف يستقر الأمر خلال بضعة أسابيع كما كان تمامًا.

وأخذت العائلة كلها تحاول التقاط إحدى الموجات القصيرة للإذعات الأجنبية التي أعلنت احتلال بورسعيد، وهنا ارتفعت صيحات الفرحة والتهليل من جميع أفراد العائلة، ووقفت الأختان الكبريان ترقصان من الفرح على ضوء شمعة واحدة، وصاح نسيم: لو كان فيلي معنا لكان قد فتح زجاجة شمبانيا، وعندئذ وقف إيزاك صائحًا بلغة اللادينو: توقفوا الآن وكفى، إن بيتنا ملئ بالخدم العرب، ونحن لا نعرف

مشاعرهم الحقيقية تجاه ما يحدث، وتجاه شعورنا الظاهر بالفرح.

وفي صباح اليوم التالي لبدء الحرب غادر نسيم المنزل إلى نادي سبورتنج للعب الجولف كعادته كل يوم، وأرسل إيزاك أحد الخدم ليشتري جميع الصحف والمجلات بجميع اللغات، وبدأت العائلة الكبيرة تعد إفطارها الذي وصفه أحدهم بأنه أفخم من إفطار أعظم فندق في العالم، وعلى مائدة الطعام سألت الجدة أحد أفراد الجيل الثالث: ماذا تريد أن تعمل عندما تكبر؟ فقال: أصبح سفيرًا، فسأله العم: ما البلد الذي سوف تمثله؟ فكانت الإجابة: فرنسا مثلاً، فقال له: لكنك لست فرنسيًا، بل تحمل جواز سفر إيطاليًا، لكنك في الحقيقة لست إيطاليًا وإنما تركي، وبما أن الجميع كانوا يتحدثون عن تركيا الدولة التي احتضنتهم عدة قرون باحتقار شديد، فقد أعلن الشاب أنه لا يريد أن يكون سفيرًا لتركيا، وأنه سوف ينسى هذه الفكرة، وبعد الإفطار خرج إيزاك ومعه الشاب الصغير مؤلف الكتاب المقابلة أكبر وأهم سمسار يهودي في البورصة المصرية، وقد كان السمسار الأساسي للأجانب والأغنياء المصريين، وكان يسكن فيلا كبيرة قريبة من بولكي وكان

الغرض من الزيارة تقصي الأخبار تحسبًا للمستقبل، وكان رأي السمسار أن الإنجليز والفرنسيين سوف ينسحبون من مصر، وأن جمال عبد الناصر لن يغفر ذلك، وسيكون هناك ثأر من الإنجليز والفرنسيين، وربما يلي ذلك تأميم ممتلكاتهم، ثم طرد اليهود انتقامًا من هجوم إسرائيل، فاعترض إيزاك قائلاً: لكننا لسنا من إسرائيل، فقال له السمسار: يمكنك أن تقول ذلك للرئيس عبد الناصر، فعلق إيزاك: هذه الأيام من أيام هجوم روميل على العلمين، وقال إيزاك للسمسار: إذا حدث لي شيء تذكر اسم كراوس في جنيف، وأخي فيلي يعرف في إنجلترا، فأمسك السمسار علبة سجائر ليكتب عليها الاسم فحذره إيزاك ونبهه إلى أن هذه المعلومة لابد من أن تبقى في الذاكرة فقط، وفي اليوم التالي ظهر البوليس في شقتهم ليسأل عن شخص كان يرسل إشارات مورس إلى السفن في البحر المتوسط لكنه تركهم دون أن يفعل شيئًا.

وقررت الجدة أن العائلة تحتاج إلى حظ أحسن، فأمرت بوضع منقد الفحم الكبير على الأرض، وبعد أن أشعلته وضعت عليه البخور، وكان على الجميع أن يقفز فوق المنقد الذي يتصاعد منه البخور، بدءًا بالرجال ثم النساء ثم الخدم.

وعاد رجال البوليس مرة أخرى في يوم آخر، وقالوا إن لديهم دليلاً قاطعًا على أن إيزاك يهرب الأموال والمجوهرات إلى الخارج وأن أخاه فيلي كان يقوم بذلك لسنوات طوال، وقبض عليه البوليس بتهمة خيانة الدولة، فقال: إن عمري ثمانون عامًا، وحاولت أخته أن تقول للشرطة إنه لا يمكن القبض عليه، لأنه مواطن لدولة أوروبية، وقال أخوه نسيم: لو سجنتموه لن يعيش يومًا واحدًا، وبعد أسبوع من القبض عليه وصلهم تلغراف من إيزاك من فرنسا يخبرهم فيه بوصوله إليها آمنًا سالمًا.

وبدأت العائلة مناقشة الهجرة من مصر والتخطيط لها، وهو ما تحقق على أرض الواقع لجميع أفراد العائلة ما عدا والد المؤلف، الذي كان يملك مصنعًا للنسيج يدر أرباحًا هائلة، وكان يود أن يبقى مع عائلته في الإسكندرية، وفعلاً بقى فيها ثماني سنوات حتى غادرها عام 1964، وخلال تلك الأعوام تغيرت الإسكندرية، وتغيرت الحياة في مصر، وأممت كلية فيكتوريا التي كان الصبي يدرس فيها، وتحولت إلى كلية النصر أصبح تدريس اللغة العربية إجباريًا فيها، وأصبح هو اليهودي الوحيد في الفصل، وكان عليه أن يحفظ أجزاء من

القرآن ضمن دروس اللغة العربية، وأن يحفظ الأناشيد التي تمجد العرب وتحقر من إسرائيل، وبالطبع لا يقارن هذا بما يدرسه الآلاف من التلاميذ العرب في إسرائيل عن تاريخ إسرائيل وأمجادها، وتحقير كل ما له علاقة بالعرب، وكان أبوه مصرًا على أن يستمر في المدرسة، لأنه إذا أراد أن يعيش في مصر في ذلك العصر، فلابد أن يجيد لغتها، وقد لاقى الصبي كثيرًا من العنت في تلك الفترة، تارة من المدرسين وتارة أخرى من الزملاء حتى رضخ أبوه، ونقله إلى المدرسة الأمريكية، التي لم تكن اللغة العربية إجبارية فيها، واضطر أبوه إلى أن يغادر مصر نهائيًا بعد أن أممت أملاكه بعد ذلك.

ويذكر الكاتب أنه أثناء زيارته إلى المقابر اليهودية بالإسكندرية في يوم كيبور، وكانوا يخططون لترك مصر، قال أبوه إنه لمن المحزن أن نترك أحباءنا في قبورهم يتقلبون، على حين نخطط نحن للمغادرة، ولعلهم يسألوننا لماذا جئنا في المقام الأول ونحن نكره البلد التي دفنونا فيه؟

وأعتقد أن الكاتب كان أمينًا في رواية الأحداث الحقيقية التي مرت بعائلته، وحاول جمع المعلومات ومقابلة الأحياء

لاستكمال الأحداث، ولم يحاول أن يجمل الشخصية اليهودية، بل أظهر بوضوح أن الجميع لم يحب مصرنا ولا شعبنا، وإنما أحب إسكندريتهم وبحرها وجمالها، والكتاب يعطي انطباعًا واضحًا بأن مصر كان فيها دولتان، إحداهما للمصريين والأخرى للأجانب، ومن خلال صفحات هذا الكتاب التي قاربت الثلاثمائة، وتغطي أكثر من 50 عامًا من تاريخ مصر في القرن العشرين، لم نقرأ عن حدث واحد مثل ثورة 1919 أو مظاهرات 1935 أو التغيرات السياسية المتلاحقة، ولم يذكر اسم زعيم أو وزير مصري واحد، ولا أي كاتب أو أديب أو فنان مصري، ولا حتى راقصة مصرية، فالكتاب مليء بأسماء وشخصيات كلها أجنبية، أما الأسماء المصرية الكثيرة، فهي فقط أسماء الخدم بأنواعهم كافة، وكانت اللغة العربية عديمة الأهمية لهم، فلم يهتم أحد بتعلمها أو قراءة آدابها خلال خمسين عامًا، إلا في الجيل الرابع عندما بدأ بعض الاهتمام بتعليم اللغة، وقد قالت الجدة في كلمتها احتفالاً بعيد ميلادها المئوي إنها تعرف خمسين كلمة عربية،بمعدل كلمة عن كل سنة أقامتها في مصر، وبالرغم من أن هذه العائلة بعد الخروج من مصر لم تذهب

إلى إسرائيل، إلا أن زعيمهم العم فيلي المقيم في إنجلترا كان يستمع كل ليلة لمدة ساعة كاملة إلى نشرة الأخبار بالفرنسية من محطة إسرائيل، وكان العم إيزاك يتعلم العبرية الدارجة، وهو في الثمانين من عمره، لأنه كان يتمنى أن يموت في إسرائيل، ولا يمكن الاعتقاد بأن معاناة تلميذ يهودي واحد ـ بسبب دراسته تاريخ الشرق الأوسط من وجهة النظر المصرية التي تدين إسرائيل ـ يسبب الكوارث التي سببتها إسرائيل لمصر والمنطقة من حولها، فهي مختلفة عن معاناة آلاف التلاميذ الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية، عندما يقرءون التاريخ الذي يمجد إسرائيل ولا يعترف بأي حقوق للعرب.

ويوضح الكتاب أن معظم الأجانب واليهود الذين هاجروا إلى الإسكندرية كانوا فقراء في أوروبا، وبعد فترة وجيزة من هجرتهم إلى مصر أصبحوا يعيشون حياة رغدة، ومنهم من ربح أموالاً طائلة، ولم يشعر أي منهم ـ باستثناء بعض اليونانيين ـ أن هذا الوطن يمكن أن يكون وطنهم الدائم، وأن يندمجوا فيه ويتعلموا لغته، وحقيقة الأمر أنه عندما أممت ممتلكات الأجانب اليهود، كان ذلك جزءًا من سلسلة تأميمات

سياسية للدولة، طالت كل الأغنياء المصريين أيضًا في قطاعات الصناعة والتجارة والزراعة، وعندما هاجرت العائلة إلى أوروبا مرة أخرى، واستوطن معظمهم في فرنسا أصبحت حياتهم بسيطة في شقق صغيرة بدون الخدم والحشم والطباخين والسائقين.

الصحافة اليهودية في مصر

أنشأ اليهود في مصر خلال نحو ستة عقود أكثر من خمسين صحيفة بلغات متعددة، واهتموا بإنشاء الصحف الفرنسية، حيث كانت هي لغة التخاطب والدراسة لأغنياء اليهود، وكذلك الطبقة البرجوازية، بل وحتى صغار الموظفين من اليهود، وكانت الفرنسية ـ أيضًا ـ لغة التخاطب بين الجاليات الأجنبية في مصر.

وتعتقد سهام نصار صاحبة الدراسة المستفيضة عن الصحافة اليهودية في مصر، أن السبب الرئيسي في إصدار الصحف بالفرنسية، هو الرغبة في ألا يقرأها أو يفهمها المصريون الذين لا يعرفون الفرنسية، وبالتالي لا تثير دعاياتهم وكتاباتهم مشاعر المصريين.

وقد تأخر صدور الصحف الصهيونية في مصر من نهاية

القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين، بسبب معارضة زعماء اليهود المصريين، وبالذات قطاوي باشا، خوفًا على وضع اليهود في مصر، واحتمال الخلاف بينهم وبين المصريين، بالإضافة إلى أن زعماء اليهود ـ وجميع اليهود السفارديم ـ في تلك الفترة لم يكونوا يؤمنون بالصهيونية، ولم يرغبوا في تشجيع صحف تروج للصهيونية.

واستطاعت الجالية اليهودية في مصر بقيادة السفارديم منع إصدار الصحف، لكن تحت الضغوط الصهيونية العالمية، تغير موقف زعماء السفارديم فسمحوا بصدور الصحف لكن معظمهم أبعد نفسه عنها، وفي البداية صدرت الصحف بالفرنسية واللادينو والعبرية، وأيضًا بالعربية، لكنها جميعًا عاشت فترات قصيرة،وكان يحررها الأشكيناز القادمون من أوروبا حديثًا إلى مصر والمتشبعون بالفكرة الصهيونية.

وكانت الصحف الفرنسية المتعددة التي ظهرت في العقدين الأولين من القرن العشرين واضحة في تبنيها فكرة الصهيونية، وأهمية إنشاء وطن قومي في فلسطين، وكانت تنادي بجمع التبرعات للمستوطنات في فلسطين.

وكان ليون كاسترو تلميذًا لهرتزل وماكس نوردو المفكر الألماني الصهيوني، وقد اختلف كاسترو مع المنظمة الصهيونية العالمية، واستقال منها ومن الصحيفة التي كان يكتب فيها باللغة الفرنسية، وأصدر جريدة الليبرتيه (الحرية) بالفرنسية، وكانت صحيفة ذات ميول وفدية.

وقد صدرت صحيفة (إسرائيل) عام 1920 بالعربية والعبرية والفرنسية، وكان صاحبها ألبرت موصيري إلا أن سهام نصار تعتقد أنها كانت ملك الطائفة اليهودية المصرية، على الأقل في الأربع سنوات الأولى، وقد كتب ألبرت موصيري نقلاً عن قريبه قطاوي باشا أنه التقى بتيودور هرتزل في مصر عام 1903، وتركه بعد أن عرف الهدف من زيارته، وقاطعه قطاوي قائلاً: دكتور هرتزل لا تكمل الحديث، أخشى أن تقنعني بأفكارك وفصاحتك، لكني لا أستطيع أن أدخل في أحضان الصهيونية، لأنني تلقيت تعليمات بألا أشترك في النشاط الصهيوني، لأنها قد تكون وبالاً على الجالية التي أرأسها، ويبدو أن بعض اليهود المصريين هاجموا صحيفة (إسرائيل) وقاطعوها بسبب سياستها الصهيونية.

وكان لجريدة (إسرائيل) طبعتان، إحداهما بالفرنسية والأخرى

بالعربية، وكانت كل منهما تكتب بطريقة مختلفة، فقد كانت الفرنسية تتكلم بصراحة عن الصهيونية والوطن القومي اليهودي في فلسطين، لأن قراءها كانوا من اليهود والأجانب، أما (إسرائيل) الناطقة بالعربية فقد كانت حذرة في سياسته الصهيونية، وحذرة جدًا في الحديث عن الوطن القومي في فلسطين، وبعد وفاة موصيري تولت زوجته الجريدة لمدة ست سنوات، ولاقت نجاحًا وتطورًا في عهدها.

حققت سهام نصار علاقة كاسترو بسعد زغلول والوفد واليسار، وهي حكاية معقدة، فمن المعروف أن بعض الشخصيات اليهودية انضمت إلى الوفد قبل ثورة 1919 وبعدها، ومن هذه الشخصيات محام وصحفي معروف تواتر أنه كان عضوًا في الوفد المصري، وكان الناطق باسم سعد زغلول في مفاوضاته في لندن، وكان صهيونيًا ويساريًا في نفس الوقت، وأيضًا من مؤيدي الوفد ضد الإنجليز ومطالبًا لمصر بالاستقلال، فاختلفت الآراء بين من قال مثل مصطفى أمين إن علاقته بسعد زغلول كانت سطحية، ومن قال مثل علي شلش ـ إنه لم يكن سكرتيره، وإنما كان يسند إليه سعد زغلول أعمال الترجمة وبعض المهام الخارجية، وهناك من

رأوا أنه كان عضوًا مهمًا في الوفد المصري.

قامت سهام نصار بمراجعة شاملة ودقيقة، مع التعليق على الصحف اليهودية في مصر.

وكتبت عواطف عبد الرحمن عن الصحف العربية وعلاقتها باليهود والصهيونية وإنشاء الوطن القومي في فلسطين، وأثبتت أن من الصحف المصرية (المقطم) التي كانت تعطي الفرصة كاملة لليهود، وحتى الصهاينة منهم، لإبداء وجهات نظرهم في الشئون التي تخص الصهيونية والوطن القومي اليهودي.

وهاجمت الكاتبة جريدة المصري ووصفتها بأنها سلبية فالبرغم من أنها كانت تعطي مساحة للفكر الصهيوني، إلا أنها لم تؤيد الحق الفلسطيني، أما جريدة (السياسة) لمحمد حسين هيكل فكانت متعاطفة مع الصهيونية، وتدعو إلى تكوين لجنة عربية لحل النزاع بما يرضي اليهود، عمومًا كانت هذه وجهة النظر التي تبناها المثقفون المصريون في أحزاب المعارضة والاتجاه اليميني، وكانت صحيفة (الاتحاد) تشجع الهجرة اليهودية إلى فلسطين لرفع مستوى فلسطين اقتصاديًا، وهو ما يدل على قصر النظر، أما (الأهرام)

فكانت معتدلة كالعادة، إذ لم تؤيد الصهيونية، ولكنها لم تبد حماسًا لتأييد الفلسطينيين، أما الصحف التي كانت واضحة في معاداتها للصهيونية فهي: البلاغ، وكوكب الشرق، والمصري ذات الاتجاه الوفدي، والصرخة، ومصر الفتاة، وصوت الأمة، وكانت كلها معادية بوضوح للصهيونية.

وقد نشرت الدكتورة سهام نصار دراستها عن موقف الصحافة المصرية من قضية الصهيونية وفلسطين 1897-1917 وتقول فيها إن الأهرام كانت جريدة مستقلة يرسم سياسة التحرير فيها عائلة تقلا ومعهم خليل جبران وداود بركات، وكلهم من الشوام، وتقول إن هناك مقالة واحدة في موضوع فلسطين كتبها بشارة تقلا على إثر زيارة إلى فلسطين في 18 أكتوبر 1897 لم يتعرض فيها للمسألة الصهيونية، وإن أشار إلى تعاظم هجرة اليهود إلى القدس، حتى أصبحوا يمثلون السواد الأعظم من سكانها، وأنه لو لم تقف الدولة العثمانية في وجوههم لاستولوا على بقية القدس، لكن الأهرام نشرت ما أرسلته وكالات الأنباء عن النشاط الصهيوني في أوروبا وفلسطين. وكانت أهم المقالات هي التي أرسلها مراسل الأهرام في إستانبول إبراهيم سليم نجار،

الذي شرح موقف الدولة العثمانية من النشاط الصهيوني، وزار فلسطين في زيارة طويلة، وزار كل المستعمرات اليهودية، وأجرى أحاديث مع سكانها، وأرسل وثائق وأرقامًا عن الوضع، وأشار إلى أن سوريا ومصر لا تدريان شيئًا عن الواقع في فلسطين.

أما (المقطم) لصاحبها فارس نمر فكانت علاقتها ممتازة مع الإنجليز، وكان فارس نمر صديقًا للسلطان حسين والملك فؤاد والأمير محمد علي، كما كان من شركاء نمر: شاهين مكاريوس ويعقوب صروف من زعماء المحفل الماسوني، وكانت لهم علاقة واسعة مع اليهود في مصر، وقد سمحت (المقطم) بنشر رسائل تؤيد وجهة النظر الصهيونية، وأخرى تؤيد وجهة النظر العربية، أما صحيفة المؤيد لصاحبها علي يوسف، وصحيفة (اللواء) التي رأس تحريرها مصطفى كامل، وكذلك جريدة الأهالي، فكانت تنشر أخبارًا ومقالات قليلة للغاية عن مشكلة فلسطين، إذ كان اهتمامها الأساسي الاستقلال عن الإنجليز.

وقد نشرت مقالات مرسلة من القراء تؤيد الفلسطينيين ومقالات أخرى أكثر مؤيدة للصهاينة، ويرجع ذلك إلى

النشاط الصهيوني الكبير في الرد على أي مقالة تظهر وجهة النظر العربية، وكان من كبار المدافعين عن الحق الفلسطيني شكيب أرسلان ورفيق العظم، وكان من كبار المؤيدين لوجهة النظر الصهيونية سليم قبعين الكاتب الفلسطيني من الناصرة، والدكتور شبلي شميل، وكان من الكتاب اليهود الذين دافعوا كثيرًا عن الصهيونية الكاتب التونسي الأصل المقيم في مصر نسيم ملول، وجاك ليفي طنطاوي.

وتلاحظ سهام نصار أن (الأهرام) عام 1897 لم تذكر شيئًا ـ ولا حتى خبرًا ـ عن المؤتمر الصهيوني الأول في بازل، لكن أنطون الجميل كتب مقالاً عن المؤتمر الثاني عام 1898 وقال إن الصهاينة يمكن أن يتخذوا إلى غرضهم إحدى طرق ثلاث، هي الشراء كما هم طالبون، والقهر وهم عنه عاجزون، والاستيلاء الأدبي يليه الفعلي كما هم صانعون، ويقصد بذلك أنه عندما زار القدس يوم السبت كانت خاوية، فقال إن هذا هو الاستيلاء الأدبي.

وفي الفترة التالية كانت كتابات الأهرام واضحة ضد الصهيونية، وفي الفترة بين عامي 1905 ـ 1908 كتبت (الأهرام) صراحة أن غرض الصهيونية إنشاء دولة إسرائيل

المستقلة في فلسطين، ومنذ عام 1909 ظهر الصوت الصهيوني في كتابات (الأهرام) للدعاية للصهيونية والرد على المقالات التي تؤيد وجهة النظر العربية، وقد استطاع اليهود النفوذ إلى الصحف المصرية، والكتابة لتأييد حق اليهود التاريخي في فلسطين وإنشاء دولة إسرائيل، وتحدثت بعض المقالات عن المساعدات اليهودية للإمبراطورية العثمانية، وأن اليهود سوف يساعدونها على منع العرب من الانفصال عنها، لكن (الأهرام) و(المقطم) و (المؤيد) نشرت ردودًا كثيرة للدفاع عن الفلسطينيين، وشرح مدى الضرر الذي يحدث للفلسطينيين اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا، ويبدو واضحًا أن الصحافة المصرية نشرت بوضوح ما يحدث في فلسطين، وتنبأت بما سوف يحدث منذ العقد الأول من القرن العشرين، وفي عامي 1913، 1914 نشرت (الأهرام) ثم المقطم مشروعات للصلح والتفاهم بين الفلسطينيين واليهود، لكن اليهود راوغوا، خاصة أنه في ذلك الوقت كانت الحكومة في الأستانة قد أصبحت موالية للصهاينة، كما كان حزب اللامركزية العربي مؤيدًا للصهيونية، ولم تصل تلك المفاوضات إلى شيء، وقد نشرت الصحف المصرية وعد

بلفور والضجة التي صاحبته في لندن والعالم، لكنها لم تعلق عليه ولم تستطلع آراء الفلسطينيين والعرب فيه.

اليهود المصريون داخل إسرائيل

عاش اليهود المصريون في إسرائيل منذ عام 1950 حتى عام 1960 في حالة عزلة وإهمال شديدين من مؤسسي الدولة من اليهود الأشكيناز، الذين قادوا الحركة الصهيونية وكونوا حزبي المبام والماباي اللذين اتحدا في مرحلة تالية لتكوين حزب العمل الإسرائيلي، ولم يكن لليهود المصريين أي تاريخ ذي قيمة أو أهمية في إنشاء الحركة الصهيونية، لذا لم يشاركوا في هذه الأحزاب العمالية، وكان اليهود الأشكيناز يتندرون على المصريين بأنهم بدائيون، وكانت الوظائف الموكلة إليهم كلها في الطبقة العاملة السفلى التي حلت محل العمال الفلسطينيين الذين تم طردهم من يافا وعكا، وبالرغم من المجهود الكبير الذي قام به المصريون، إلا أن دورهم كان دائمًا هامشيًا من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وكان هذا الدور الهامشي لليهود العرب من الأسباب المهمة لأول نجاح لليكود في انتخابات 1977، وقد جاهدت حكومة الليكود في تنظيم أنصارها في

المجتمع من اليهود العرب، وبدأت الكتابة المكثفة عن دور يهود الشرق الأوسط، خاصة المصريين، في إحياء إسرائيل، وتم تخفيف الحديث المحوري والمستمر عن الأشكيناز الذين كانوا قبل ذلك كل شيء في إسرائيل.

وكان اليهود المصريون مختلفين عن بقية اليهود العرب الذين هاجروا إلى إسرائيل وذلك لأنهم لم يكونوا مجموعة ذات تقاليد وأفكار وخلفية ثقافية واحدة، فاليهود القراءون كانوا يمثلون أولاد البلد من المصريين في لغتهم ولهجتهم وطريقة حياتهم، أما اليهود السفارديم فكانوا من مختلف الطبقات ومستويات التعليم المتفاوتة، وكان أغلبهم يجيد على الأقل الفرنسية، وفي أحيان كثيرة أكثر من لغة أجنبية، بالإضافة إلى العربية، وقد كان اختلاف أفكارهم وثقافتهم وخلفيتهم سببًا في عدم ظهور قومية مصرية يهودية تجمعهم في إسرائيل، كما حدث مع بعض الجنسيات التي هاجرت إليها.

يقول بنيين إن راشيل مكابي ـ وهي يهودية مصرية من الإسكندرية ـ كان قد سبق لأمها أن انضمت إلى الحركة الصهيونية عام 1904، وهاجرت إلى فلسطين عام 1935 واشتركت في عصابة الهاجاناة، ثم الجيش الإسرائيلي بعد

ذلك، وكانت أمها أصلاً من بغداد ثم هاجرت إلى الهند، أما أبوها فهو مصري كان يعمل مع قطاوي باشا، وكتاب راشيل مكابي يقطر احتقارًا وكراهية للمصريين ولغتهم، ولم تحاول حتى أن تتعلم العامية، ولم تعجبها القاهرة التي كان يعمل فيها أبوها مع المصريين، وفضلت الحياة في الإسكندرية، وكانت تكره مصر وشعبها، ولا تشعر بأي حنان نحوها.

وهذا المثال معاكس لكتابة كهانون التي اعترفت بعلاقتها الوثيقة بمصر وكذلك تعاطفت مع الشعور القومي المصري، وحيث إنها لم تستطع أن تشارك في الحركة الوطنية المصرية، فقد شاركت مع بعض الشبان في إنشاء عيادة في حارة اليهود، إلا أن الحاخام أغلق العيادة، واتهمهم بتشجيع منع الحمل، قالت إن الإحباط الذي تلا منعها من الاشتراك في الحركة الوطنية المصرية والخدمة اليهودية أجبرها على مغادرة مصر عام 1940، وقالت في كتابها: أحب مصر، لكنني لم استطع أن أكون جزءًا منها، وبعد أربعة عشر عامًا في فرنسا هاجرت إلى إسرائيل، كما يقول بنيين.

وقبل زيارة السادات لإسرائيل لم يكن يجرؤ أي مصري على أن يذكر شيئًا إيجابيًا عن مصر وعن حياته فيها وبعد تلك

الزيارة تكلم وكتب الكثيرون من اليهود المصريين في إسرائيل عن نواح إيجابية في حياتهم السابقة في مصر.

حياة اليهود في إسرائيل بعد معاهدة السلام

كانت أولى المحاولات التي تبحث عن موقف بطولي لليهود المصريين في إسرائيل ما كتبه كوهين تزيدون عما حدث للبطلين ـ كما يدعي ـ عزرا وموصى مرزوق اللذين أدينا في عملية التفجيرات في القاهرة والإسكندرية، وقد كتب مقالاً في جريدة (الجيش الإسرائيلي) يحكي عن العذاب والسجن والاضطهاد الذي لاقاه اليهود المصريون في مصر، ويحاول أن يعقد مقارنة بين ذلك وما حدث في ألمانيا النازية، ويقول إن جمال عبد الناصر أقام هولوكوست لليهود المصريين، وبالطبع فإن هذا الكلام هراء، فمن المعروف في جميع المراجع المحايدة ـ والكثير منها يهودية ـ أن هذه المقارنة غير صحيحة وأن هذا النوع من الكتابات فيه أكاذيب ومبالغات كثيرة، وكما يقول الباحث اليهودي المدقق بنيين فإن بعضًا من اليهود لاقوا عنتًا بعد عام 1948، لكن الأغلبية استمرت حياتها وأعمالها كالمعتاد، وقد تم اعتقال البعض في فترات الأزمات (1948، 1956، 1967) لكن الجميع أفرج

عنهم بعد فترة قصيرة نسبيًا، وتجدر الإشارة هنا إلى أنه خلال تلك السنوات لم يتم اعتقال اليهود فقط، ففي عام 1948 اعتقل معهم الشيوعيون والإخوان المسلمون وأعضاء في مصر الفتاة من المصريين، وفي عام 1956 اعتقل الوفديون القدامى وبعض أفراد الجالية الفرنسية والإنجليزية، وفي عام 1967 اعتقلت أعداد كبيرة من الشعب المصري، منهم أعضاء في الأخوان المسلمين وبعض الشعراء والسياسيين، وأعتقد أن الإخوان المسلمين والشيوعيين المصريين لاقوا من العنت والإهانة والتعذيب الكثير والكثير، على حين كان اليهود المحبوسون رهن الاعتقال يعاملون معاملة حسنة، وحبسوا مدة قصيرة لا تقارن بعشرات السنين التي قضاها المصريون من مختلف الاتجاهات في السجن.

وكما قال كوهين فإن الاضطهاد أقنع يهود العالم بالانضمام إلى الصهيونية ولم يفسر لنا كما يقول بنيين لماذا كانت نسبة الصهاينة في اليهود المصريين قليلة للغاية؟ ولماذا لم يغادروا مصر بعد عام 1948 ولم يمنعهم أو يعارض ذلك، ويقول أيضًا إن كوهين حاول أن يقول إن وضع المصريين من اليهود كان مماثلاً لوضع اليهود في ألمانيا وأوروبا، وهو ما

تنفيه كل الحوادث التاريخية، لكنه يعترف أيضًا بأنه لا يمكن مقارنة ما حدث لليهود في أوروبا الشرقية وألمانيا ـ وهي البلاد المسيحية المتحضرة ـ بما حدث لهم في مصر، وتكلم عن أن مشروع تحرير مصر من الاستعمار يعد عملاً مشروعًا لكنه يتعارض مع تحرير اليهود لذا لم يكن هناك مجال للتفاهم بين مصر وإسرائيل، وقد رأى أن الإرهابيين موسى ومرزوق لم يخونا القضية اليهودية، وكذلك لم يخونا أيضًا مصر، وهذا بالطبع كلام غير مفهوم وغير منطقي، وكان لسامي عطية رجل الأعمال السكندري ـ الذي كان يمتلك مصانع نسيج كبيرة في الإسكندرية ـ علاقات واسعة مع الحكومة وكان صديقًا لشقيق جمال عبد الناصر، واستمر يعمل بنشاط ونجاح كبيرين حتى أول نوفمبر 1956، لكن بعد العدوان الثلاثي عام 1956قبض عليه ثم رحل إلى خارج البلاد، ووصل إلى إسرائيل عام 1957 وقام بتأسيس جمعية للمطالبة بالحقوق الاقتصادية لليهود المصريين الذين غادروا مصر، وأممت أو صودرت أملاكهم أو اضطروا إلى بيعها بأثمان بخسة، وتلقى طلبات 3 آلاف يهودي إسرائيلي من أصل مصري وألف يهودي مصري من كافة بلاد العالم،

وقدروا مطالبهم بمبلغ 197 مليون دولار عام 1959، لكن الحكومة الإسرائيلية رفضت الدفاع عن مطالبهم حتى بعد عقد معاهدة السلام، وبدء التمثيل الدبلوماسي، ويقال إن ذلك كان خشية مطالبة مصر بثمن بترول سيناء الذي ضخته إسرائيل بطرق غير قانونية طيلة ست سنوات، وقد انضم كوهين وسامي عطية إلى الحزب الليبرالي الذي أصبح جزءًا من الليكود، وبعد نجاح الليكود للمرة الأولى عام 1977 تم تشجيع اليهود العرب (المزراحي) على كتابة تاريخهم في بلادهم وحكاياتهم وهجرتهم إلى إسرائيل، وبادر حزب العمل اليساري إلى القيام بالمحاولة نفسها، وقد قام شلومو براد بتنظيم مائدة مستديرة لمناقشة موضوع اليهود في مصر، وقد أفاد الموجودون فيها بأنهم كانوا أعضاء في تنظيمات صهيونية، وأن الصهيونية تجري في دمائهم، ولم تكن مستوردة من اليهود الأوروبيين، وأنهم لم يشعروا أبدًا بالانتماء إلى مصر ويقول بنيين إن ذلك قيل في جو عام من محاولة إرضاء الرأي العام الأشكينازي، ولم يحاول أحد من المنظمين للحلقة مناقشة المتحدثين في ادعائهم بأنهم يمثلون كل اليهود.

اليهود المصريون في إسرائيل بعد حرب 1973

ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية

عبر عدة سنوات تم تشكيل طريقة ونمط التفكير السياسي والحياتي اليومي للإسرائيليين على كراهية العرب عمومًا والمصريين خاصة، لأنهم كانوا يقودون العرب في الحملة ضد إسرائيل، وقد أدى هذا التيار القوي من التفكير في الشارع الإسرائيلي إلى أن يخفي المصريون تاريخهم وحياتهم وثقافتهم التي اكتسبوها من مصر، ومن تكلم منهم كان يحكي وجهة النظر شديدة السلبية التي لا تمثل بأي حال التيار العام ليهود إسرائيل من المصريين، وبعد حرب 1973 وتوقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية عاد المصريون الإسرائيليون إلى التحدث عن حضارتهم وتاريخهم وثقافتهم في مصر، ورأوا أن عليهم دورًا يجب أن يلعبوه في تقريب العلاقة والثقافة بين وطنهم القديم ووطنهم الجديد، وفجأة شعروا بأن لهم وزنًا في المجتمع الإسرائيلي بعد أن كانوا محرومين من أي تقدير، أو الوصول لمنصب مهم في الدولة التي يتحكم فيها اليهود الأشكيناز من شرق أوروبا، وأعلن سامي عطية عن تنازله عما سبق أن طالب به من تعويضات

ضد اليهود في مصر مقابل السلام مع مصر، وقد كان هذا القرار مهمًا، لأنه كان رئيس الجمعية التي تطالب بالتعويضات وطالب بدعم العلاقات مع مصر.

وأرسل عطية وموريس شماس برقيتين إلى السادات عشية ذهابه إلى إسرائيل، يرحبان فيها ويثنيان على شجاعته، وختما برقيتهما العربية بكلمة (وا ولي التوفيق) ووقع تحتها زعماء الجالية المصرية في إسرائيل.

وبعد توقيع معاهدة السلام حدث نشاط هائل لليهود المصريين الذين لم يسمع عنهم أحد في خضم اليهود الأشكيناز، وتكونت جمعيات ومشاريع وهيئات حكومية وشعبية لتسجيل تاريخ المصريين اليهود وثقافتهم، وكتب الكثيرون منهم المذكرات، وسجلت ذكريات المصريين، وتكونت جمعية الصداقة الإسرائيلية المصرية، ونشرت الكتب عن المطبخ المصري، وبدأ اليهود المصريين يتكلمون لأول مرة عن طفولتهم السعيدة في مصر والحنين لهذا البلد، وتأسس عام 1984 اتحاد اليهود المصريين الذي يجمع المصريين للحديث عن ذكرياتهم في مصر وتاريخهم، وكان تنشر أخبارهم وتقاليدهم بالفرنسية والعربية، وكان لهم فروع في أماكن مختلفة في

إسرائيل، وقد كانت هذه المنظمة موجودة أيضًا خارج إسرائيل، خاصة في فرنسا، وكانت تجتمع بانتظام، وأنشأت صحيفة اسمها (نهر النيل).

وقد قدمت عضوة هذا الاتحاد بولا جاك (عبادي سابقًا) التي ولدت في القاهرة وهاجرت عام 1956 برنامجًا مشهورًا ومهمًا باللغة الفرنسية عن زيارتها لموطنها الأصلي مصر، وكتبت عدة روايات كل أبطالها من اليهود المصريين، واعترض الكثيرون من اليهود المصريين على روايتها التي كانت مليئة بشخصيات الشحاذين والنصابين، وهو ما لا يمثل حقيقة حياة اليهود في مصر كما رأوها وعايشوها بأنفسهم.

وقد اشترك من باريس في هذا الاتحاد مجموعة من الشيوعيين المصريين السابقين من تلاميذ كورييل وأعوانه، مثل جاك حسون وريمون استمبوللي وإبراهيم جابي، وكان حسون رئيس تحرير جريدة (نهر النيل) قد زار مصر، وكانت للجريدة صبغة يسارية، وكانت هذه المجموعة غير صهيونية، لكنها كانت تؤيد بقاء دولة إسرائيل، وتدافع عن حق الشعب الفلسطيني. واشترك أعضاؤها أيضًا في مشروع المحافظة على مقابر اليهود في البساتين بوصفها أثرًا يهوديًا

على وجود طائفة يهودية ناشطة عاشت في مصر.

وقد أسس اليهود المصريون معبدًا يهوديًا في بروكلين في نيويورك، وفي عام 1995 أنشئوا الجمعية التاريخية لليهود المصريين لكتابة تاريخ هذه المجموعة وحمايته وقد أخرجت ماري حلواني فيلمًا قصيرًا اسمه (أفتقد الشمس) عن حياة يهود نيويورك المصريين في وطنهم الأصلي. لكن يبدو أن هذه الجمعيات لن تكبر، لأن معظم المصريين أصبحوا كبارًا في السن، والكثيرون منهم ماتوا، ولا توجد جالية يهودية مصرية، ولا ينتظر في المستقبل أن يوجد، لكن الحقيقة أن اليهود المصريين بعد معاهدة السلام تغير موقفهم تمامًا، وبدءوا يهتمون ويحكون لأولادهم عن مصر الجميلة والأيام الحلوة التي عاشوها فيها.

وقد زار روبير داسا الإسكندرية مع مناحم بيجين عام 1979 بوصفه مذيعًا ومعلقاً للإذاعة العربية الإسرائيلية بعد اثنى عشر عامًا من الإفراج عنه في قضية سوزانا، ونشر كتابًا من الواضح فيه أنه الوحيد الذي كان يؤمن بالصهيونية بين كل معارفه، وأن أخته تزوجت مصريًا مسلمًا، وتعيش في الإسكندرية، وقال إنه يشعر بالحنين للمشي في شوارع

القاهرة.

استرجاع الشخصية اليهودية المصرية

يقول بنيين: لقد اشترك اليهود المصريون في إسرائيل في بعض الخصائص التي يتصف بها اليهود العرب مثل التكلم بالعربية، وكذلك بعض التقاليد والعادات العربية، وكانت الأغلبية العظمى من اليهود المصريين من السفارديم، بالإضافة إلى طائفة القرائين ذات التقاليد والتعاليم الخاصة جدًا وقلة من اليهود الأشكيناز. وكان كثير من اليهود المصريين يتكلمون الإنجليزية ومتأثرين بالحضارة والتقاليد الأوروبية، وكان من أسباب ضعف تأثير اليهود المصريين في إسرائيل، أنهم لم يكونوا وحدة متجانسة، بل كانوا من مختلف الثقافات والاتجاهات، مما جعل وحدتهم وصوتهم بوصفهم مجموعة واحدة ضعيفًا، بالإضافة إلى قلة عددهم مقارنة ببقية اليهود العرب.

ولم يلاق المتعلمون والمثقفون والمهنيون من اليهود المصريين ذوي الخبرة والثقافة الواسعة أي صعوبة في الاندماج والحصول على وظائف في مجتمع المدن الإسرائيلية، والكثيرون منهم عمل في البنوك وشركات

التأمين، والبعض عمل في البوليس، لأن إجادة العربية كانت ميزة للعمل في الشرطة، وانتشر المصريون بين بئر سبع وحيفا، لكن تجمعهم الأكبر كان في الضواحي الجنوبية لتل أبيب. وحسب التعداد الإسرائيلي فإن عدد اليهود المصريين الذين استقروا في إسرائيل من مصر والسودان كان 35580 نسمة ومعظمهم عاش في المدن، كما كانوا يعيشون في القاهرة، ولم يحققوا الحلم الصهيوني بالارتباط بالزراعة والأرض، وأغلبهم وصل إلى إسرائيل بعد العدوان الثلاثي عام 1956، ويعني ذلك أن أقل من نصف اليهود المصريين قد هاجر إلى إسرائيل.

بعد توقيع اتفاقية أوسلو وإعلان المبادئ التي تحرر غزة والضفة الغربية من الاحتلال، شعر الكثيرون من الإسرائيليين بالارتياح، لأن الاحتلال الذي يؤرقهم قد بدأ يولي، وجاء ذلك مع ظهور موجة المؤرخين الجدد الذين أرادوا كتابة التاريخ الإسرائيلي كما حدث، وليس كما صورته الدعاية الإسرائيلية، ويعني ذلك الكتابة عن المذابح والإهانات التي حدثت للفلسطينيين. وأمامنا رواية ماتالون التي كانت تبحث في كل الأيديولوجيات المختلفة في

إسرائيل، وتذكر الكثير من الصفات الإيجابية للمصريين، وقالت إنني بوصفي إسرائيلية مولودة في مصر، وجدت نفسي أفكر في الكثير من الأمور الثقافية والسياسية التي لا تتفق مع الصهيونية، وانجذبت كثيرًا إلى الثقافة المصرية لليهود والمثل الأخلاقية العالية لهم، فلماذا لا نعيش وندعهم يعيشون أيضًا؟! وفي التسعينات عمل عمانويل ماركت مديرًا للمركز الأكاديمي الإسرائيلي في القاهرة، وهو المركز الذي يعده الكثيرون من المصريين الوطنيين مركزًا للتجسس، وبعد عودته إلى جامعته في حيفا كتب قائلاً: لو لم تقرر الحكومة الإسرائيلية بدء الأعمال القذرة مثل عملية سوزانا، لما حدثت كارثة لليهود المصريين لأسباب واهية وغير مهمة، وقد سبب هذا الحادث الدمار لعلاقة اليهود ببلادهم مصر، وقد علق قائلاً إنه حتى الآن من الممكن البدء في تكوين جالية يهودية مصرية في مصر، وانتقد بشدة السفارة الإسرائيلية لمعارضة مشروعه.

ويعترض بنيين على الطريقة العدائية لكتابة التاريخ عند اليهود بدون وجه حق، ويعتقد أن الاتجاه الإسلامي يقود العداوة ضد اليهود بصفة عامة، ويكتب عن اليهود

المصريين بطريقة سلبية، ويعتقد بنيين أن نظرة أوروبا السلبية نحو اليهود طوال عقود طويلة ظهرت في كتابات المصريين الذين رأوا أن اليهود كانوا رأسماليين، يمصون دم الاقتصاد المصري، تقول سهام نصار في كتابها (اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية) إنه كان للحروب الإسرائيلية العربية تأثير كبير على اضمحلال الفروق بين الديانة اليهودية والحركة الصهيونية، بالرغم من أن الحكومة المصرية كانت واضحة في التفرقة بينهما، لكن بعد عملية سوزانا قال جمال عبد الناصر إنه بالرغم من أن اليهود المصريين تمتعوا بجميع حقوق المصريين، حسب دستور 1923 إلا أنهم أصبحوا يدينون بالصهيونية.

وفي عام 1974 ظهرت مدرسة جديدة في تفسير التاريخ الإسرائيلي الحديث وتدعو إلى تغيير الفكرة التي سادت منذ قيام الدولة العبرية، والتي أدت إلى تهميش دور اليهود المصريين الذين نظر إليهم الأشكيناز على أنهم مصريون شرقيون بدائيون، وأن على اليهود المصريين أن يلتحموا مع تيار الأشكيناز القادم من شرقي أوروبا الذي أقام بالفعل دولة إسرائيلية، وبعد ظهور المدرسة التاريخية الجديدة بدأت

الكتابات الحقيقية عن الثقافة والحضارة المصرية واليهود المصريين تأخذ مكانها.

ويقول بنيين إنه على حين كانت هذه الموجه العدائية لمصر بغير حق مستمرة في إسرائيل حتى منتصف السبعينات، فإنه في العالم العربي كانت الكتابات العربية تقول إن اليهود كانوا يعاملون جيدًا في البلاد العربية، ويعرف المثقفون المصريون الدور المهم الذي لعبه اليهود في الدولة الفاطمية، ولجوء ابن ميمون إلى القاهرة بصفتها مكانًا أمنًا، وأن اليهود الذين هاجروا إلى مصر نزوحًا من أسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر، والذين هاجروا أيضًا من روسيا وأوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط في منتصف القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانوا يهاجرون إلى بلد آمن، وأصبح الكثيرون منهم من الأغنياء، وكانت ـ مصر بحق ـ ملجأ لليهود النازحين والهاربين من الاضطهاد في أوروبا.

وفي السنوات الأخيرة كان خطاب القوميين والإسلاميين في البلاد العربية ملخصه أن اليهود خانوا مصر، فبالرغم من أن مصر كان ملجأ لهم، ووصلوا فيها إلى النفوذ والثروة إلا أنهم تحالفوا مع الإمبريالية العالمية والصهيونية ضد مصالح

مصر.

ولا يوجد في التاريخ العربي القديم أو الحديث شيء مماثل، أو حتى قريب مما حدث لليهود في أسبانيا، فجميع الباحثين الغربيين يعترفون بأن اليهود كانوا يعاملون بطريقة أفضل بكثير في المشرق المسلم عن الغرب المسيحي، ولا يجود اضطهاد يمكن مقارنته من قريب أو بعيد بما فعله النازيون في اليهود، يقول بنيين إن اليهود لم يتعرضوا للاضطهاد إلا في حالات قليلة كانت مرتبطة بالشعور الوطني العارم، أو الكفاح ضد الإنجليز المستعمرين، أو كجزء من النزاع العربي الصهيوني.

وفي أثناء ثورة 1919 ضد الاستعمار الإنجليزي انضم اليهود إلى الأقباط والمسلمين في وحدة واحدة تحت زعامة سعد زغلول، وكان زعماء الجالية اليهودية مثل يوسف قطاوي باشا ويوسف شيكوريل بك، من كبار المؤيدين للثورة بصفتهم وطنيين مصريين.

وحتى قبل ثورة يوليو وفي عصر الملك فاروق، كانت هناك مؤشرات ودلالات على انحسار نفوذ الأجانب المتمصرين من اليونانيين والإيطاليين والأرمن والروس، واليهود.

وبقيام الثورة أصبح دور غير المصريين ونفوذهم أقل بالتدريج، حتى كان العدوان الثلاثي من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، فصودرت أملاك رعاياهم عام 1956 وفي عام 1961 تم تأميم معظم الشركات الكبيرة التي كان يملكها المصريون والمتمصرون من مختلف الاتجاهات، ولم يكن تصرف الثورة ضد الأجانب المتمصرين موجهًا بالتحديد لهم، بدليل أنه في عام 1956 تمت مصادرة أموال مواطني الدول التي اشتركت في العدوان، ورأت الثورة أن أغنياء اليهود الأجانب والمتمصرين هم ممثلو إسرائيل، وفي عام 1960 تم تمصير الممتلكات البلجيكية تعاطفًا مع العدوان على الكونجو، ولم تتأثر الشركات الإيطالية واليونانية وغيرها من الجنسيات الأخرى، إلا عامي 1961 ـ 1962، حين طال التأميم جميع الشركات التي كان معظمها في ذلك الوقت مملوكًا للمصريين، لذا يمكن النظر إلى أن تأميم الشركات كان سياسة حكومة الثورة التي بدأتها عام 1956 بالمشتركين في العدوان الثلاثي، وانتهت في 61 ـ 62 بتأميم جميع الشركات، ويعني هذا أن الأجانب واليهود لم يكونوا معنيين بالدرجة الأولى، لكن السياسة كانت تأميم

جميع رؤوس الأموال، أيًا كان أصحابها.

الكتابات الإسرائيلية لليهود المصريين

لخص بنيين عددًا كبيرًا من الكتابات التي نشرها اليهود المصريون، ومنها رواية أدا أهاروني، التي كانت تسمى في مصر قبل هجرتها أندريه ياديد، وقد ولدت في مصر عام 1933، وهي شاعرة وابنة عائلة يهودية غنية، وكانت تسكن في وسط القاهرة، وتعلمت في المدرسة الإنجليزية بالزمالك، وقد غادرت مصر عام 1949 إلى فرنسا مع عائلتها وفي عام 1950 تركت عائلتها في فرنسا وغادرت بمفردها إلى إسرائيل، وتزوجت حاييم أهاروني الذي اكتسبت اسمها الجديد منه، وحصلت بعد ذلك على الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة لندن عام 1975 وفي العام نفسه أسست جمعية السلام للمرأة العربية والإسرائيلية، وكانت تريد أن تحمل رسالة ثقافية سياسية، تقول فيها إن اليهود المصريين في إسرائيل من الممكن أن يكونوا جسرًا يعبر عليه السلام بين الدول العربية وإسرائيل، وقد أجرت أهاروني استطلاع رأي بين اليهود المصريين، فوافق 80٪ منهم على الجلاء عن معظم الأراضي التي احتلت بعد

1967 وكذلك إنشاء دولة فلسطينية منفصلة أو اتحاد فيدرالي مع الأردن، وعند مقارنة ذلك باستطلاع مماثل بين كل الإسرائيليين، نجد أنه قد وافق 35٪ فقط على هذا الرأي، وكانت الأشعار الأولى لأهاروني لا تعبر عن خلفيتها المصرية، لكن بعد حرب 1973 حدث تحول في كتاباتها، وأصبح تاريخ العائلة في مصر جزءًا سياسيًا في أدبها، وفي روايتها الأولى التي أسمتها (خطاب إلى صديقتي قدرية) حكت عن طفولتها وكيف كان البقال يشير إلى خادمتها حسنية بالبنت الإفرنجية وكانت تستغرب من ذلك، لكن بنيين كان حريصًا على القول إن الكاتبة لم تسأل نفسها، لماذا قال البقال ذلك؟ هل لأنها كانت تعيش وتفكر بطريقة مختلفة وتتكلم بلهجة مختلفة أم لأنها لم ترتبط بأي آمال أو أحلام مشتركة مع المصريين؟ ويتحدث بنيين عن روايتها الثانية (الخروج الثاني من مصر) وليس من الصعب تفهم أن آراء أدا أهاروني تأتي من خلفية اليهود الأشكيناز القادمين من شرقي أوروبا، والتي طالت جذورها أنواع الاضطهاد المختلفة في أوروبا وهي تحكي في روايتها عن انضمامها ـ عندما كانت في طور المراهقة ـ إلى منظمة صهيونية،

وانتقدت بشدة الحكومة المصرية لإغلاقها قاعة الاجتماعات المخصصة لهذه المنظمة عام 1948 وهو ما حدث مع كل الجمعيات الصهيونية بعد إنشاء دولة إسرائيل.

وينقد علي شلش رواية أخرى لأدا أهاروني، تبدأ في القاهرة عام 1948 بقصة حب بين فتاة من اليهود السفارديم الأغنياء ـ الذين عاشوا أجيالاً في مصر ـ وفتى من اليهود الأشكيناز القادمين من شرقي أوروبا حديثًا بعد سجنه في معسكر نازي، تحكي حكايتها في مصر، وأشارت إلى أن اليهود لم يحصلوا على الجنسية المصرية، وأنها عندما كانت طفلة كانت تعامل بوصفها أجنبية في سوق باب اللوق، وتحكي قصة اغتصابها من شقيق خادمتها، انتقامًا لاغتصاب فتاة مصرية من شقيقها اليهودي، ويعلق علي شلش على المحاضرة التي ألقتها البطلة ضمن نسيج الرواية، ويعدها نقطة ضعف في الرواية، بالإضافة إلى الأخطاء التاريخية المتكررة والتحامل على المصريين بدون سبب واضح، ويعتقد شلش أن الروائية أهاروني محدودة الموهبة والفكر، وقد قرأت الرواية في مرحلة تالية لقراءة النقد، وأعتقد أنني أوافق شلش على ما كتبه.

المثال الآخر هو الشاعرة الإسرائيلية أندا هاريل داجان، وهي أخت الصهيوني المصري المعروف داود وهبة وقد كانت تسمى في مصر أندريه وهبة، وهي من عائلة يهودية شهيرة في مصر، وقد ولدت عام 1934 وغادرت مصر إلى إسرائيل عن طريق مارسيليا هي وأمها حتى يتركا الفرصة لأخيها ليعمل في الحركة الصهيونية في مصر بحرية أكبر، وقد تخلت العائلة عن اسمها المصري (وهبة) نهائيًا، وقد نشرت في أوائل السبعينات كتابين من أشعارها، لم يحتويا على أي شيء عن مصر سوى قصيدة واحدة تنعي فيها أباها إبراهيم وهبة الذي توفي في القاهرة عام 1944 وتتذكره، وفي هذه القصيدة تذكر لأول مرة أصلها المصري وأن أباها هو الوحيد الذي كانت تتكلم معه بالعربية، وأشارت في قصيدتها إلى عرائس المولد، وهي تمشي بينها مع أبيها يوم مولد النبي صلى ا عليه وسلم.

وقد زارت أندريه (سابقًا) مصر عام 1980 في رحلة منظمة من إسرائيل، إلا إنها تركت المجموعة وانطلقت وحدها إلى العباسية وزارت المكان الذي ولدت فيه، ومشت في كل شوارع المنطقة، وتذكرت طفولتها السعيدة في مصر،

واكتشف أن العامة المصرية لديها لم تتأثر، وقيل لها إنك بنت بلد، وبعد عودتها إلى إسرائيل كتبت ديوانًا شعريًا عن القاهرة تصف فيه طفولتها وشوارعها وناسها، ونشرت في هذا الديوان قصيدة عن سيد البواب وعن عبد ا زميلها في المدرسة، وكيف تصرفا أثناء المظاهرات التي اندلعت في الأربعينات ضد الصهيونية، احتجاجًا على ما يحدث في فلسطين، ولم تقابل أشعار أندريه الجديدة بالاستحسان في إسرائيل، ورأى الإسرائيليون أن في قصائدها الكثير من الحنين إلى مصر، ولا يعني ذلك أن كل ما كتب عن مصر لم يقابل بالاستحسان، لكن يبدو أن الطريقة الحميمة التي كتبت بها عن طفولتها السعيدة وعن أبيها المصري الصميم، كانت السبب في عدم تقبلها من الشعب الإسرائيلي.

موريس شماس صحفي مصري يهودي من القرائين كان يقطن في حارة اليهود، ولد في القاهرة عام 1930 وكان يكتب في (جريدة الشمس) اليهودية الأسبوعية، وفي جريدة (الكليم) التي كانت تصدر مرتين في الأسبوع، وعمل أيضًا في مسارح القاهرة ممثلاً في أدوار صغيرة، وهاجر إلى إسرائيل عام 1951 واهتم في القدس بالثقافة العربية، وعمل

في الإذاعة العربية في القدس، وكان يكتب مسلسلات وبرامج عربية للإذاعة، وعند عقد معاهدة الصلح مع مصر نشر شماس مجموعة قصص قصيرة اسمها شايخ خبتي (حكايات من حارة اليهود)، ويتحدث في كل الحكايات عن طفولته وشبابه في الحارة التي كانت موجودة واستمرت بصفة دائمة في ذاكرته، والحكايات كلها بالرغم من أن أسماء أبطالها يهودية، إلا أنها حكايات مصرية صميمة تصلح لأن تكون حكايات لعائلات مسلمة أو قبطية بعد تغيير أسماء أبطالها، ومنها مثلاً حكاية عن عم محمود المسلم الذي كان يعيش في الحارة وحضر تخرج ابنه، وحصل على الزمالة في الطب من لندن، وفتح عيادته في الحارة.

وتختلف حكايات موريش شماس اليهودي المصري عن اليهود من سكان الزمالك والعباسية الذين كانوا يعدون من الإفرنج أو الخواجات، ولم يكونوا يتقنون اللغة العربية، شتان بين يهود عاشوا قرونًا في مصر بين أهلها ـ بنفس أسمائهم وأشكالهم وتصرفاتهم ـ وبين اليهود القادمين من أوروبا ليعيشوا أسيادًا مع بقية الأجانب في مصر، ويختلف شماس عن أدا هاروني وأندا حاجان في أنه كان يحكي دائمًا عن

أشياء إيجابية وعلاقات حميمة بين اليهود والمسلمين.

ويؤكد كتاب جاكلين كاهانوف من شرق الشمس أن اليهود المصريين طوروا وحدثوا ثقافة شرقي البحر الأبيض المتوسط، لكن الثقافة الصهيونية عارضت بشدة هذه الآراء والأفكار التي تعد مضادة للثقافة اليهودية المعاصرة، ومما لا شك فيه أن الثقافة في إسرائيل امتصت الكثير من ثقافة الشرق الأوسط، كالأكل والموسيقى والرقص واللغة والتصميمات المعمارية، لكن الثقافة الصهيونية ترفض ذلك، وتؤكد دائمًا أن العرب ليس لديهم شيء من الأفكار يمكن الاستفادة منه، وأن طرق الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد كلها سيئة، ربما باستثناء عادة الجود وحسن الاستقبال.

لكن النقاد والقراء في إسرائيل لم يحسنوا استقبال كتابات شماس، ولم يعجبوا بالنظرة الإيجابية لتصوير الحياة المصرية، مثلما رفضوا كتابات أدا أهاروني بعد زيارتها لمصر، وقد بنى هذا الرفض على أن المصريين عمومًا يحملون حضارة شرقي البحر الأبيض المتوسط المتخلفة، وعمومًا كانت هذه الأعمال هي الأولى التي صورت مصر وثقافتها بنظرة إيجابية، وحدث ذلك بعد زيارة السادات

للقدس.

وقد قال كثير من النقاد الإسرائيليين إن كل ما كتبه المؤلفون الإسرائيليون عن مصر فيه الكثير من النوستالجيا والحنين إلى الماضي المتخاف الذي غيرته إيجابيًا الصهيونية، ومما لا شك فيه أن هذه النظرة شديدة العنصرية تجاه المصريين في كتابات النقاد تعكس حجم الكراهية والاحتقار الذي يكنه هؤلاء النقاد لمصر، وتشعل الغضب والكراهية أيضًا تجاه إسرائيل لهذه الأسباب، حتى لو نحينا القضية الفلسطينية جانبًا، وهذا بالطبع مستحيل.

يقول بنيين إنه قد مر عقدان قبل أن تكتب الفتاة الإسرائيلية ونيه ماتالوفي المولودة في إسرائيل من أبوين مصريين تاريخ عائلتها في مصر، ثم تنقلهم بين الكاميرون وإسرائيل ثم الولايات المتحدة، وكانت كتاباتها إيجابية عن مصر وحضارة البحر الأبيض المتوسط المشتركة.

يقول بنيين إن نشر رواية فيها الكثير من السيرة الذاتية عن تاريخ عائلة الكاتبة ماتلون بمثابة تحقيق للذات المصرية لليهود المصريين في إسرائيل، والإعلان عن ثقافتهم الخاصة التي دفنتها الأغلبية الصهيونية من الأشكيناز، ففي الكتاب

الكثير من روح البحر الأبيض المتوسط وثقافته، وفي الرواية يلعب ألبوم صور العائلة دورًا رئيسيًا، حيث توجد حكاية عن كل صورة، وتم نسج القصة بحيث تجمع بين شخصيات يهودية مصرية وجنسيات أوروبية، بالإضافة إلى المصريين، وتتناثر الكلمات العربية والإنجليزية والفرنسية في رواية بالعبرية تحكي عن مجتمع من البحر الأبيض المتوسط، عاشت فيه ثقافات مختلفة متجانسة إلى حد كبير، وحكت عن الحياة الاجتماعية والعلاقات العائلية وعلاقات الجيران، وكان رأي أبطال الرواية من اليهود المصريين في وطنهم الأول مختلفًا عن الرأي الصهيوني، وتفادت الكاتبة في الرواية اتخاذ مواقف محددة وآراء نهائية حول حياة اليهود في مصر، وتركت الأمر للقارئ لاتخاذ ما يراه، وربما يتغير حسب وضعه ومكانته وعلاقته بمصر وذكرياته هناك، وفي الحكاية يظهر العم شيكوريل وجدة المؤلفة إستر، وهما يكرهان الصهيونية بشدة، ويعتقدان أنها حطمت روح العائلة ومشاعرها، ولم يزر العم إسرائيل إلا مرة واحدة لمدة 48 ساعة في الخمسينات، ويعلق بنيين على هذا النص قائلاً إن هذه الشخصية لا تمثل في الواقع الإسرائيلي تيارًا غالبًا،

لكنها أعطت الفرصة للكاتبة لتقول عن إسرائيل أشياء لم يقلها كاتب إسرائيلي من قبل بوضوح شديد، وكان واضحًا من أفكار كل من البطل وبنت أخيه أنه لا يوجد تبرير لديهما لقيام دولة إسرائيل، ولم يكن حلم الوطن اليهودي يخطر بباليهما، لكنها أصبحت فقط مأوى للعم عندما أصبحت الحياة مستحيلة أمامه في مصر.

وقد صدر كتاب اسمه (بنت النيل) عام 1956 للكاتبة اليهودية المصرية الأصل التي هاجرت إلى سويسرا جيزيل ليتمان، والكاتب يحكي عن اضطهاد اليهود المستمر في البلاد الإسلامية ابتداء من عصر النبي محمد صلى ا عليه وسلم حتى التاريخ المعاصر، ونتج عن ذلك هجرة اليهود العرب من بلادهم، وقد أعيد طبع الكتاب مرة أخرى بعد إضافة أجزاء إليه، وكما يقول بنيين فإن الدعاية الصهيونية والمؤسسات اليهودية الدولية ووزارة التعليم الإسرائيلية، قد ساعدت في نشر هذا الكتاب الذي يسيء إلى العرب الذين اضطهدوا اليهود.

ويعتقد بنيين أن القيادات والمؤسسات اليهودية تبنت وجهة نظر الكاتبة التي أثرت على وجهة النظر الغربية، وأصبح

ذلك هو التفكير السائد في الغرب، وقد ساعد ذلك الأمر على انتشار وجهة نظر شديدة العدائية لمصر، بعد السكوت والصمت المطبق من أجيال طويلة لليهود المصريين الذين عاشوا أجمل أيام حياتهم في مصر، إلى أن اضطرتهم الظروف إلى الهجرة. وقد استمر هذا الصمت المخجل بين اليهود المصريين حتى نهاية السبعينات، حين كان هؤلاء اليهود قبل 1948 يعتزون اعتزازًا كبيرًا بمصريتهم وبتاريخ اليهود الآمن والمزدهر في مصر، وقد ساعد على استمرار الصمت أن اليهود المصريين الذين هاجروا إلى إسرائيل حاولوا أن يكسبوا تعاطف الإسرائيليين معهم، وذلك بإعطاء الإيحاء بأنهم قد هاجروا من مصر بعد اضطهاد طويل الأمد فيها.

وقد ساعدت الكتابات الصهيونية المتعصبة ـ كما يقول بنيين ـ في تحويل الاتجاه من الحق الفلسطيني الواضح إلى اتجاه معاكس، يتحدث عن ظروف الاضطهاد لليهود في البلاد العربية، وساعدت الصهيونية العالمية على نشر هذا النوع من الكتب التي كتبت تاريخ المصريين بطريقة مغايرة للواقع وحقائق التاريخ بعد قيام دولة إسرائيل. وقد وصل الأمر إلى

أن يتبنى البعض ـ مثل جلبرت ـ فكرة أن أعداد اليهود الذين غادروا البلاد العربية مساوية لأعداد الفلسطينيين الذين طردوا من أراضيهم، وبذلك لا يكون هناك مجال لمناقشة حقهم في الأرض.

وقد قام بعض اليهود الإسرائيليين من أصل مصري ـ الذين يطلق عليهم مصراييم ـ بتضخيم واختراع حكايات عن الاضطهاد الذي حدث لليهود في مصر، وذلك حتى يمكن مقارنته بالاضطهاد والمذابح التي حدثت لليهود الأشكيناز في أوروبا، وبالتالي يجب أن يحصل اليهود العرب على نصيب مساو من السلطة والمميزات، لأنهم قد أصابهم حجم مماثل من العنت والاضطهاد، ويعني ذلك أيضًا أن يتباعد اليهود المصريون عن أصولهم وثقافتهم المصرية والعربية، حتى يمكنهم الانصهار في المجتمع الإسرائيلي.

وقد ساعد على تشجيع هذا الاتجاه من اليهود المصريين في إسرائيل، أن اليهود الأشكيناز أصحاب الدعوة الصهيونية رأوا أنهم أصحاب الفضل في إقامة الدولة الإسرائيلية.

وتعبر بعض الروايات الإسرائيلية لكتاب مصريين عن انفصال تام عن مشاعر الناس وأمالهم وأحلامهم، وعن

التعاطف مع الفقراء منهم، فمثلاً في رواية اترخاق حيوبين (صيف الإسكندرية) تحكي عن عائلة غنية تلبس ملابس فاخرة، وكل شكواها من الخدم المصريين الكسالى، وحين قام الضباط الأحرار بحركتهم ـ التي لم تكن قد ظهرت ملامحها بعد ـ أحسوا بأن الرياح الجميلة قد توقفت، ولم تحاول هذه المجموعة ـ ولو لفترة ـ التفكير في حياة المصريين من مسلمين وأقباط، الكلام نفسه يمكن قوله عن كتاب (الخروج من مصر) لمؤلفه أندريه أسمان، حيث تشير إلى العدوان الثلاثي وضرب مصر بالطائرات الإنجليزية والفرنسية والإسرائيلية واحتلال بور سعيد، وكان شعور العائلة اليهودية كلها مع العدوان والغزو والفرحة بوجود الإنجليز في بورسعيد وانتظار وصولهم إلى الإسكندرية.

ونشرت في تلك الفترة الكاتبة جورن رواية عن آخر صيف قضته في الإسكندرية عام 1951، وقد علق النقاد عليها بأنها رواية ضعيفة، وقد نشرت رواية أخرى نقدت فيها بشدة الحركة الصهيونية وتأثير اليهود الأشكيناز عليها، مما أثار عليها الكثيرين، توضح الرواية شيئين، أولهما أن اليهود في مصر لم يصبهم أذى، وثانيهما أن الحركة الصهيونية في

مصر كانت ضعيفة، وأن لهجرة اليهود إلى خارج مصر عوامل أخرى، وأنه لم يكن هناك مستقبل لشباب اليهود وطموحاته في مصر، كرد فعل لوضع اليهود الشرقيين الذين لهم فقط دور ثانوي في السلطة والحكم والنفوذ، مما أدى إلى أن يحاول اليهود المصريون الادعاء ـ بغير حق ـ بأنهم أيضًا كانوا من دعاة الحركة الصهيونية، وأنهم عانوا من الاضطهاد في بلادهم.

والكاتب الآخر في هذا الاتجاه هو هاركابي، الذي نشر كتابه عام 1967 وفيه يقول إن العرب بطبعهم معادون للسامة واضطهدوا اليهود، وأن المعركة ليست سياسية، وإنما دينية بين الإسلام واليهودية.

وعمومًا فإن الكتابات الأدبية للكتاب المصريين في إسرائيل ـ في مجموعها ـ لم تشكل تيارًا أدبيًا مهمًا، أو حتى له تأثير في المجتمع الإسرائيلي، أما المجتمع المصري فلم يعلم منه بهذه الكتابات إلا المتخصصون في الدراسات الإسرائيلية.

اليهود المصريون على شبكة الإنترنت

الجمعية التاريخية لليهود من مصر

غيرت الجمعية اسمها من جمعية اليهود المصريين، أو يهود مصر إلى اليهود من مصر، ربما لتنفي في العنوان أنهم كانوا مواطنين مصريين، وتضع داخل مربع واضح في أول صفحة على موقعها على الإنترنت ما يلي:

نود أن يعرف الجميع أننا جادون ومصممون على استعادة جميع الأوراق والسجلات التاريخية والدينية، وكذلك كل ما كان له ارتباط ثقافي بنا في مصر، ولا مساومة في ذلك، ولابد من استرجاعه.

وقد وجهت الجمعية ـ التي أسسها ويرأسها ليون صقال ونائبه فكتور صنوع وبسكرتارية يوسف موصيري وأمانة صندوق مناحم مزراحي ـ خطابًا إلى قادة الكونجرس الأمريكي، تطالب فيه بإيقاف المعونات عن مصر في حالة عدم تسليم كل ما يختص بيهود مصر إلى إحدى المؤسسات اليهودية في الولايات المتحدة، وترفض مبدأ أن تنضم أي متعلقات باليهود إلى هيئة الآثار، وهو ما قررته الحكومة المصرية، لتصبح الآثار اليهودية والقبطية والإسلامية

واليونانية والرومانية والفرعونية كلها آثارًا مصرية ترعاها الدولة والمهتمون بالآثار من المجتمع المدني، ويقولون في خطابهم: إننا لا نتوقع من دولة طردت اليهود لسبب واحد، هو أنهم يهود، أن يكون لديها الرغبة في حماية ما يتعلق بالتاريخ اليهودي في مصر، ويقولون إن الأذى قد أصابهم منذ عام 1948، ولم يتركوا مصر برغبتهم، وإنما تحرش بهم المصريون، ورفضوا إعطاءهم الجنسية المصرية، وسجنوا أعدادًا منهم، وفي النهاية طردنا من مصر بدون حق العودة، وحتى الآن:

1 ـ مصر لم تعوض اليهود عن ممتلكاتهم.

2 ـ مصر لم تعتذر عن إساءتها لليهود.

3 ـ مصر لم تعترف بفضل اليهود على مصر.

4 ـ مصر تحاول الاستيلاء على ما تبقى من متعلقات يهودية، وبالرغم من احترامنا لمصر، فإننا لا يمكننا السكوت بعد الآن.

وتتصدر الصفحة الأولى من الموقع صورتان للإرهابيين موسى مرزوق وسامي عازر، اللذين قاما بتفجير أماكن عامة ودور السينما بالاتفاق مع الموساد، وحكم عليهما بالإعدام في

قضية سوزانا، وسميت فضيحة لافون، وبالطبع كانت الصور تعني أنهما بطلان عندما قاما بهذا العمل.

مقالة منشورة على موقع الجمعية التاريخية ليهود من مصر.

بقلم دينيس دويك تيليو

هذه المقالة ملخص لمحاضرة ألقيت في المعبد اليهودي منذ عامين، حيث اجتمع خمسة عشر من الأصدقاء من أيام الدراسة الثانوية ـ بعد أربعين عامًا من الصمت ـ في مطعم في باريس، وبالطبع كانت الإنترنت هي الوسيلة التي جمعتهم، وكلنا أكملنا تعليمنا، وعملنا وتزوجنا، وانتقلنا من مكان إلى آخر، وحضرنا من استراليا ـ البرازيل ـ إسرائيل ـ أمريكا، والبلاد الأوروبية، وكان عنوان اللقاء (مصر أم الدنيا)، وهو ما يحب أن يردده المصريون، نظرًا لموقعها الجغرافي وأهميتها التاريخية.

والسؤال لماذا هاجر كل هؤلاء اليهود إلى مصر؟ والسبب الأول هو أنها بلد يمكن أن تعيش وتكسب فيه، ونحن نعلم أن هناك يهودًا يعيشون في مصر طوال الوقت، وجاءت موجة الهجرة الأخيرة من دول البحر الأبيض المتوسط بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية، وقد ساند ملوك مصر في العصر

الحديث اليهود وأنشطتهم الصهيونية والرياضية والثقافية، وانتعش المجتمع اليهودي حتى وصل إلى مائة ألف يهودي في منتصف الأربعينات، وكانت حياتنا وبيوتنا وسط بقية المصريين في كل مكان، وقام اليهود بأعمال كثيرة مفيدة، وأنشأوا المستشفيات ودور المسنين والمدارس، وكانت المدارس العربية المصرية متاحة لليهود، لكن الأغلبية فضلت المدارس الفرنسية اليهودية، أو المدارس الكاثوليكية، وكان أصدقائي في المدرسة من مسلمين وأقباط وبنات وبنين، وكنا نتزاور، وكثير من الأولاد تعلموا في الجامعة الأمريكية، أو سافروا إلى الخارج للتعليم، أما البنات فتزوجن في سن صغيرة، وكانت الصلاة في المعبد اليهودي تقليدية، السيدات في الدور العلوي والرجال في القاعة الأصلية، وفي الأغلب لم تعمل السيدات خارج المنزل، ولم توجد مدارس لتعليم العبرية، وكانت حياتنا الاجتماعية غنية، كنا نذهب إلى المطاعم والمسارح والسينمات والنوادي، وكنا في فترة الشباب نذهب إلى المراقص، ونلبس أحدث الأزياء الأوروبية والأمريكية، وكانت عائلاتنا تكسب الكثير من الأموال، والحياة كانت سعيدة، والشمس ساطعة دائمًا، والحق يقال إن

مصر كانت فعلاً أم الدنيا، لكن كان هناك جانب أسود في هذه الجنة، حيث لم يحصل اليهود المولودون في مصر على الجنسية المصرية، وإنما حصلوا على جنسيات آبائهم، وفي حالة عدم وجود جنسية للأب، كان الابن لا يحمل الجنسية المصرية، وكانوا يجددون الإقامة في مصر كل عام، ولم يكن لهم حق التصويت، ولا حق الحصول على وظائف معينة، وللخروج من مصر كانوا يحصلون على جوازات مؤقتة مع فيزا للخروج والعودة، وقد حصل اليهود المهمون على الجنسية المصرية، لكن ثبت أنه لم يكن لها فائدة بعد ذلك، وكانت مصر دولة غير ديمقراطية، حيث لم تسمح بوجود حزب معارض، وكانت الصحف والتليفونات مراقبة، والشعب مراقبًا بالبوليس السري، وكنا نستمع إلى نشرة الأخبار في الإذاعة البريطانية، ولم نكن نظهر العلامات الدينية اليهودية، وبعد قيام دولة إسرائيل ألغيت كل المنظمات اليهودية والصهيونية، وتم القبض على البعض بتهمة الصهيونية، وتم شنق البعض بتهمة الجاسوسية، وكان الناس يقولون عنا (يهودي صهيوني كلب ابن كلب).

وبدأ تيار الوطنية المصرية وجماعة الإخوان المسلمين في

الصعود، وكان الوطنيون يريدون الخلاص من الاستعمار البريطاني، أما الإخوان فكانوا يريدون دولة الخلافة الإسلامية، وفي عام 1952 حدث حريق القاهرة، وبعد ستة أشهر حدث انقلاب 23 يوليو 1952، وزار قائد النظام الجديد اللواء محمد نجيب المعبد اليهودي في القاهرة، وزار مندوب عنه معبد النبي دانيال في الإسكندرية، وفي عام 1956 بعد تأميم القنال حدث الهجوم من الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين، وبعد انسحاب القوات الغازية كان ذلك بداية النهاية لحياة اليهود في مصر، وصدر الأمر بطرد الإنجليز والفرنسيين خلال أسبوعين، وكان منهم الكثير من اليهود، وصودرت أملاكهم، وكان منهم والد زوجتي وحماتي اللذان أغلقا شقتهما وسافرا من المطار، وقد قبض على بعض اليهود، وتم ترحيل البعض بتهمة الانضمام إلى التنظيمات الصهيونية، وقد وضعت الحكومة مكتب أبي تحت إرادتها، وبدأت هجرة اليهود، فمثلاً عائلتي موجودة في ثلاث قارات وست دول، وقال المجتمعون على العشاء في المطعم إننا لم نشعر بأننا لاجئون، وإنما يهود طردوا من مصر، وبدأ اليهود العمل بقوة في بلادهم الجديدة، ونجح البعض وعاش

البعض الآخر حياة بسيطة، وعندما غادرنا مصر كان تعداد مصر اثنين وعشرين مليونا، والآن التعداد 70 مليونًا، وإنه لمن المحزن أن يوجد جيل كامل من المصريين لم يشاهدوا أو يتعاملوا مع أي يهودي، وصورة اليهودي التي يشاهدونها هي الموجودة في صور الكاريكاتير التي تحمل دعاية موجهة ضد اليهود.

موقع الجمعية التاريخية لليهود

من مصر مقال يوسف حكيم

يوسف حكيم الذي يعيش في إسرائيل، ولد في الإسكندرية عام 1931 يقول إن اليهود مروا بأوقات مختلفة، بعضها ممتاز، وبعضها فيه صعوبة، والبعض الآخر قد يصل إلى درجة قريبة من الاضطهاد، وذلك في نهاية أكتوبر 1956 بعد العدوان الثلاثي على مصر، ويقول إنه أثناء هجوم الألمان في العلمين كان الإخوان المسلمون وحزب مصر الفتاة يريدون النصر للألمان، ويقول إن نحو 80 ألف يهودي كانوا يعيشون في مصر في ذلك الوقت، ويقول أيضًا إن معظم اليهود كانوا يحملون جنسيات أوروبية، وكان البعض

يحمل الجنسية المصرية، ونحو 20 ألفًا بدون جنسية، وكانت الجالية اليهودية تجمع بين الأغنياء والفقراء والمتعلمين والأميين، وكانوا ذوي أصول من مختلف البلاد، هاجروا إلى مصر في أزمنة مختلفة حتى يستفيدوا من الرخاء الذي سوف تحققه قناة السويس، وبالفعل حدثت حالة رخاء شديدة لهم ولمصر، بمساهماتهم في عدة مجالات صناعية ومصرفية واجتماعية ورياضية، وكان حاخام الإسكندرية د. فينتورا لا يخفي صهيونيته، لذا طلب منه مغادرة مصر عام 1948، وأثناء حرب 1948 التي أسماها الكاتب حملة الملك فاروق ـ قبض على أعداد من اليهود لعدة أشهر قد تصل إلى سنة، وفي القاهرة قام الإخوان المسلمون بتفجيرات في حارة اليهود، أسفرت عن مقتل من 40 إلى 50 شخصًا، وكانت الصحافة مقيدة في ذلك الوقت، وقد غادر مصر نحو 10 آلاف يهودي عام 1949، ثم حدث هدوء نسبي بين عامي 1950 ـ 1952، إلى أن حدث حريق القاهرة، وقتل فيه بعض الأجانب واليهود، ثم إلى أن قامت الثورة وزار الجنرال نجيب قائد الانقلاب المعبد اليهودي في القاهرة، وكان يرغب في التعاون مع الغرب، على عكس عبد الناصر

الذي أراد أن يكون بطل القومية العربية ويتحكم في بترول الخليج.

وفي عام 1956 حدث تأمين قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر، الذي كان من تبعاته رعب شديد حل بالجالية اليهودية وقبض على آلاف اليهود، حتى تم ترحيلهم والاستيلاء على أموالهم، ويقول إنه في عام 1967 وضع الرجال من اليهود في السجن، وبعضهم مات هناك، ويقول إنه ليست لديه معلومات عن الفترة بين عامي 1957 ـ 1967.

ويقول حكيم إنه يعد نفسه محظوظًا، لأنه ولد في الإسكندرية لسببين، أولهما: أنه لو كان قد ولد في بولندا أو ألمانيا أو النمسا أو اليونان أو فرنسا، لعرفتم ماذا كان سوف يحدث لي، وثانيًا لأنني تركت مصر لأعيش حياة جديدة في إسرائيل التي فيها كل مميزات الدولة العصرية، وأدعوكم إذا كانت لديكم أية أسئلة، أو تريدون تصويب أي شيء الاتصال بي على العنوان التالي:

Joseph Hakim p06 3089 ـ Jerusalem 91130 ـ ـ Israel ـ E ـ ـ net. Mail: gosehp @ internet ـ ـ Zahay.

والأمثلة التي اخترتها من موقع الجمعية التاريخية ليهود من مصر، تجمع بين حقائق تاريخية موثقة وانفعالات شخصية لأحداث غير موثقة وفيها وجهات نظر مختلفة، مثل موضوع الجنسية المصرية واليهود وخروجهم من مصر، وأسبابه، وهناك بعض المقالات الموضوعية إلى حد كبير، والبعض الآخر فيه تحامل غير طبيعي بدون أسباب موضوعية، وكل هذه الموضوعات نوقشت بالتفصيل في متن الكتاب.

موقع بساتين على الإنترنت

هذا الموقع يتخذ اسمه من المكان الذي توجد فيه مقابر اليهود في القاهرة، ويصدر الموقع خطابات دورية فيها معلومات عن بعض اليهود المصريين داخل مصر وخارجها، وكذلك يصدر موجزًا عن حياة بعض اليهود المصريين البارزين عند وفاتهم، مثل جاك حسون وريمون استمبوللي وليلى مراد.

وترعى هذا الموقع الذي يبث من القاهرة الآنسة كارمن وينشتين رئيسة الجالية اليهودية في مصر، ويوجد بالموقع مقالات عن تاريخ اليهود المصريين، وتوجد فيه صور وذكريات كثيرة عن أماكن تواجد اليهود ومعابدهم في مصر،

وكذلك بعض الصور عن زيارات حديثة نظمتها الآنسة كارمن لبعض المعابد اليهودية التي استضافت زوارًا وبعض تلاميذ المدارس الأجنبية في القاهرة، والموقع بصفة عامة محترم، فيه معلومات موثقة، ويبتعد عن الإثارة، ويحافظ على تقاليد النشر.

أمثلة من المنشور على موقع بساتين

تأبين السيد ريمون استمبوللي

توفي ريمون استمبوللي في باريس، وهاجر من مصر في الخمسينات لأسباب عائلية (وهذا غير صحيح لأنه سافر بأمر التنظيم الشيوعي (حمتو) ليكون ضابط اتصال للتنظيم في فرنسا) وبقي مصريًا بقلبه طوال حياته، وقد تخرج في جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) وكان قد بدأ دراسة الدكتوراه في مصر قبل هجرته، وحافظ على علاقة وثيقة بأصدقائه المصريين طوال الوقت، وزار مصر مرات عديدة بدءًا من السبعينات، وفي آخر زيارة صحبته الآنسة وينشتين - بناء على طلبه - في جولة سياحية للآثار المصرية، التي قال استمبوللي إنه لم يكن لديه وقت لزيارتها أثناء حياته في

مصر، وطاف بالقاهرة الفاطمية، وزار بيت بختيا ومسجد قلاوون، وكتبت كارمن قائلة إن استمبوللي كان مثالاً للحكمة والتفهم، وكان عضوًا في جمعية حماية الآثار اليهودية في مصر، وكان قد أسسها مع جاك حسون، وكلاهما استمر يشعر خلال خمسين عامًا في فرنسا بأنه مصري حتى النخاع.

رسالة من موريس سكينازي إلى

موقع بساتين مرسلة من شيكاجو

لقد ولدت عام 1951 وهاجرت من مصر وكان عمري ستة عشر عامًا، أذكر المعبد اليهودي (الأستاذ) في المحلة الكبرى، حيث كان عمي جابر أشكينازيًا، وهوحانوتي اليهود في المحلة حتى حرب عام 1967، ثم غادر إلى أمريكا بولاية نيويورك، لكنني لم اتصل به أبدًا، وكان عمي يحضر إلى القاهرة ليصحبنا بسيارته كل عام لحضور رحلة الحج إلى معبد الأستاذ في المحلة الكبرى، وكانت عائلتي تؤجر شقة بجوار معبد الأستاذ في المحلة لإقامتها التي تستمر بضعة أيام، وكانت فرصة لزيارة أخي الأكبر جابريل، الذي

كان طبيبًا للأسنان في المحلة حتى عام 1967، وكنت منطقة المعبد تسمى الخوخة، وكان عمي يستأجر فرقة موسيقية للآلات النحاسية لتحيي احتفال المعبد السنوي، وكانوا يذبحون الخراف في ساحة المعبد، وكانت اللحوم تشوى ثم نأكلها، وكانت توجد فسقية جميلة في ساحة المعبد، وداخل المعبد بجوار الهيكل كان هناك اثنان من الشمعدانات الكبيرة المصنوعة من الفضة الخالصة، وكانت توجد أوان مملوءة بماء الورد يرش بها المصلون، وما زلت أذكر عدد مجلة (المصور) الأسبوعية الذي كان يحمل على صدره عنوان (اليهود في مصر)، وكان ذلك بين عامي 1963، 1965 وكانت المقالة الطويلة تتحدث عن الحج إلى معبد الأستاذ وتاريخ المعبد، وكان والدي وكثير من الأقارب موجودين في صورة الغلاف وهم يحملون أسفار التوراة، وزرت في المحلة عائلة ساروسكي اليهودية، وهي تعيش الآن في فرنسا.

وفي القاهرة يقول موريس: كنا نسكن في شارع قنطرة غمرة بالظاهر، ثم انتقلنا غلى شارع ابن خلدون في السكاكيني بجوار معبد حنان، الذي كان والدي يصلي فيه لعقود طويلة،

وكان والدي جراح أسنان مشهور، وأجرى العمليات الجراحية للكثير من كبار رجالات الدولة في مصر، وكنت أصغر إخوتي الخمسة، وكنا ندرس في كلية دي لاسال بالظاهر، ولا أذكر الكثير من مقابر البساتين بالقاهرة، وفي الصيف كنا نذهب إلى أبو قير في الإسكندرية، وقد قبض على والدي وعمي في أول يوم من أيام حرب 1967 وطردا إلى إيطاليا في خامس أيام الحرب، واستفادت العائلة من كونها تحمل الجنسية الإيطالية، وتركت مصر في مايو 1968، وقد سجن زوج أختي مدة أطول، لأنه كان بدون جنسية.

وقد زرت القاهرة والإسكندرية بعد عشرين عامًا من هجرتي، لكنني لم أستطع العثور على أصدقاء طفولتي، وأتمنى أن أعرف مكان شريف سعد نجم الذي كان يسكن في المعادي وياسر كمال كشيلا من مصر الجديدة، وشريف محمد الشريف الحسن من عائلة غنيم بالهرم، وكانت عائلة غنيم سوسو، توتو، ثريا زوبا من أعز أصدقائنا.

تعليق: هذا خطاب جميل من يهودي مصري يذكر مصر بالخير، ولا يحمل ضغينة، ويذكر حتى ظروف القبض على

عائلته بموضوعية وحياد.

كنيس الأستاذ

المحلة الكبرى

نشرت البساتين موضوعًا عن تاريخ المعبد وأهميته، وكان قد بنى عام 1884 مع صور من المعبد.

مقالة بعنوان اليهود المصريون في موقع بساتين.

بقلم رالف بنيت

هي مقالة طويلة ألخص منها أجزاء، يتحدث فيها عن تاريخ اليهود المصريين، يقول الكاتب إنه مهتم بالبحث عن أصول عائلته، ومساعدة بقية اليهود على الوصول إلى جذور عائلاتهم، وقد توصل إلى أن عائلة جده كانت من أوكرانيا.

ويقول عرفت القصة الآتية من ابن خالي أوللي ناشنيتز الذي ولد عام 1939، ويعيش في شيكاجو، يقول إن جدي كان لديه ابن اسمه هوسكل، وقد أصبح رجل أعمال غنيًا، وقد ذهب هوسكل في رحلة سياحية على مركب فاخر من ميناء أوديسا لزيارة موانئ البحر الأسود ثم البحر الأبيض المتوسط، وقامت الحرب العالمية الأولى، وانتقلت المركب من ميناء

إلى آخر، والجميع يرفض استقبال الركاب بسبب الحرب، حتى قبلت مصر استضافة السيد هوسكل، وقد علموا بعد وصولهم إلى مصر أن الحكومة الروسية أممت ممتلكاتهم وأصبحوا من الفقراء، واستقرت العائلة لثلاثة أجيال حتى هاجرت بعد 1956، وقد شجعت هذه القصة السيد بنت على عمل دراسة عامة عن تاريخ اليهود في مصر نشرها على موقع بساتين.

الجالية اليهودية بالإسكندرية.

الحفاظ على التاريخ الديني والثقافي.

بقلم إيف فيديدا.

منشور على موقع بساتين.

هي مقالة عن تاريخ اليهود في الإسكندرية اعتبارًا من القرن السادس عشر، وفيها أعداد اليهود المقيمين في الفترات المختلفة وهجرة يهود الإسكندرية، وأين ذهبوا، والمواقع الثقافية والدينية، وفي النهاية تحدثت عن مستقبل الإسكندرية.

حوارات مع يهود مصريين.

حوار: يوسف حزان وريمون استمبوللي.

تمت مقابلة يوسف (سوسو) حزان في منزله في باريس، وقد

قام د. رفعت السعيد بتقديمي إليه، واتصلت به وحددت الميعاد، وقام سوسو بالاتصال بريمون استمبوللي للحضور، وقد حضر معي الدكتور سعيد سلامة والأستاذ فيكتور سلامة صديقاي المقيمان في باريس.

وكان اللقاء حميمًا وعاطفيًا للغاية، فيه حرارة الشوق للقاء يتميز عن كل اللقاءات الأخرى، وعند الحديث مع سوسو حزان وجدت أنه يتمتع بذاكرة حديدية، بالرغم من أنه تخطى التسعين من عمره وضعف نظره، ولد حزان في شارع الخليج المصري (بور سعيد حاليًا) بالقاهرة، وأصل العائلة من دمشق، وهاجرت إلى مصر عام 1860 وكان يعمل مهندسًا زراعيًا في الريف المصري، وعن طفولته قال إنه لم يشعر بأي غربة في الوطن وكان جيرانه هم عائلة إسماعيل على أصحاب مصانع السجاد الشهيرة، وكانوا قريبين منه جدًا، وكان الاختلاف الوحيد بين العائلتين أنهم كانوا يربون الحمام فوق السطح، وهو ما رآه حزان غريبًا، وقال إن والده كان يقرأ (الأهرام) صباحًا، و(البورصة الفرنسية) بعد الظهر، ويقول: كنا دائمًا نتكلم لغتين بالجودة نفسها: العربية والفرنسية.

وفي البيت يتكلمون العربية وأحيانًا بعض الفرنسية، وقال سوسو: دخلت مدرسة فرنسية في الظاهر، لأنها كانت تدرس المنهج المصري بالرغم من أنها فرنسية، ودرست منهج اللغة العربية كاملاً، وحفظت أجزاء من القرآن خاصة بامتحان اللغة العربية.

وردًا على سؤال بخصوص شعوره بوصفه يهوديًا في المدرسة الثانوية، قال إن زملاءه كانوا منه وهو منهم، وكان من المفروض أن يعمل في البنك الأهلي، لأن والده كان يعمل فيه، لكنه سافر إلى فرنسا، وتعليقًا على فترة دراسته في فرنسا، يقول إنه في مصر لم يشعر بأي تفرقة مع أي مصري، لكن في فرنسا شعر بالتفرقة لأنه يهودي، ففي انتخابات اتحاد الطلبة في الجامعة الفرنسية انتخب سوسو أمينًا لصندوق اتحاد الطلبة، وصاح الطلبة الفرنسيون قائلين، هذا هو المنصب المناسب ليهودي، ويقول سوسو إنه لم يسمع هذه الكلمة قط في مصر.

ويقول سوس إنه إحقاقًا للحق، فإنه ذات يوم عندما كان يستقل الترام، قال أحد الركاب إن العملة سوف تنقص في مصر، لأن اليهود سوف يجمعونها، وذات يوم آخر قال له

طبيب أسنان مصري أثناء لعبهما البلياردو سويًا إن القوات الألمانية على أبواب الإسكندرية، وحين يصلون إلى القاهرة سوف أسلمك، واندهش حزان لأنه لم يسمع كلمة مشابهة قبل ذلك طوال حياته.

وقال إن أصدقاءه كانوا مسلمين ويهودًا وأقباطًا، ويقول إنه كان عضوًا في نادي المكابي اليهودي ـ فرع الظاهر، وطلب منهم الانضمام إلى الكشافة المصرية، على حين كانت نوادي المكابي منضمة إلى الكشافة الدولية، وبعد انضمامهم إلى الكشافة المصرية فتحوا النادي اليهودي لانضمام مسلمي الظاهر وأقباطه، ودخلت عائلة إسماعيل نادي المكابي، وكذلك عائلة سميكة.

وسألته: هل كان يذهب إلى المعبد اليهودي فأجاب، إن أباه لم يكن يؤمن بالأديان، لكن عمه كان شديد التدين ويصلي عدة مرات في المعبد يوميًا، أما حزان فقد درس الدين حتى سن الثالثة عشرة، وأقيم له احتفال البلوغ المهم لليهود لكنه لم يكن مقتنعًا، وقال لعمه إنني لن ألبس هذه الملابس مرة أخرى، ويقول يوسف حزان إنه كان يشعر دائمًا بالفلاحين والعمال المصريين، وعندما كان مديرًا لمصنع في الإسكندرية كانت

علاقته بالعمال ممتازة، وكان يختلط بهم ويتحدث معهم، ولما ذهب للعمل في الفيوم شعر بالشقاء والبؤس على حد قوله، ولما كان في المدرسة كانت هناك أنشطة وطنية، وحين حاول أحد رؤساء الكشافة العالميين الزائرين لمصر إقناعه بترك الكشافة الوطنية والانضمام مرة أخرى إليهم رفض حزان.

وقال إنه لم يبدأ القراءة إلا عام 1946، وكان السبب في دخوله عالم السياسة شعوره بالفقر المدقع والبؤس الشديد للفلاحين في الفيوم، وانضم إلى الحزب الشيوعي عام 1946، حين انخرط في تنظيم اسكرا، وقال إن الحكومة السعدية اعتقلته عام 1949، وكان في نفس المعتقل مع الإخوان المسلمين، وقال إنه علم الإخوان المسلمين كيف يدافعون عن حقوقهم، وعندما استغرب الإخوان من ذلك، قال حزان أنتم مضطهدون مثلي تمامًا، ويجب أن أدافع عنكم حتى لو اختلفت أفكاركم عن أفكاري، وكانت النتيجة أنه بعد ثلاثة نقاشات انضم ثلاثة من شباب الإخوان إلى الحزب الشيوعي، وبعد ذلك طلب زعماء الإخوان المسلمين مقابلتي، وتقابلنا، وطلبوا مني المساعدة في الاتصال بعائلاتهم في

الخارج، ووافقت على تهريب الخطابات إلى الخارج لكن على أن تكون كل الخطابات مفتوحة لأقرأها أولاً، وكل خطابات الإخوان خرجت سريًا على يدي من السجن.

وقال يوسف حزان إن ابن عم والده كان في الحزب الشيوعي المصري الأول الذي تأسس في أوائل القرن العشرين وذهب مع حسني العرابي إلى مؤتمر الأحزاب الشيوعية في موسكو، وكان موجودًا عندما وقف العرابي زعيم الحزب الشيوعي المصري، وقال سوف أحضر لكم مصر على صينية، فسأله ستالين: كيف؟ فأجاب، أعطني خمسة قروش لكل ناخب وسوف أجعلهم ينتخبون الشيوعيين، فقال له ستالين: أنت لا تفهم شيئًا عن الشيوعية فقال له عرابي: يجوز ألا أفهم شيئًا عن الشيوعية، لكنك لا تفهم شيئًا عن مصر، ونتيجة لذلك أخرجوهم من المؤتمر، وكان وفد من الشيوعيين الإيطاليين في انتظارهم على الباب، وأعطوهم تذاكر للسفر إلى مصر عن طريق بولندا، وقالوا لهم: لو بقيتم في موسكو حتى الغد، سوف تنقلون إلى المعتقل في سيبيريا، وقد سألت حزان عما إذا كان ابن عم والده ـ رفيق العرابي في الحزب الشيوعي المصري ـ هو الذي أقنعه بالشيوعية،

فقال: لا أبدًا، فلاحو الفيوم الفقراء قطعوا قلبي، وبعد عودتي من الفيوم قرأت الكتب الماركسية بالفرنسية والإنجليزية.

وسألته عن سبب انضمام نسبة كبيرة من اليهود المصريين إلى الحركة الماركسية فقال حزان إن ذلك تولد بعد حادثة كوبري عباس عام 1946 لكن ريمون استمبوللي قاطعة قائلاً: السر هو معرفة اليهود باللغات الأجنبية، لأنه لم تكن في ذلك الوقت كتب اشتراكية باللغة العربية، وقد قيل إن السبب في عدم انتشار الماركسية بين المسلمين هو تعارضها مع العقيدة الإسلامية، لكن ريمون استمبوللي اعترض على ذلك، وقال إن الشيوعية كانت الطريقة التي تجعلنا جميعًا متساويين في قارب واحد.

وأصر ريمون استمبوللي على رأيه قائلاً: أنا أعرف مصر جيدًا، وأكلمك عن تجارب شخصية، لقد كان مستحيلاً على أي شاب لا يعرف إلا العربية التعرف على الماركسية، فقد كانت كلمة الاشتراكية ممنوعة في كل الحكومات، ولا يسمح بترجمة أو تداول كتب عنها إلا في حدود ضيقة جدًا، وقال استمبوللي إن شيخ الأزهر اجتمع مع بعض الشباب، وقال إن الشريعة الإسلامية تحبذ أن يكون الأمر شورى وتشجع

المناقشة والاجتهاد بين الناس، ونشرنا الكتب الخضراء عن هذا الموضوع، وقال ريمون استمبوللي أيضًا إن ميزة اليهود معرفتهم باللغات الأجنبية، ودورهم الأساسي كان همزة الوصل بين الأجانب والمصريين، وقال إنه طرد من مصر لأنه تخرج في جامعة القاهرة وأنه شيوعي، وكانت المباحث تسميه الشيوعي الصهيوني، لأن الشيوعيين قبلوا تقسيم فلسطين، وقال حزان إنه وريمون كانا عضوين في حمتو، حتى أمر التنظيم بسفرهم إلى الخارج.

وقال إن أول كتاب ماركسي ترجم إلى العربية كان عام 1945 حين ترجم البنداري باشا سفير مصر في موسكو كتاب لينين (الاستعمار: المرحلة النهائية لتطور الرأسمالية) وقد نشر في طبعة ممتازة في مصر.

وقال يوسف حزان إن عائلته كان لديها جنسية فرنسية، لأن أباه ولد في دمشق، وكانت تخضع للحماية الفرنسية.

وقال حزان إنه في عام 1937 بعد أن ألغيت الامتيازات الأجنبية مع إعطاء فترة سماح اثني عشر عامًا، قال والد يوسف لابنه الشاب الصغير: من الممكن أن تعمل باللغات الأجنبية التي تعلمتها، لكن المصريين بعد 12 سنة سوف

يملكون البلد بالكامل، وإذا كنت تريد أن تعيش في مصر لابد أن تتعلم العربية كأهلها، وإذا كنت تريد أن تعيش في أوروبا يجب أن تجهز نفسك لمغادرة البلد عام 1948 عند انتهاء قانون الامتيازات الأجنبية، فاختار يوسف حزان البقاء في مصر، والتحق بالبكالوريا المصرية، ودرس كل المواد بالعربية، وكان في ذلك صعوبة له، وقال لأبيه، إنني سوف أتعذب بهذا الاختيار، فقال أبوه: إذا كان اختيارك البقاء في مصر، يجب أن تدخل الامتحان العربي، وفعلاً حصلت على البكالوريا المصرية، والتحقت بكلية الحقوق، وأختار أخي التعليم الفرنسي، وغادر مصر إلى أوروبا.

وقال يوسف حزان إنه تقدم للحصول على الجنسية عام 1938 ولم تكن هناك مشكلة في حصولنا عليها، لكن كان هناك من اليهود المصريين الفقراء من لم يتقدموا للحصول عليها، أذكر أنه في عام 1957 ذهب وفد لاستقبال اليهود الخارجين من مصر أثناء النزوح الكبير في تلك الفترة، فسالت السيدة اليهودية المصرية: أين الجنوب؟ فأشاروا عليها بالاتجاه إلى الجنوب، فتوجهت ناحيته وقالت: نفسي أعض عضة من لحمك يا جمال (تقصد عبد الناصر) لأنها رأت أن

خروجهم من مصر فيه ظلم فظيع.

وعندما سألت يوسف حزان عن تأثير إسرائيل وعملية سوزانا على علاقة اليهود المصريين بوطنهم، قام ريمون استمبوللي بالرد على سؤالي قائلاً: يهود مصر كانوا في حالة قلق، وكان هناك شعور بأن شيئًا سوف يطيح بهم، وعندما حدثت فضيحة لافون وقنبلة سينما مترو، شعروا بأن هناك شيئًا انكسر في مصر، وثقة المصريين في اليهود ضاعت، وقال الخطأ كان من إسرائيل، وقد فعلت ذلك لكسر الثقة وإشاعة القلق بين اليهود حتى يهاجروا إلى إسرائيل.

وقال حزان إنه سجن ـ هو وريمون استمبوللي ـ في 15 مايو 1948 حتى سبتمبر 1949 ثم سافر إلى فرنسا بعد ذلك بأمر التنظيم الشيوعي المصري، وحضر إلى مصر ست مرات، من عام 1970 حتى عام 1989 ودائمًا كان يقابل رفعت السعيد عند حضوره إلى باريس، وأضاف حزان لقد سجنت، ليس لأنني يهودي، وإنما لأنني شيوعي، وقالوا لي: يهودي معاش إنما ملحد لأ.

وقال ريمون إن سبب دخوله ـ وهو ويوسف حزان ـ في التنظيم الشيوعي عام 1945، وجود أسئلة في المجتمع

المصري لم يستطع أهلونا أن يجيبوا عنها، لأنه كان هناك شعور عام بين اليهود المصريين بأنهم لابد أن يبقوا خارج السياسة، وأن السياسة ليست لليهود، وبالرغم من أن والد يوسف حزان كان تقدميًا، إلا أنه لم يكن يريد لأولاده الدخول في عالم السياسة، لكن ريمون ويوسف حزان قاوما هذا التفكير وقالا: إننا مثل باقي الشبان المصريين لنا آراء يجب أن ندافع عنها، ومن الممكن أن نخطئ، ومن الممكن أن نكون على حق، وقال يوسف حزان: كيف أرى الفلاحين المصريين يموتون من الجوع ويضربون ويهانون، وتتم بهدلتهم، وأقف دون أن أقاوم ذلك؟ لقد كان ذلك غير ممكن، لأنني رأيت هذه الأشياء بعيني عندما كنت في الفيوم، ورأيت العمال الفقراء ينهبون ولا يتقاضون أجورهم، كيف نتركهم؟ هذا غير معقول. ورد استمبوللي قائلاً: لقد كنت من مثقفي جامعة القاهرة، وقابلت أناسا لديهم أفكار أكثر تقدمًا، وأصبحنا أصدقاء، منهم: علي الشلقاني، ظريف عبد ا ، أحمد الجندي الأخ الأكبر لمحمد الجندي، نبيل الهلالي، لطفي الخولي، ووكيل النيابة الذي تزوج إنجي أفلاطون، وكل هؤلاء كانوا يشعرون بأن المجتمع المصري مريض، لكن

المرض غير مفهوم، وإذا كان مفهومًا فلا نستطيع الكلام عن أشياء ـ مثل الإقطاع والباشوات ـ لم يكن مسموحًا بالتكلم عنها، وأشار إلى أنهم أنشأوا دار الأبحاث العلمية مع شهدي عطية وجمال غالي وعبد المعبود الجبيلي وأنور عبد الملك، وقال إنه عمل مع أنور عبد الملك لمدة خمس سنوات، وقال إنه كان مثل أخي، وقال نظمنا محاضرات ومناقشات في دار الأبحاث العلمية وحاولنا أن نفهم معنى الفاشية، لأن المصريين في تلك الفترة الأولى كانوا يعتقدون أن الفاشيين هم الثوار، لكن هل هي ثورة في الاتجاه الصحيح أم الخطأ، ولقد حاولنا شرح ما حدث في أسبانيا، وقد كنا فعلاً على هامش العالم.

وأجاب على سؤال عن أهمية الشيوعيين المصريين في فرنسا (مجموعة روما)، قال يوسف حزان لقد كان تأثيرًا مهمًا جدًا، ثم قال: وسوف أضايق صديقي رفعت السعيد قليلاً، حين أقول إن اليهود لعبوا دورًا أساسيًا حيث كانوا همزة الوصل بين الثقافة الأوروبية والثقافة الوطنية العربية، بمعنى أنهم نقلوا التفكير الاشتراكي الأوروبي إلى مصر التي لم تكن فيها تقاليد اشتراكية، وكانت معرفة اليهود باللغات ـ

وكذلك الثقافة العربية ـ هي التي أدت إلى إنشاء دار الأبحاث العلمية وقد وضعنا بؤرة الاشتراكية في الأرض المصرية، وحين بدأ النبات يكبر أخذونا من زورْنَا وطلّعونا خارج مصر،وقالوا لنا اخرجوا، لكن عمومًا البذرة بقيت في مصر، وقال يوسف حزان: لقد كنا نمثل مصر أثناء كفاحنا لتحرير الجزائر، وقال استمبوللي: حين تقرأ مذكرات حمروش تعرف أنه تأثر بالمناقشات في دار الأبحاث العلمية، وحين تعرفت عليه هناك لم أكن أعرف أنه ضابط.

وقال يوسف حزان: لقد اتصلنا بأنصار السلام في إسرائيل في مؤتمر حضرته مجموعة من الشيوعيين من بولونيا وفينسيا وفلورنسا، وحضره أعضاء من (ركاح) الحزب الشيوعي الإسرائيلي، ثم حضر خالد محيي الدين، وكان هناك مشروع يتمثل في أن يقابل عبد الناصر شاريت في قبرص، لكن بن جوريون أفسد المشروع، وأرسل شاريت إلى نيوزلندا، وقال استمبوللي إن مجموعة اليهود المصريين في فرنسا كانت حلقة ربط مع الحركة الشيوعية العالمية، وقال حزان عندما حضرنا أنا وريمون مؤتمر المحامين في بلجيكا كنا مرميين زي الكلاب، مثل كل العرب، وكما نمثل

الشيوعيين المصريين، وساعدنا شيوعيو مصر على الانضمام إلى الحركة العمالية وقال إنه هو الذي أدخل السودانيين FSM، وكنت أعرف المحجوب وكنا ننام في سرير واحد، وكان عبده دهب أعز صديق لي وعندي صور كثيرة التقطت لنا معًا.

وقال سوسو حزان إنه كتب رسالة من داخل السجن، وقال: ارتباطنا بمصر ارتباط مستديم، ولابد أن نذهب إلى آخر خطوة فيه، وقال سوسو إنهم استطاعوا أن يتصلوا بالشيوعيين المصريين، رغم أنف القيود الصارمة من الحكومة المصرية.

وعن المستقبل قال ريمون استمبوللي إن الأصل في وجود الاستعمار في الشرق الأوسط هو وجود احتياطيات كبيرة من البترول في الخليج، ويقول إن وجود إسرائيل ليس له معنى بدون كلمة بترول، والشيء الذي يغيظني هو سكوتكم عن موضوع البترول، وهو أساس كل الحروب والانقلابات والثورات والظروف الصعبة.

وقال إن أصحاب البترول لا يكافحون وإنما يقبضون، ولا يمكن أن تفهم صعود التيار الإسلامي بدون فهم لدور

البترول، والتيار الإسلامي سوف يكبر ثم ينهار، وقال حزان إن ذلك ضد مصالح شعب مصر، ولا يحمل روح مصر، وسبب صعود التيار الإسلامي هو أن الحكومة ضعيفة جدًا، والتيار الإسلامي ضعيف.

وعندما سألت يوسف حزان: ماذا تريد أن تقول للمصريين؟ قال: اصح من النوم، شعب مصر يضعف وينهار، أما نحن فبدون مساعدة عالمية كونا حزبًا وتيارًا، وعن سبب خلافهم مع مجموعة إسماعيل صبري عبد ا وفؤاد مرسي، قال: لقد طلبوا منا ألا نساعد الشيوعيين في مصر، وصوتوا ضدنا أنا واستمبوللي، وقام الحزب الشيوعي الفرنسي بحل المشكلة، ولقد كنت أجمع أموالاً لمساعدة جميع المجموعات الماركسية المصرية، وحين طردونا من المجموعة كان ذلك لأننا يهود موجودون خارج مصر، ورأى حزان ذلك فضيحة، وقال إن القرار وقعه رفعت السعيد وزملاؤه، وقال إنهم في آخر الخطاب طلبوا منهم الاستمرار في مساعدة الشيوعيين المصريين، يعني أنتم مطرودون، لكن أرسلوا إلينا أموالاً.

وقد حضر حزان إلى مصر مرتين أيام السادات، وأرجعوه

على الطائرة نفسها إلى باريس، وفي المرة الثانية طلب له الضابط نصف كيلو كباب ليأكله حتى قيام الطائرة مرة أخرى إلى باريس.

الحوار الثاني ألبير أوديز

ألبير أوديز يهودي مصري ولد عام 1925 في شارع الخليج المصري بالقاهرة، قابلته في باريس، وقال إنه دخل مدرسة ابتدائية يهودية كان يمولها قطاوي باشا، وبعد ذلك قال له أبوه إنه سوف يدخل مدرسة ثانوية فرنسية تدرس المواد العربية، وفرح بذلك بالرغم من أن دراسة العربية كانت تعد صعبة، ولكنه وقع في غرام هذه اللغة، ويقول عنها إنها لغة جميلة لدرجة أنني كتبت كتابًا عن الأمثال العربية ودرس الإيجاز والإطناب، وقال إنه لم يهتم بالسياسة المصرية إلا في مرحلة متأخرة، وقال إنه كان يسكن في الظاهر والسكاكيني، وقد كتب كتابًا عن حي الظاهر، ولم يكن عنده توجه سياسي إلا حين بلغ من العمر نحو عشرين عامًا، وقال كنت أرى الفلاح المظلوم في أفلام يوسف وهبي، وشاهدنا فيها من ملك آلاف الأفدنة في الوقت الذي كان فيه هناك الملايين من المعدمين، وأثناء فترة الحرب بدأنا نسمع عن

الجدلية والماركسية، ويقول: كل منا كون فكرة، وبدأ اهتمامنا بالشيوعية، لكن الشيوعية في مصر كانت خطرة لأنها كانت تؤدي إلى دخول السجن، وكنا خائفين من مجرد التحقيق معنا بواسطة شاويش مصري، وفي الأربعينات حاولنا أن نساعد المصريين، وكان من المهم وجود مصريين غير يهود معنا، حتى يستطيعوا مساعدة المصريين أكثر.

وقال أوديز إنه قبل حرب 1948 وضعت قنبلة في سينما مترو، وقد قامت الحكومة بالقبض على كل الشيوعيين، بالرغم من علمهم بأن الشيوعيين ليس لهم دخل بالموضوع، وعند ذهابي إلى المنزل مساء قابلت شخصًا أخبرني بأنه رأى أحد الأصدقاء مقبوضًا عليه عن طريق اثنين من رجال البوليس، وحين كنت أصعد السلم في المنزل صاحت في والدتي قائلة سلم نفسك للبوليس، وفعلاً قبض علي، واستطرد أوديز: إننا ندين بالحب والولاء والفضل لمصر، ولدينا تراث كبير في مصر، نحبه ونريد لأبنائنا أن يعرفوه، وسألته عن أي مضايقة حدثت له في شبابه في مصر، فقال كنت أنفخ في الترومبيت (إحدى آلات النفخ الموسيقية) مع فريق الكشافة في الشارع، وكنا نحمل الراية اليهودية، وكان المصريون في

الشارع يصفقون لنا، وقال إنه اشمأز من صعود حسن البنا، ورأى شباب الإخوان المسلمين في مسيرتهم، وكان أحدهم في المقدمة يحمل المصحف وشعرت بأن في هذا تعسفًا، وكان ذلك قبل عام 1948.

وقال إنه كان يقرأ الكتب الفرنسية،ويستمع إلى أم كلثوم، ويحضر مسرحيات نجيب الريحاني، وقال: كنت أقرأ جريدة البروجريه الفرنسية ولغتي العربية تحسنت في فرنسا.

وقال إن عائلتي لم تكن قلقة على المستقبل في الثلاثينات، ولم تكن عندي مشكلة.

وقال: ولد جدي في الجزائر وهاجر إلى القدس عام 1896 وأنجب تسعة أطفال، وجاء والدي من القدس إلى مصر عام 1912، واشتغل وتثقف وأنجب خمسة أطفال أنا واحد منهم، وخلال أربعة أجيال انتقلت عائلتي إلى ثلاث قارات وأربع مدن، أي أنها مثال للعائلة اليهودية، وقال إنه لم يشاهد تدمير أي ممتلكات يهودية، لكنه سمع عن ذلك، وقد زار مصر أربع مرات، أخرها عام 2000، وزار إسرائيل مرتين، آخر مرة عام 1985.

الحوار الثالث: أندريه كوهين

قابلته في باريس، وقد ولد أندريه في طنطا عام 1931 وعاش فيها إلى أن ذهب عام 1942 إلى الإسكندرية للدراسة، وقد حضر أهله إلى مصر عام 1700 وكان لديهم طاحونة للحبوب في طنطا، وفي الإسكندرية ذهب إلى مدرسة يهودية غير دينية وكانت مدرسة تقدمية، ولدى المدرسين توجه سياسي، وكان معه في المدرسة جاك حسون.

وقد قبض على أندريه عام 1953 وأودع في السجن الحربي، وتمت محاكمته أمام محكمة عسكرية، لكن محمد نجيب أفرج عنهم، ولم تكن معه جنسية مصرية، ويقول إنه لا يعلم لماذا لم يذهب والده لطلب الجنسية المصرية، وعندما ذهب كان الوقت متأخرًا، وذلك عام 1944، حيث طلبوا منه أوراقًا كثيرة، وشجعه البوليس المصري على الهجرة إلى الخارج، بل وطلب منه الذهاب إلى فرنسا.

وانتقلت العائلة إلى الإسكندرية عام 1942، وكان يقرأ الصحف والكتب الفرنسية، وكان مستواه في اللغة العربية أضعف بكثير من الفرنسية، وكان يستمع إلى أم كلثوم وعبد الوهاب بجوار الموسيقى الفرنسية وبرامج الراديو المصري

الفرنسي، وكان المسئول عنه راشيل حزان، وكان اسمها في الإذاعة نيكول دراس، ولم تكن عائلته تخشى المستقبل، وكانت المشكلة الوحيدة أنه كان شيوعيًا، لذا كان معرضًا للاعتقال، وقد ترك أبوه مصر فجأة مع إخوته عام 1957 وقال إنه ارتبط بالماركسية بسبب المدرسين الفرنسيين في مدرسته، وكان هناك أمل في السلام في الشرق الأوسط، وقد تزوج في الإسكندرية، ورفض الذهاب إلى إسرائيل، ولم تكن لديه تأشيرة دخول إلى فرنسا، لكنه استطاع أن يحصل عليها، وسافر ليعيش هناك، وقال إنه زار مصر خمس مرات وإسرائيل ثلاث أو أربع مرات، وقابل البواب والبقال في مصر.

وعندما وصل إلى المطار في أول زيارة إلى مصر عام 1980 قال له ضابط البوليس ـ وكان من طنطا ـ هل أنت من عائلة كوهين في طنطا؟ وذلك عندما قرأ أنني ولدت هناك، فقال له: اذهب إلى طنطا، بيتكم ما زال قائمًا هناك.

الحوار الرابع: السيدة مادا ماير (جنيف)

عرفني عليها الدكتور هاني سكر رئيس شركة سيرونو للأدوية في الشرق الأوسط، عن طريق إحدى موظفات

الشركة في جنيف، وقابلتها في مطعم في مدينة جنيف في سويسرا.

وقد ولدت في مايو 1941 وكان اسمها قبل الزواج مادلينا تويتا، وكانت تعيش في الزمالك في 17 شارع شجرة الدر، في بيت جميل بحديقة، وقد ولدت في مصر، وأصول والدها ترجع إلى خمسة أو ستة أجيال في مصر، وبعد أن طردت العائلة من أسبانيا عاشت في تركيا، ثم هاجرت إلى الإسكندرية، والتحقت بالمدرسة الكاثوليكية بالزمالك، لأنها بجوار منزلها، ثم منها إلى مدرسة الكورموران الفرنسية، ثم إلى المدرسة الإنجليزية للبنات، ثم إلى الليسيه فرانسيه في باب اللوق، وكانت جنسية العائلة أسبانية، بالرغم من أن جديها كانا مصريين مائة بالمائة ويتكلمان العربية فقط.

وعن طفولتها قالت إنها كانت سعيدة جدًا، ولم تشعر بالغربة قط في مصر، وقالت: ولن أنسى أنني مصرية وأحب مصر، وأفكر فيها بصفة دائمة، ولا يزال قلبي في مصر، ولا يزال هذا الجزء من حياتي هو الهدية الجميلة التي أحملها.

وقال أبوها لأمها إنهم نسوا مصر بعد أن غادروها، ولم يتكلموا عنها بعد ذلك، لكنني ـ تقول ـ أشعر أن جزءًا

مهمًا من حياتي قد توقف وفقد مني ومن طفولتي، أنا لا أشعر أنني أسبانية ولا أعرف اللغة الأسبانية ولم أر أسبانيا، وأنا أفضل أن أبقى مصرية مائة بالمائة.

وكان لنا أصدقاء من المصريين واليونانيين والإيطاليين والإنجليز والفرنسيين، وكان المجتمع غنيًا جدًا بالثقافة والتنوع، وكان والدي يكره فكرة الجيتو، وكان صديقًا للقسيس الذي كان مندوبًا عن الكنيسة التي كانت تملك المنزل الذي كنا نسكن فيه، وكنت أذهب إلى الكنيسة مع أصدقائي، ولم أكن أبدًا يهودية متدينة، وكنت ألعب الجولف في نادي الجزيرة، وكان مدربي اسمه حسنين، وكان أيضًا لاعبًا ممتازًا، وعندنا بيت في العجمي، ولا يزال أصدقاؤنا هناك يرعون منزلنا، لا أريد العودة إلى مصر للزيارة لأنني لن أجد أبي ولا أمي، وهذا شيء صعب علي.

وكان أبوها يعمل في تجارة الخردة في وكالة البلح، ولها أصدقاء من أيام المدرسة موجودون في أستراليا وأمريكا وأوروبا، ويلتقون كل ثلاث سنوات. ولم تتذكر أي جريدة كانوا يقرأونها في المنزل، وأكدت أنهم كانوا يتكلمون في المنزل الفرنسية، لكنهم كانوا يتكلمون العربية مع محمد

الخادم، وقالت إنه بعد وفاة والدي الذي كنت أتحدث معه بالعربية ضاعت اللغة العربية بالتدريج. وفي العام الماضي ذهبت لزيارة المغرب، وعندما سألوها: ما جنسيتك؟ أجابت بأنها مصرية، وبالتدريج عادت اللغة العربية إليها، وكانت تستمع إلى برنامج (ما يطلبه المستمعون) في البرنامج الأوروبي، أما أبوها فكان يستمع إلى الأغاني المصرية، وكان يحب أم كلثوم. وقالت إن أباها عام 1948 شعر بالخوف، وقررت العائلة الهجرة من مصر إلى باريس، ومعها المربية ومحمد السفرجي الذي تربى بين العائلة منذ كان طفلاً عمره أربع سنوات، وقد علموه القراءة والكتابة، وبعد أقل من عام طلبت الأم العودة إلى مصر وكان الأبناء في منتهى التعاسة في باريس، وعادت العائلة إلى مصر بدون مشاكل، وهكذا تركنا مصر بدون سبب، وعدنا إليها أيضًا بدون سبب. وفي ديسمبر عام 1956 قررت العائلة بدون سبب أيضًا مغادرة مصر نهائيًا، وقالت أمها إنها شعرت بالخوف فجأة، وذلك بدون أن يضايقنا أحد.

وسألتها عن وجود أخطاء ارتكبها عبد الناصر، فقالت إنه أثناء حكم فاروق كان لابد أن يحدث شئ، وتمنت لو أن

محمد نجيب استمر في الحكم. وفي تصورها أن ذلك ربما أدى إلى نظام ديمقراطي.

وتعتقد أن قيام إسرائيل هي السبب المباشر لكل المشاكل، وقالت إنه لم يسئ أحد معاملتهم أثناء مغادرة مصر، وكان محمد وزوجته يبكيان بحرقة بسبب مغادرة العائلة.

وتعتقد أن السلام لابد أن يحل في الشرق الأوسط، لكنها لا تعتقد أن ذلك سوف يحدث في المستقبل القريب، وتقول إنه ما دام شارون في الحكم فلا أمل في السلام وتقول إنه بعد أن يذهب شارون لابد أن يذهب عرفات، وتعتقد أن الصعود الإسلامي في مصر ليس له علاقة بمشكلة الشرق الأوسط، لأنه يحدث في كل العالم، وتقول إنها تأكل الملوخية، وافتتحت محلاً للمنتجات المغربية والمصرية في جنيف مع بعض الشركاء المغاربة.

وقد ذهبت مرة إلى إسرائيل، ومرة إلى مصر، لكنها أخذت تبكي طوال فترة الرحلة في مصر، وقد كانت تقرأ كل شيء عن مصر، وفي النهاية قالت إن مصر أجمل شيء في الدنيا، وأجمل شيء في حياتها، وعقب زوجها المحامي السويسري المسيحي على ذلك قائلاً إنه منذ زواجهما منذ أكثر من

ثلاثين عامًا، وهي تقول له كل يوم إن مصر أحسن وأجمل شيء في الدنيا.

الحوار الخامس: سام حكيم (جينيف)

عرفني على الأستاذ سام حكيم صديقه الأستاذ طلعت بدراوي الذي اتصل به ووافق على مقابلتي، وقابلته في بوفيه محطة القطار في جنيف، وكان اسمه في مصر سامي مراد حكيم، وقد ولد في القاهرة في حي السكاكيني عام 1931 من أب من القاهرة وأم من الإسكندرية، وعائلتا الأب والأم من اليهود السفارديم، وأصل عائلة الأم من تسالونيكي باليونان حين كانت جزءًا من الدولة العثمانية، وكان جده لأبيه من أصول عثمانية أيضًا، وله أختان ولدتا عامي 1944، 1948، وغادر مصر في فبراير 1957 وتزوج فتاة غير يهودية تعرف عليها في زيارة إلى إسرائيل، وكان يسكن في شارع يوسف الجندي في القاهرة، والتحق بمدرسة الليسيه فرانسيه، ثم كلية فيكتوريا عام 1930، وكان لها فرع في شبرا، وكان أبوه رئيسًا لقسم الإحصاء في بنك التسليف الزراعي بالقاهرة، وكان أصدقاؤه من مدرسة فيكتوريا حتى أنهى دراسته عام 1948، المرة الوحيدة التي أحس فيها

بالاضطهاد كانت عندما طلبت السلطات الأمنية من اليهود الانتقال من مساكنهم في منطقة باب اللوق، لأنها كانت تطل على المبنى القديم لجامعة الدول العربية، وبالفعل استأجروا شقة في مصر الجديدة، وفي آخر لحظة ألغي الأمر الصادر لليهود بمغادرة المنطقة، وتزوجت أخته يهوديًا مصريًا عام 1952 ووضعت طفلها الأول عام 1956 وهاجرت إلى سويسرا، على حين هاجر شقيق زوجها إلى إسرائيل، والشقيق الآخر إلى البرازيل.

وبعد حصوله على الثانوية العامة عام 1948 أراد دراسة الطب، لكنه فكر في أن هذا الوقت ليس مناسبًا للالتحاق بالجامعة في مصر، ولم يكن في مقدور أبيه إرساله لدراسة الطب في الخارج، وعمل في توكيل وستنجهاوس ـ وكان عمره سبعة عشر عامًا ـ حتى عام 1956 واشترك في نادي اليخت، وكان له نشاط اجتماعي، وبالرغم من أنه لم يكن عضوًا في نادي الجزيرة، إلا أنه كان يذهب مع الأصدقاء لركوب الخيل هناك في الصباح، ولم يكن لسام أي نشاط ثقافي، ويرى أن أعز أصدقائه في مصر الأستاذ يوسف مظهر، نجل الدكتور خليل مظهر رئيس قسم الولادة بقصر

العيني في ذلك الوقت، وكان يقرأ من الصحف المصرية الجازيت الإنجليزية والبروجريه الفرنسية.

ويقول إنه لم يشعر بأي مضايقة لكونه يهوديًا، وعندما سألته ألم يشعر بقلق؟ فقال: لا، وسألته: حتى من الإخوان المسلمين؟ فأجاب ربما في عام 1948 وقال إنه حتى أيام العلمين لم نكن قلقين، ولم يكن عندي تفكير سياسي، ولم أفهم احتمال التداعيات. وكان والده يحمل الجنسية المصرية، وكذلك سام، ويقول إن والده لم يشعر بأي قلق طوال حياته في مصر، وعندما غادر مصر أعطى وثيقة سفر للخارج، مع حرمانه من العودة، وبدأ سام اهتمامه بالتاريخ الفرعوني في باريس، وتعرف على الدارسين المصريين هناك، وقال إنه لم يشاهد أي اعتداء على الممتلكات اليهودية في مصر في شبابه.

وعن أخطاء عبد الناصر قال إنه كان ينوي طرد كل الأجانب، وليس بالضرورة اليهود، ويقول سام إنه لم يطرد من مصر، وإنما قرر الهجرة لأنه رأى الكثيرين من اليهود يتركون مصر، ولم تكن هناك مضايقات له، وقال إن ما حدث لليهود حدث في مرحلة لاحقة لبعض الأقباط

والمسلمين الذين قرروا الهجرة، ويقول إن أقل نسبة من اليهود في البلاد العربية هاجرت إلى إسرائيل إنما كانت من مصر، وفضل معظم اليهود المصريين الهجرة إلى أوروبا أو العالم الجديد، ولا يعتقد سام أنه كان لإسرائيل دور في طرد اليهود من مصر، ويعتقد أن المستقبل القريب للشرق الأوسط مظلم، لكن في يوم ما سوف تولد دولة فلسطينية، وهذا هو الحل الوحيد لمشكلة الشرق الأوسط. ويعتقد أن التطرف الإسلامي سببه اليأس من أي حل لمشاكل أفراده.

ويقول إنه يحب مصر ويتذكر شبابه فيها، ويرى أن المصريين شعب عظيم، وعندما سألته: هل تفكر في مصر؟ أجاب: دائمًا، وأنا عضو في الجمعية الفرنسية المصرية، وأذهب إلى ناديها الثقافي كل أسبوع، وتعرفت على صلاح النجار هناك، وقد غادر والد سام مصر في نهاية 1957 عن سبعة وخمسين عامًا، وبدأ يعمل في فرنسا، وقال إنهم لم يكونوا يملكون شيئًا يستحق البيع قبل سفرهم، وعن إسرائيل قال إنه زارها مرتين، وهي بلد عظيم، لقد حولوا الصحراء إلى جنة ولي أصدقاء إسرائيليون، كانوا أصدقاء عمل، ثم تحولوا إلى أصدقاء شخصيين، وهناك بعض الأقارب الذين

هاجروا إلى إسرائيل، وأنوي الحضور إلى القاهرة لمدة ثلاث أسابيع تقريبًا.

الحوار السادس: حوار مع ميشيل (باريس)

عرفني على السيدة ميشيل (طلبت عدم كتابة اسم العائلة) الأستاذ زهير الفار، وقد ولدت ميشيل عام 1928 في شارع فؤاد بالإسكندرية، والعائلة كانت موجودة في الإسكندرية لثلاثة أجيال، وكان أبوها من رجال الأعمال، وتزوجت في القنصلية الفرنسية عام 1955 فرنسيًا كاثوليكيًا، تعرفت عليه أثناء دراستها للديكور والمجوهرات في فرنسا، وكانت طفولتها - كما تقول - رائعة، تذكر نادي سبورتنج، وقد التحقت بالمدرسة الإيطالية في فيكتوريا، ثم المدرسة الفرنسية في رشدي بعد إغلاق المدرسة الإيطالية بسبب الحرب، وكان جيرانها من اليونانيين والشوام، ولم تشعر بالغربة طوال فترة طفولتها وشبابها، ولم تكن متدينة وكانوا يقرأون الجازيت وصحيفة إيطالية وكانت لغتها العربية ضعيفة جدًا، وأحضر والدها مدرسًا للغة العربية لأخيها، وكان الأب والأخ يجيدان العربية، ولم يحدث أبدًا ما يضايقني لكوني يهودية في أي فترة من حياتي، ولم يترك أبي وأمي مصر إلا عام 1962

وربما يعرف أخي الأكبر أكثر مني عن الأوضاع السياسية.

وتعتقد أن اليهود هاجروا من مصر، مثل جميع الجاليات الأخرى الأجنبية، وهي تتذكر مصر دائمًا، وذهبت عدة مرات إلى مصر والإسكندرية وأسوان وشرم الشيخ، وذهبت إلى إسرائيل مرة واحدة، تقصد فلسطين عام 1942، حين هاجرت العائلة مؤقتًا خوفًا من هجوم روميل في العلمين.

الحوار السابع: آنى كرم (فلوريدا ـ القاهرة)

عرفني عليها د. فؤاد عبد الستار، وهي تعيش في ولاية فلوريدا بالولايات المتحدة، كان اسمها قبل الزواج آنى كرياس عبادي، وقد ولدت وعاشت في كليوباترا بالإسكندرية، وعائلة الأب عاشت لأربعة أجيال في مصر، وقد حضروا من المغرب، وكانوا يتكلمون العربية، والتحقوا بالمدارس المصرية، وكانوا مصريين مائة بالمائة، وكانت عائلة الأم تحمل جواز سفر يونانيًا، ويتكلمون اللادينو، وكانت آنى تتكلم اللادينو مع جدتها عندما كانت صغيرة، ولا تزال تتذكر اللغة، والتحقت بمدرسة فرنسية، ثم مدرسة إنجليزية، وصارت تجيد اللغتين.

وعندما سألتها عن طفولتها وشبابها، هل شعرت بأي معاملة

غير عادية؟ أجابت: أثناء وجودي في نادي المكابي اليهودي كنت أسمع بعض الحكايات، لكنني لم أرَ شيئًا، باستثناء جاري ـ وهو مسيحي كاثوليكي ـ الذي ألقى عَليَ سلة فارغة، لأنني يهودية، وكان متدينًا جدًا، وتقول إنها لم تشعر أبدًا بأنها غريبة في مصر، وقالت إن العائلة شعرت بالخوف عام 1942، حين اقترب روميل من الإسكندرية، لكنهم لم يفكروا في الهرب.

وبعد المدرسة الثانوية بدأت تعمل، وقابلت زوجها الحالي كرم، وهو قبطي مصري، وكانت هناك صعوبة بسبب الاختلاف الديني، وعندما طلب يدها قال خالها إنه شاب لطيف، لكن فيه عيب كبير، هو أنه قبطي، وتوقفت آنى عن العمل بأمر العائلة، حتى لا تقابل كرم، وبعد سنة من الانفصال عادا لبعضهما مرة أخرى، وبالرغم من أن العائلة لم تكن متدينة إلا أنها غضبت من الزواج من غير اليهود، وكان والدها يعمل في شركة فيات في الإسكندرية، وقالت: لم أحس بأي قلق أو خوف في مصر، ولم أر أي تخريب لممتلكات اليهود، ولم يتصور أحد من عائلتها أنه من الممكن أن يتركوا مصر، ولم يتم تجديد عقد أخيها في الشركة التي

يعمل فيها عام 1956 ووضع زوج أختها في المعتقل ثلاثة أشهر بعد عدوان 1956 ثم سافرا إلى فرنسا.

وقالت إنها لا تحب عبد الناصر، لأنه شتت العائلة، فهم خمسون فردًا، وكل واحد في مكان، وقد انفصلت عن عائلتها خمسة عشر عامًا، وكانت أمها وأخوها قد هاجرا إلى إسرائيل، وماتت أمها هناك أثناء وجود آني في أمريكا، وقالت إنها تحب مصر، وزارتها أربع مرات، وكذلك زارت إسرائيل أربع مرات.

الحوار الثامن: هنري كوهين (باريس ـ شرم الشيخ)

عرفني عليه الدكتور رفعت السعيد، ولد هنري في العباسية، ويقول إن الكثيرين من اليهود القرائين كانوا يسكنون في العباسية، ويعتقد أن جذوره ضاربة في الأعماق في مصر منذ أجيال طويلة، وكان يتعجب من أن عائلته تحمل الجنسية الفرنسية، وقال له والده إن اثنين من أخواله تطوعا في الجيش الفرنسي وتوفي أحدهما، فكافأوا الخال الآخر بإعطائه الجنسية الفرنسية للعائلة، وقد عاش هنري في الظاهر والسكاكيني والعباسية، ثم في شارع الفلكي في باب اللوق، وكان يعمل رسامًا في جريدة (الأهرام) في مقرها القديم في

شارع مظلوم بمنطقة باب اللوق، وقد قبض عليه ضمن مجموعة التحرير الوطني عام 1954 وخرج من السجن عام 1962 ليرحل إلى فرنسا، ويقول إنه لم تكن هناك مشكلة في طفولته بسبب ديانته اليهودية، وكانت علاقته ممتازة بالمسلمين والأقباط واليهود القادمين من حوض البحر الأبيض المتوسط ليستوطنوا في مصر.

والتحق بمدرسة الإسرائيليين القرائين في السكاكيني، وعندما انتقلت العائلة إلى حارة اليهود انتقل إلى مدرسة موسى قطاوي باشا القريبة من البيت، تعلم هناك الفرنسية وقليلاً من العربية والإنجليزية، وقال: إنه بعد سنوات اضطرتني الظروف الاقتصادية إلى ترك المدرسة والعمل في الشركة المصرية للمبات النيون، وكنت أعمل رسامًا ومصممًا للافتات النيون، وعند بدء الحرب العالمية عام 1939 منعت الأضواء بسبب الغارات الجوية، فأغلقت الشركة وكافأوه بإعطائه توصية إلى جريدة (الأهرام) فعمل فيها منذ عام 1940 في قسم الإعلانات، ويقول إن علاقته بزملائه كانت ممتازة، وكان مختلفًا عن معظم اليهود الذين كانوا يعدون أجانب، ولم يرغبوا في التحدث بالعربية، لكنه يقول إنه كان

عربيًا مائة بالمائة، كما يقول إنه أثناء هيجان الإخوان المسلمين لم يحدث له أي شيء، والتحق بالحركة الشيوعية عام 1946 في مجموعة رفعت السعيد، وكان مع المتظاهرين ضد وعد بلفور، وضد إسرائيل، وكان البوليس ضد هؤلاء المتظاهرين، واعتقل البعض منهم، وسافر البعض الآخر وكان ذلك أيام حكومة النقراشي، وكان يقرأ (الأهرام) لأنه كان يعمل هناك، وكان مهتمًا بالسياسة والحرب العالمية، وكان متخصصًا في رسم الخرائط التي تبين تقدم الألمان في أوروبا، بالإضافة إلى عمله في الإعلانات، وقليلاً ما كان يقرأ الصحف الفرنسية وقد التحق بمدرسة ليوناردو دافنشي لمدة ثلاث سنوات لتعلم الرسم واللغة الإيطالية.

ويقول إنه لم يشعر أبدًا بالغربة ولم يكن متدينًا، وفي طفولته كان يذهب إلى المعبد اليهودي مع أبيه، وكان هناك حاخام حضر من بولندا، اسمه سمحا توبي ليفي، وحين خرج من المعبد ذهب الأطفال ليحيوه ويقبلون يده، وكان يمد يده حتى يقبلها الناس، حين مد يده إلي رفضت أن أقبلها، وشكاني الحاخام لوالدي الذي كان يعرفه، وكدرني والدي قائلاً: كيف

ترفض أن تقبل يد الحاخام؟ فقلت له: أنا لا أقبل يد أي مخلوق، يمكن فقط أقبل يدي والدي، ومنذ ذلك الوقت قطع علاقته بالمعبد إلى أن أصبح ماركسيًا، وعن إخوته قال إن أخاه ليون الصيدلي هاجر إلى فرنسا، وأخاه زكي كان يعمل مطبعجيًا في حارة القرائين، وقام الإخوان المسلمون بالاعتداء على الحارة وخربوا مطبعته، ولم يتمكن من إنشاء مطبعة مرة أخرى، فهاجر إلى إسرائيل في بداية تكوين الدولة، وعاش هناك، وكانت له أخت متزوجة، وحدث خلاف مع زوجها، فأخذ طفلتيها، وهرب بهما إلى إسرائيل، وعاش هناك، وتزوجت إحدى الطفلتين بعد أن كبرت من شاب فلسطيني، وتسبب هذا الزواج في ضجة كبيرة في إسرائيل، وسافرت الأخت الأخرى إلى إسرائيل بعد حرب السويس مع زوجها الذي كان يعمل صائغًا، ويقول: زرت ابنة أختي مرة واحدة في إسرائيل بعد صعوبة، لأنني كنت دائمًا أرفض الذهاب إلى إسرائيل، وكانت بنت أختي وزوجها سعيدين بموقفي المؤيد للفلسطينيين. وفي شبابي لم أر بعيني عنفًا ضد اليهود، ما أعلمه أنه كانت هناك اعتداءات في حارة اليهود.

وعن تجنيده في الحركة الشيوعية قال إن أصدقاءه اليهود هم

الذين جندوه، وأولهم كان دافيد شوري المهندس المعماري، ثم كونوا مجموعة أوروبية يهودية ضمن حركة التجمع الوطني، ومن أصدقائه الماركسيين المصريين ذكر د. شريف حتاتة قبل السجن، وأحمد الرفاعي داخل السجن، وفي السجن كان مختصًا بقسم اتصال مصر بفرنسا بالحبر السري، وتغليف مستندات ترسل إلى أوروبا بطرق سرية، وكان يصور أوراق القضايا ويرسل الفيلم إلى أوروبا، ولم يكن يعرف هنري كورييل معرفة شخصية لكنه كان يذهب إلى المكتبة التي كان يملكها، ويقول إن اليهود كانوا مثقفين، لذلك انخرطوا في الماركسية بسهولة واهتموا بتجنيد المصريين.

ولا يعتقد أنه كان في إمكان عبد الناصر أن يتفادى خروج اليهود من مصر، وقال إن عبد الناصر كان يسكن في شبابه عند عائلة يهودية من القرائين في حارة القرائين ويعدهم أهله، وبعد القبض على هنري كوهين ذهب أهله إلى العائلة اليهودية التي تعرف عبد الناصر للتوسط له لكن لم يحدث شيء، ولا يعتقد هنري كوهين أن إسرائيل سببت مشاكل لليهود المصريين،ويقول إن بعض الشباب الصهاينة كانوا يعملون مع إسرائيل، وقال إن اليهود المصريين في فرنسا

كانوا يهتمون بالماركسيين المصريين، ويساعدونهم ماديًا وثقافيًا، ويرسلون لهم كتبًا ومستندات وأموالاً.

أما عن المستقبل، فيقول: ما دام شارون في الحكم، فإنه لا يوجد أمل في حل، وإسرائيل تؤجل الحل لأنها تستفيد من الوضع الحال، بسبب سياسة أمريكا.

وعن مصر يقول إنه دائمًا يستمع إلى أخبارها، وحاول مرارًا السفر إلى مصر، لكن القنصلية المصرية ـ بناء على أوامر من القاهرة ـ كانت ترفض إعطاءه تأشيرة دخول، ومنذ ثماني سنوات قابل بالمصادفة رفعت السعيد في حفل أقامته جريدة (هيومانتيه) في باريس، وسأله رفعت لماذا لا يزور القاهرة؟ فأجاب بأنه ممنوع وجواز سفره مختوم (خروج بلا عودة) وأخذ مني المعلومات الكافية، وبعد أسبوع اتصل بي قائلاً: إن الباب مفتوح، ويمكنك الحضور إلى مصر، وأضاف إن هذه هي الزيارة الخامسة له إلى مصر في السنوات الأخيرة.

الحوار التاسع: ديدار فوزي (جنيف)

تم لقائي مع ديدار في مقهى صغيرة قريب من محطة قطار مدينة جنيف بسويسرا، وقد عرفني عليها وأعطاني تليفونها

الناشر والمناضل القديم الأستاذ محمد الجندي.

وأمضيت مع ديدار قرابة ساعتين في هذا المقهى في فبراير 2004 ثم مشينا سويًا قرابة ثلاثة كيلو مترات، حتى وصلنا إلى المطعم، الذي كان محددًا لي فيه لقاء آخر مع إحدى اليهوديات المصريات، وقبل نشر حواري معها أود أن أقول إنني تعرفت عليها بطريقة غير مباشرة من جيل بيرو، الذي ألف كتابًا عن حياة المناضل المصري اليهودي هنري كورييل، الذي اغتيل عام 1978 وقد انبهرت بوصف المؤرخ والصحفي المصري الأصل جيل بيرو للفتاة الرشيقة الجميلة ديدار، التي لم تكن تحمل هذا الاسم عند ولادتها كما عرفت منها عند مقابلتي إياها، وقد قال بيرو إن هذه الفتاة قابلت شابًا مصريًا رشيقًا جذابًا أمه إنجليزية واسمه عثمان فوزي عام 1950 أي قبل الثورة بعامين، وكان ذلك في حفلة راقصة، وبالطبع لم يكن الشعب المصري يذهب إلى الحفلات الراقصة في ذلك الوقت، أو حتى بعد ذلك الوقت، وإنما كان الشاب ضابطًا في الجيش المصري، ينتمي إلى الضباط الأحرار، وينتمي أيضًا للأفكار الماركسية، وتواجده في حفل راقص ربما يرجع إلى أنه نصف إنجليزي، أما

الفتاة الجميلة الصغيرة الرشيقة ديدار فكانت مصرية يهودية من أسرة متوسطة، لكن اليهود من المصريين ـ حتى من الأسر المتوسطة ـ قد كانوا أكثر تحررًا بمراحل من بقية الطبقة المتوسطة المصرية، سواء كانت قبطية أو مسلمة، حيث كانت التقاليد لكليهما متشابهة وشديدة المحافظة.

أحب عثمان فوزي الفتاة ديدار وتزوجا في القاهرة، وبعد فترة لم تتعد العامين قامت الثورة، ولعب فيها عثمان فوزي دورًا، وبعد نجاح الثورة نقل إلى موسكو ملحقًا بالسفارة المصرية ومعه الفتاة الصغيرة ديدار، وأنجبا بنتين، كلتاهما تزوجت أجنبيًا، أحدهما هولندي والآخر فرنسي، وتعيشان في بلادي الزوجين.

ربما كان انتداب عثمان فوزي في موسكو له أسباب، وأنا هنا أستنتج، وليست لدي معلومات أو أدلة منشورة، وقد يكون السبب الأول في تقديري، هو التخلص منه بوصفه شيوعيًا، فأنا أعتقد أن الثورة بقيادة عبد الناصر ـ في مرحلة مبكرة ـ قررت التخلص من كل المنتمين لأيديولوجيات معينة، وكان الشيوعيون والإخوان المسلمون هما الأيديولوجيتان اللتان اعتنقهما بعض المصريين، وربما كان السبب الثاني

في نقله إلى موسكو، أن عثمان فوزي الضابط الشيوعي قد يكون ممثلاً للنظام المصري الجديد في روسيا بوصفه مصريًا شيوعيًا، عمومًا استقر عثمان فوزي في روسيا وانفصل عن زوجته بعد فترة.

وقد أكملت ديدار ـ كما ستحكي لنا ـ المسيرة في مصر، ثم انتقلت إلى الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، حيث قامت بأدوار مهمة، وسجنت وهربت من السجن، ونشرت قصة حياتها عن ثورة الجزائر بالفرنسية، وترجمت إلى العربية، وكان الناشر هو الأستاذ محمد الجندي في دار العالم الثالث، بعنوان (فلسطين والجزائر... أهلاً يا حبايبي) وقد كانت مصادفة حين ذهبت لأشتري كتاب: يهودي في القاهرة، للمحامي والمناضل الراحل شحاتة هارون، وقد حدثني محمد الجندي عن ديدار، وأعطاني رقم تليفونها في سويسرا، واتصلت بها في جنيف، واتفقنا على أن نتقابل أمام البوسطة العمومية وقد عرفتها بسهولة من صورتها المنشورة على غلاف الكتاب، وذهبنا إلى مقهى قريب، وأجابت عن أسئلتي وأصبحنا صديقين.

ولدت ديدار في 20 أغسطس عام 1921 في وسط القاهرة،

وترجع أصول العائلة إلى اليهود الإيطاليين، وجدها لأبيها ولد في القاهرة، وكان أبوها يعمل مديرًا في البنك الأهلي، وكان لها شقيق يكبرها بعامين، ودرست في الليسيه فرانسيه في باب اللوق، ولم يكن لها أصدقاء من المصريين في طفولتها، وكان اليهود مميزين في المجتمع المصري، وكانت العائلة تتكلم الإيطالية في المنزل، لكن في مرحلة لاحقة تحولت إلى الفرنسية في المنزل، وسألتها عن لغتها الإيطالية الآن، فقالت إنها لا تستطيع الكلام بها، لكنها تفهمها، إخوتها يجيدونها، وسألتها: هل كنت تشعرين بالغربة في مصر عندما كنت طفلة؟ فأجابت بالنفي، وقالت إنها لم تشعر بالغربة إلا بعد أن تحولت إلى الشيوعية، وبالرغم من أنني كنت أعيش في مصر، إلا أنني لم أكن مصرية تحمل جواز سفر مصريًا.

وحول فترة الشباب، فقد كانت تخرج إلى جروبي، وقالت كنت أعمل دليلاً للبنات وكنا نرقص رقصة يهودية اسمها (الهورا) مشابهة للرقص الفلسطيني، وعندما بلغت الثامنة عشرة من عمري كنت أذهب للرقص في فندق سميراميس، وبعد دراستها الثانوية عملت في البنك الأهلي، وكان والدها

قد أحيل إلى المعاش، وكان معظم زملائها من اليونانيين، ولم يكن هناك زملاء أو أصدقاء من المسلمين أو الأقباط، وفي المدرسة كان هناك بعض المسلمين من أبناء العائلات الغنية، وفي البنك الأهلي نظم الموظفون إضرابًا، ولاحظني هناك ريمون استمبوللي، ولاحظ أنني جميلة، لكني لم ألاحظه أبدًا.

ولم تكن ديدار متدينة مثل أمها، لكن أباها كان متدينًا، وعندما سألته ديدار: ماذا تقول عندما تعود أثناء الصلاة؟ قال لها إنه يريد أن يموت وهو يسير على قدميه وألا يموت على فراش الموت، ولم تكن تعرف العبرية، لكن أخاها كان يعرفها، وتوفي والدها عندما كان في منتصف الخمسينات من عمره عام 1939 وتوفيت والدتها عام 1954، وقالت إن الأمور لم تكن سيئة لليهود، لكنها ساءت بعد عام 1956.

وقالت: بدأت أحس بالشعور الوطني بعد أن أصبحت شيوعية، حينئذ بدأت أتفهم المطالب الوطنية المصرية، ورأيت الفقر الذي لم أكن ألاحظه، فالشيوعية في مصر غير الشيوعية في فرنسا، لأننا يجب أن نحرر الوطن أولاً، ثم نعدل الأوضاع الاجتماعية ثانيًا، والأمر مختلف في فرنسا بالطبع، وكانت تقرأ صحيفة (البروجريه) الفرنسية بعد أن

أصبحت شيوعية، أما عن الكتب، فكانت تقرأ الروايات الفرنسية، وكانت تحب موسيقى الجاز، وتذهب مع أمها التي تعشق الأوبرا لمشاهدتها، وتقول: كنت أخجل من قول أنني أحب هذه الأنواع من الموسيقى لكوني شيوعية، وعندما سألتها: عندما كنت شابة هل ضايقك أحد في مصر؟ فأجابت بالنفي، باستثناء معاكسات الشباب للشابات في الشارع، ولأول مرة شعرت بأن هناك مشكلة لكوني يهودية كان عام 1942 حينما كان الألمان في العلمين، فرقص بعض العرب في الشوارع، وقال بائع الصحف لها (هتشوفوا أنتم اليهود) وسألت ديدار نفسها: لماذا؟ وفي ذلك الوقت بدأ البوليس السياسي يراقبها بسبب النشاط السري في الجبهة الديمقراطية، لكنها لم تشعر بعداء وسألتها: هل أثارت عائلتها أي أسئلة عن مستقبل العائلة في مصر؟ فأجابت بالنفي، والشيء الوحيد الذي أذكره أن أباها كان يستمع في الثلاثينات إلى الأخبار في الراديو طوال الوقت، وكانت تنتابه نوبة عصبية عندما يسمع هتلر، بالرغم من عدم معرفته بالألمانية. وتقول: القلق الوحيد كان في فترة العلمين، حين جهزنا أنفسنا للرحيل في حالة انتصار الألمان.

وحين كان عمرها تسعة عشرة عامًا قابلت عثمان فوزي الضابط المصري المندرج من عائلة غنية.

وعن أصل العائلة تقول ديدار إنها انتقلت إلى مصر من الجزائر، وعندما ذهبت إلى المقابر لزيارة قبر والدها، وجدت أن اسم جدها الأكبر سعد، على حين أن اسم أبيها أنجلو روسانو، فبدأت تحسب متى بدأت العائلة في تسمية الأبناء بأسماء أوروبية بعد أن كانت الأسماء مصرية، وقالت إنها لم تشعر بأي اضطهاد أو هجوم على اليهود، ولم تر شيئًا من ذلك، وقد غادرت مصر عام 1957 ولم تشعر بأي شيء في الفترة من 1947 إلى 1948 وتقول قبل دخولي التنظيمات الشيوعية كنت تقدمية بسبب قراءاتي الاشتراكية الفرنسية، وبالنسبة للغة العربية فإنني لم أتعلمها إلا بعد أن هاجرت من مصر إلى فرنسا نهائيًا، وقد حصلت على الدكتوارة من باريس عن السودان.

وعندما سألتها عن علاقة العائلة بالصهيونية أجابت بأن العائلة لم يكن لها أي علاقة بالصهيونية، وأحد أبناء العم ذهب للعمل في الكيوبتز في فلسطين، لكنه عاد إلى مصر مرة أخرى، وانضمت أختها الكبيرة إلى الشبيبة اليهودية في

الحرب العالمية الثانية، لكن جميع العائلة انتقلت إلى أوروبا، ولا يوجد لها معارف ولا أقارب في إسرائيل.

وفسرت وجود نسبة مرتفعة من اليهود في التنظيمات الشيوعية المصرية، بأنهم كانوا ضد النازية، وكانت لديهم فرصة الإطلاع على الكتب الماركسية لمعرفتهم باللغات الأجنبية.

وقالت إن الشيوعيين هم الذين اهتموا بها، ربما لأنها زوجة ضابط مصري، ولم يكن ممنوعًا أن يتزوج ضابط مصري فتاة يهودية، لكنهم بدءوا يضعونها تحت المراقبة منذ عام 1948.

وعن جمال عبد الناصر قالت إن مشكلته أنه كان بورجوازيًا صغيرًا، بالرغم من أن الضباط الأحرار كان بينهم المتعلمون تعليمًا جامعيًا، وقالت إن أختها كانت متزوجة من المليونير عدس صاحب المحلات الكبيرة وتم تأميم أملاكه، وغادر عام 1956 وكان يحمل الجنسية الإنجليزية، وصودرت أمواله، لأنه إنجليزي، وليس لكونه يهوديًا، وتعتقد ديدار أن إسرائيل لعبت دورًا مهمًا في هجرة اليهود العراقيين إلى إسرائيل، لكن لم يكن لها دور مهم في هجرة اليهود المصريين إلى

إسرائيل.

ولم تتذكر ديدار عملية سوزانا، أو هجوم إسرائيل على غزة، وطلبت مني أن أسال سوسو حزان عن ذلك، وقالت إنه في عام 1956 لم يطرد عبد الناصر اليهود، وإنما طرد اليهود من حاملي الجنسيات الفرنسية والإنجليزية والصهاينة المعروفين فقط، وسألتها هل سجنت في مصر؟ فأجابت بالنفي، وقالت إنها سجنت في الجزائر بواسطة الفرنسيين، حين ذهبت لمناصرة الثورة الجزائرية، وقالت عن الشيوعيين المصريين في فرنسا إنهم قاموا بأعمال مهمة وساعدوا المعتقلين الشيوعيين في مصر.

قلت: وماذا تعرفين عن خطة الهجوم على مصر عام 1956، أجابت بأنها في ذلك الوقت كانت في مصر تبحث عن منزل حتى تخبئ فيه سوسو حزان عندما يحضر من فرنسا ومعه آلة طباعة، لكن الفكرة ألغيت، وكان هنري كورييل هو قائد مجموعتنا، وساعدت في تهريبه من سويسرا إلى فرنسا، لأن فرنسا رفضت منحه إقامة، وعن تصورها لمستقبل الشرق الأوسط قالت سوف تكون هناك دولتان فلسطينية وإسرائيلية.

وعن مصر قالت إن الصعود الإسلامي سببه المشكلة

الفلسطينية، وقالت إنها فتفكر دائمًا في مصر، وعند سؤالها عن بلدها تقول دائمًا إنها مصرية، حتى حين عملت في حركات التحرير في أمريكا اللاتينية وحركة تحرير المرأة، لكنها تقول إن سوسو حزان أكثرنا مصرية، لأنه يشعر ويفكر بالطريقة المصرية فقط ولا يهتم بأي شيء إلا مصر، وقالت إنها زارت إسرائيل عدة مرات، وتشاهد جميع أفلام يوسف شاهين.

الحوار العاشر: يوسف درويش (القاهرة).

قابلته في شقته في شارع يوسف الجندي بحي باب اللوق، وساعدني في تنظيم اللقاء معه الدكتور رفعت السعيد.

ذهبت إلى الأستاذ يوسف درويش في الثانية عشرة ظهرًا، وهو يسكن في عمارة تؤجر الجامعة الأمريكية عدة أدوار منها، وكان في انتظاري جالسًا في الصالة بجوار النافذة يقرأ جريدة (الأهرام)، ورحب بي بشدة ووعد بمساعدتي قدر إمكانه، وكان الحوار معه ممتعًا، تحس بالصدق والحماس يفيضان منه، ولا جدال أن وطنيته وحبه لمصر واضحان جليان، وتحدثت معه طويلاً وسجلت كل شيء، والأستاذ يوسف ولد في حي الوايلي بالقاهرة عام 1910 وانتقل مع

أبويه إلى مصر الجديدة، ثم انتقل إلى بولاق، ثم إلى شارع شمبليون، واستقر في شقته الحالية منذ خمسين عامًا.

وسألته عن عمر جذور عائلته في مصر، فأجاب بأنه عثر على عقد بيع من المحكمة الشرعية لجده عام 1828 ويعني ذلك أن العائلة أقامت في مصر على الأقل خمسين عامًا قبل ذلك التاريخ، وربما أكثر من ذلك، لكن لا توجد عنده وثائق تحدد تاريخ العائلة.

وقال إن زوج خالته هو مراد فرج ليشع المحامي والشاعر اليهودي الشهير، ووالدته قريبة للملحن الشهير داود حسني، وكان صديقًا لابنيه إبراهيم وكمال، وقال إن ابنة داود حسني تزوجت شابًا مسلمًا.

وقد التحق يوسف درويش بمدرسة السكاكيني الحكومية الابتدائية، ثم انتقل إلى العزيز بالظاهر، ثم الخرنفش الثانوية، ثم سافر إلى فرنسا وحصل على ليسانس الحقوق، وبعد عودته حصل عام 1944 على ليسانس الحقوق المصرية من جامعة الإسكندرية، وقال إن عائلته كلها كانت تحمل الجنسية الفرنسية، وسألته: هل حدثت له مضايقات بسبب دينه أثناء دراسته في مصر؟ فأنكر حدوث أي مضايقات، وقال: كل

أصحابي القريبين مني كانوا مسلمين، فأعز أصدقائي كان حامد سلطان أستاذ القانون الشهير، ويحيى حسن الذي أصبح سفيرًا، وأحمد بدرخان المخرج، وقال إنه لم يشعر أبدًا بالغربة في مصر، وقال أيضًا إنه لم يكن متدينًا طوال حياته، وكان والده يذهب إلى المعبد مرة كل أسبوع ولم يكن متدينًا.

وسألته عن الخلفية الثقافية، فأفاد بأن أباه كان أميًا، ومع ذلك كان مهتمًا بتعليم وتثقيف أبنائه، وكان والده يعمل صائغًا، وكان يوسف ـ في شبابه ـ يحضر محاضرات الجمعية الجغرافية الملكية باللغة العربية والفرنسية، ويقرأ الصحف بنهم شديد، ومنها جريدة فلامبديجيبت، ويعتقد أنها كانت مجلة مهمة جدًا، وكذلك كان يقرأ الكشكول والأهرام، ويحضر المحاضرات الثقافية في مدرسة الفرير، وألقى محاضرة فيها عن الثورة الفرنسية، وكان يستمع أحيانًا إلى الموسيقى المصرية، وقال إن أم كلثوم حضرت إلى بيتهم عام 1927 وأحيت فرح أخيه، ولم تشعر العائلة بأي قلق في مصر قبل عام 1948.

ويقول درويش إنه كان وفديًا ملتزمًا، وكان ينظم بعض المظاهرات الوفدية، ونظم ـ وهو وحامد سلطان ـ مظاهرة

ضد الملك خارج البرلمان، احتجاجًا على إقالة النحاس عام 1930.

وقد تغيرت أفكار يوسف درويش من الليبرالية الوفدية إلى الماركسية،عندما بدأ يتأثر بكلاسيكيات الثورة الفرنسية، وقرأ تروتسكي عام 1932، واشترك في المظاهرات ضد النازية في فرنسا أثناء دراسته للحقوق في تلك الفترة، وتعرف على شيوعي ألماني هارب من النازية، وتعلم منه الماركسية، ويقول يوسف درويش إنه كان نشيطًا اجتماعيًا طوال عمره، من أيام مدرسة الفرير، وأنشأ جمعية الطلبة العرب من أجل الاستقلال أثناء دراسته في فرنسا، كما أنشأ جمعية ضد الفاشية والحرب.

وعند عودته إلى مصر عام 1934 أرسل إلى صديقة شيوعية في فرنسا يطلب المشورة عما يجب أن يفعله في مصر، فأشارت عليه بالاتصال بالحركة العمالية، وكذلك الوفد، ثم حركة السلام، واتصل بها جميعًا حسب النصيحة، ومنذ ذلك الوقت أصبح شيوعيًا مصريًا، وفي حركة السلام اشترك مع بول جاكوب وصادق سعد وإيلي حزان وجورج بيريدس، ويفسر درويش النسبة المرتفعة لليهود بين

الماركسيين، بكونهم أقلية لذا كانوا يشعرون بالاندماج الكلي مع الشعب في الشيوعية، ويبعدون عنهم الشعور بالخوف بالإضافة إلى قوله إن اليهود كانوا أكثر ثقافة وأحسن تعليمًا من بقية المصريين لذا كانت لديهم فرصة أكبر لكي يتعلموا الماركسية.

وعن الصهيونية يقول درويش إنه لم توجد ظاهرة صهيونية في مصر، وإنما كان هناك ناد صغير في شارع مراد بمصر الجديدة اسمه (نادي الصهاينة)، وكان هناك اتجاه ضعيف في (المكابي)، لكن الحكومة المصرية ـ في تقدير درويش ـ هي التي أعطت القوة للحركة الصهيونية، فمثلاً حين كون بعض اليهود المصريين (جمعية اليهود ضد الصهيونية)، قام النقراشي باشا بإغلاق الجمعية بدون سبب، وعطل ذلك نمو حركة مناهضة للصهيونية عام 1948 حين اعتقل الشيوعيون اليهود، وعرض علينا الخروج من المعتقل والسفر إلى إسرائيل لمن يرغب، وكانت هناك ثلاثة عنابر في معتقل الهاكستب، ومنها عنبر السكندرية، وكان درويش معتقلاً فيه، والعنبر الثالث لليهود الصهاينة، وهؤلاء كانت لهم معاملة خاصة، فكانت هناك ثلاجات وفرن وكل شيء، وبعضهم كان

يحصل على أجازة من المعتقل يوم الخميس للذهاب إلى المنزل والعودة يوم الجمعة، فلم يكن هناك مشكلة بين الحكومة المصرية والصهاينة، وإنما كانت المشكلة بين الحكومة والشيوعية.

وبعد الثورة ـ يعتقد درويش ـ أنه كان هناك ذعر عند اليهود، ويجب تقسيم اليهود المصريين إلى طبقات، طبقة غنية هربت إلى الخارج بأموالها وطبقة متوسطة خافت بدرجة أقل، وسافر أفرادها إلى أمريكا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا، والفقراء هم الوحيدون الذين سافروا إلى إسرائيل، لأنه لم يكن لديهم مأوى آخر.

وكان هناك نوع من سوء المعاملة في ذلك الوقت، يقول درويش إن أحد أقربائه ـ اسمه توفيق عبد الواحد ـ قال له أنا مسافر غدًا، لأنهم استدعوني في قسم البوليس، وضربوني على وجهي قلمين، وسأله درويش: هل ضربوك قلمين لأنك يهودي، أم لأن كل المصريين الذين يدخلوا قسم البوليس يضربون قلمين؟ فأجاب لأنني يهودي، وكانت الفترة فيها حساسية شديدة من اليهود.

وسألت درويش: هل كان من الممكن للثورة أن تتفادى

خروج اليهود؟ فأجاب بأن ذلك كان ممكنًا لكون اليهود مصريين، وليسوا أعداء، وقال إن وجود إسرائيل كان السبب الأساسي في خروج اليهود من مصر، وبخصوص عملية سوزانا، قال إنه كان يعرفها شخصيًا، لأنها كانت تسكن قريبًا منه، لكنه لم تكن له علاقة بها.

وحول الاعتقال والسجن، فقد اعتقل يوسف درويش أعوام 1941، 1949، 1950، لعدة أشهر كل عام بتهمة الشيوعية، وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات عام 1953 لكن النقض ألغى الحكم، وفي عام 1959 اعتقل مع جميع الشيوعيين المصريين لسنوات طوال، وفي عام 1973 اعتقله السادات ثلاثة أشهر في القلعة، وكانت تهمته الوحيدة في جميع المرات هي الشيوعية، وكانت هناك مجموعات مختلفة من الشيوعيين، وكان درويش في حزب العمال الشيوعي مع أبو سيف يوسف وصادق سعد وريمون دويك.

وعندما سألته عن تخيله لما سوف يحدث في الشرق الأوسط بعد خمسين عامًا، قال: لقد كنت ضد الصهيونية قبل قيام إسرائيل بسنوات طوال، لأنني كنت من أنصار السلام، وهي أول هيئة عالمية تقرر أن الصهيونية شكل من أشكال

العنصرية، وهناك كتاب أثر تأثيرًا كبيرًا في أفكاري ومعتقداتي كتبه المؤلف الألماني أوتو هيلير، عنوانه (نهاية اليهود) يشرح فيه أخطاء الصهيونية، وأنا ضد دولة إسرائيل ومع إقامة دولة علمانية.

وينتقد درويش بشدة نظام الامتيازات الأجنبية، ويحكي كيف قام الشباب الإيطاليون الفاشيون بضربه ضربًا مبرحًا عام 1932، لأنه رفض الوقوف تحية لنشيد الشباب الفاشيين، وعندما ذهب لتحرير محضر في قسم البوليس، حولَ المحضر إلى القنصل الإيطالي للتصرف، وحين قام مدير شركة البواخر الإنجليزي بفصل النقابي المصري محمد مدبولي، حولت شكوى مدبولي إلى القنصل الإنجليزي.

وفي عام 1936 قابل درويش مع زملائه وفدًا من هيئة الأمم المتحدة، جاء لتقصي الحقائق،وقال درويش إن رأيه أن فلسطين للفلسطينيين موحدة، واشترك مع جمعية أنصار السلام في تأييد الثورة الأسبانية ضد الفاشية، وقد ساهموا في جمع مصطفى النحاس ونهرو في لقاء في مطعم الكورسال في شارع الألفي عام 1937.

وساهم درويش في إنشاء جمعية نشر الثقافة الشعبية، وقال

كنا ندرس للعمال اللغة العربية والثقافة، وأشار إلى أنهم أنشئوا مدرسة لمحو الأمية، والتقى درويش بطه حسين وطرح تصوره لمحو أمية الشعب المصري، وفي عام 1942 عقد لقاء درويش بالقيادات العمالية في شبرا الخمية، واختارته نقابة العمال محاميًا لقضاياها، وبلغ عدد النقابات التي كان درويش محاميًا عنها خمسين نقابة، وطالب برفع مرتبات العمال المتدنية وساهم في إصدار مجلة (الفجر الجديد) عام 1944 وساهم مساهمة فعالة في إنشاء اتحاد العمال المصري.

وفي عام 1956 أغلقت الحكومة مكتب يوسف درويش، إلا أنه فتح مرة أخرى بعد أن وقع عشرة آلاف عامل ومائتان وسبعون محاميًا على عريضة موجهة إلى جمال عبد الناصر، يطالبونه بفتح مكتب يوسف درويش.

الحوار الحادي عشر: ألبير أربيه (القاهرة)

عرفني عليه الدكتور رفعت السعيد. تقابلنا في جروبي سليمان باشا، وكان الحديث كله بالعامية المصرية، لذا قررت أن أتركه كما هو العامية، قال ألبير: أبويا من أصل تركي، عيلتنا أصلاً انطردت من أسبانيا سنة 1492 ووصلوا

بلغاريا، معرفش التاريخ، بس واحد من العيلة عمل كتاب بيتكلم عن العيلة، وبعدين عيلتنا انتقلت من بلغاريا لتركيا معرفش إزاي، كان الكلام ده في الخمسينات، السفير البلغاري قال أنا كنت أعرف واحد من عيلتك في صوفيا، انتقلوا لتركيا ما أعرفش إزاي، لأن أبويا عمره ما كان بيتكلم عن أبوه.

جم مصر إمتى؟ أبويا جه مصر في بداية القرن العشرين، جه وعمره 15 سنة، وأبوه مات وهو صغير، والأحوال تدهورت، وكان فيه أقارب في مصر فراح لهم، وما كانش خد الإعدادية سحبوه من المدرسة، وده كان عامل عقدة، وأخوه التوأم راح مارسيليا لوحده، فالنتيجة جزء من العيلة فرنسية 100٪ لدرجة أن ابن عمي كان ضابط في سلاح الطيران الفرنسي، معرفش هل هم يهود؟ مسيحيين؟ معرفش، عمتي حلت مشكلتها وجوزوها واحد أكبر منها في ميلان.

أنا ساكن في عابدين بقالي 74 سنة في نفس الحي، وما انتقلتش عن شارع البستان جنب معهد جوتة من سنة 35 واتولدت في شارع الفلكي، العمارة زي ما هية.

دخلت مدرسة الليسيه، أبويا اشتغل في الأول في حسابات

محل كبير في الموسكي، وأيام الحرب الأولى دخل في التجارة، وتجارة الأدوات الرياضية، وأبويا أول واحد كان retailer في الأدوات الرياضية وحاجات الكشافة، يعني ده خلى إن أبويا . كان بيبيع للمدارس، فكان له ارتباط أكثر مع الشعب المصري، أصدقاؤه كلهم بتوع مدارس، عندي صورة أبويا لابس طربوش، وقاعد وراء سعد زغلول، ومعاه إسماعيل صدقي في حفلة عامة سنة 23 أو 24 كان عنده الجنسية التركية، فكان مفروض يختار الجنسية فاختار المصرية، وفي الوقت ده كانت الجنسية المصرية مصدر سخرية من الناس، يعني كان ممكن يستفيد من الحماية، بس كان أبويا مرتبط جدًا بالمصريين، خصوصًا إن كان عنده محل في ميدان مصطفى كامل اسمه نيولندن هاوس، كان فيه ناس كتير تفصل عنده لغاية لما مات، حتى عبد الناصر كان بيبعت يفصل الجلاليب بتاعته، والسادات شرحه وصلاح سالم وخالد محيي الدين، وكان له أصحاب ضباط وده اللي نافعني، حتى في سنين السجن، كان بيعرف كويس محيي الدين أبو العز فساعدني وخفف عني شوية.

كنت في مدرسة ليسيه باب اللوق، وكان جو طبعًا علماني لا

ديني، الثقافة الفرنسية لعبت دور في تكويني اليساري، كان عندنا أساتذة، واحد من المدرسين كان في الحركة الديمقراطية، كثير من زملائي مسيحيين أو مسلمين دخلوا في الحركة الشيوعية، يعني سنين الطفولة والدراسة كلها 11 سنة، كذا واحد، فؤاد حداد كان زميل، كنا شلة، أصبحنا شيوعيين، اللي لعب دور لانتمائي لمصر بصراحة الحركة الشيوعية، علمتني حب الوطن، الأممية بتعلمك حب الوطن.

وأنت صغير حسيت إنك غريب؟ وأنا صغير كنت بعيد جدًا، الحتة بتاعتنا اللي أنا ساكن فيها كانت جزيرة، مرة سألت واحد كان زميلي رجع مصر بعد غياب طويل أنت شايف إيه اللي أتغير هنا في مصر؟ قال: أولاً ما فيش حد حافي ماشي في الشوارع، ثانيًا القاهرة بقت للمصريين، صدقني كان أمين في وصفه، ما المنطقة دي كان فيها نوع معين من المصريين مثقفين أغنياء، صاحب العمارة كان مظلوم باشا وما كانش يسكن مصريين، خواجات بس، وابنه في الدور الثالث، اللي خلاني اكتشف مصر هو الحركة الشيوعية وفترة 46 والجامعة، دخلت جامعة القاهرة سنة واحدة في كلية الآداب فرنسي، لويس عوض كان بيدرس لنا إنجليزي،

كان سنة 47 ولقيت الجو صعب في 48، معظم زملائي دخلوا المعتقلات والباقي يا هربانين يا مشيو، أنا رحت الجامعة عام 1946 وحضرت اجتماع كبير، وكان فيه لطيفة الزيات، وكمان معظم الناس زعماء الحركة الشيوعية كنت أعرفهم، اشتغلت معاهم في الكفاح العلني والسري، مع الأجيال القديمة، وطبعًا بعد كده لعبت دور كبير في 48 والأحكام العرفية أدت إلى اندماجنا في العمل السري.

حضرتك اتحبست أيام الملك؟ لأ كنت حأتحبس بس وسايط أبويا سابوني، مين كانوا أصحابك في الوقت ده في الأربعينات بعد المدرسة؟ الشيوعيين، أنا انعزلت عن وسطي، أنا مش مقياس، أولاً في تكويني أنا مش متدين، يعني عيلتي ما كانتش متدينة، اللي لعب دور كمان إن أبويا من اليهود الشرقيين السفارديم، وأمي كانت من اليهود الأشكيناز فمحدش انبسط من الجوازة، دول كانوا بيعتبروا دول حاجة واطية وما ينفعوش.

مين أصحابك القريبين قوي في الأربعينات؟ حزان كنت صديق حميم لأخته، أخته اتجوزت أخو فؤاد حداد، بس كان فيه إلى حد ما انتماء ديني عند سوسو حزان شوية يعني أبوه

وأمه، حتى في طنطا كانوا بيصلوا، لما بتقرأ مثلاً كتب جاك حسون كانت عليته مصرية صميمة متوطنة، حتى بيحكي إن أبوه عايز يصلي، وما فيش معبد جنبه كان يصلي في الجامع، يعني بيت ا ، دي حاجات أنا ما كنتش عارفها.

فيه أي نشاط سياسي أو ثقافي غير الحكومة الشيوعية اشتركت فيه؟ أنا لا ابتديت صغير 15 سنة، سنة 45 ما كانش فيه فرصة، حتى لما كنت عيل، أنا من الجيل اللي بيسموه أصبح على حس المدافع، لأن جو عيلتي كان جو الحرب، لما كان عمري 10 سنوات كنت ما أنمش وأسمع إذاعة لندن وأنا من أقدم مستمعي لندن، أنا عشت كمان الحرب العالمية الثانية، يعني هي في جسمي مش في عقلي، أنا عندي مكتبة فيها يمكن 3000 كتاب وزيادة شايلها من سنة 45.

وأنت صغير كنت بتقرأ أي جورنال؟ الأهرام، وأنا 17 أو 18 سنة، وقبل كده البروجريه لكن بعد 46 أو 47 مش ممكن، كنت بأقرأ جرائد فرنسية كثيرة، سافرت فرنسا أول مرة سنة 46 ورجعت بشنط كتب، ولما اسافر بالبحر كان سهل.

المزيكا؟ ما كنتش بأسمع مزيكا، كنت سياسة في سياسة، يمكن بس أغاني ثورية بأجيب أسطوانات فرنساوي، بعد كده كنت بحب نمط معين من الأغاني، وبأسمع إيف مونتان، كان قريب جدًا من الحزب الشيوعي في الفترة دي، يعني دي فترة غنية، والدي توفي وأنا في السجن سنة 59.

هوه حصل له إيه؟ أبويا محله اتحرق يوم 26 يناير 52 فكان الناس بيقولوله قاعد هنا ليه؟ الغريب إنه كان عنده حس تجاري جامد، بس عمره ما اغتنى، ولما مات ما كانش فيه في البنك غير 500 جنيه، وأمي استلفت فلوس علشان الدفن، بس ما كانش من النوع اللي يغتني، في فترة هو تعب، يعني أنا حضرت الأزمة الاقتصادية العالمية، وكل طفولتي مشاكل، الأزمة جت إلى مصر بعد أوروبا متأخرة، وحتى في الريف، وكان فيه أزمة في القطن، فكنت أسمع أبويا وأمي يقولوا حندفع إزاي الكمبيالات والتأمين؟ عشان كدة لغاية دلوقت أنا بأكره التأمين، ولما ييجي واحد بتاع تأمين أطرده، فأبويا اضطر يأجر المحل سنة 36 أو 37 وكان يستلف من مرابين فيضطر يشتغل موظف عند عمر أفندي، ورجع محله سنة 40، وبعد كده أخدوه في شملا، واستمر

سنة واحدة، وبرضه عنده محله، وسابهم بعد سنة، بعد ما انحرق المحل بدأ من جديد مكانش فيه تأمين، أخد مبلغ من الحكومة، يدوب عرف يبتدي من جديد.

يوم 26 يناير كنت فين؟ في الشارع، واتفرجت على محلي بيتحرق وشفت كل المحلات بتتحرق، محل أبويا اتحرق في الآخر، وكان فيه شركة سياحة تركية، والنار مسكت في الباكيه فمشيت، ووقفت بعيد، وشفت أبويا واقف جنب الكباريه في ميدان مصطفى كامل بتاع صفية حلمي وبيبص على المحل وهو بيتحرق، ولما شفته حزنت لأن كل حياته فيه.

اللي كانوا بيحرقوا كانوا كام واحد؟ كتير، يعني آلاف ولا مئات؟ ميات بس كانوا منظمين، كانوا عارفين بيعملوا إيه، كان فيه طبعًا حرامية بيسرقوا، بس كان فيه تنظيم، ناس يكسروا الأقفال، وناس معاهم جراكن بنزين ويلا إحرق، شفت العربيات بتتحرق كمان، كنت في شارع البستان وكل الشارع كان جنسيات عربيات، شفت ناس منظمين، أنا قرفت لما شفت المنظر ده، كان منظر وسخ، وأنا فاكر لما أبويا أخد تعويض وعمل حفلة افتتاح وجاء محافظ القاهرة،

اصطدمت مع أبويا وقلت له حاطط صورة فاروق، صورة الراجل اللي حرق محلك، وأنا فاكر هوه زعل جدًا بس طنش وسكت.

إمتى أبوك ابتدى يحس بالقلق؟

في 42 أصحابه قالوله لو عندك حاجة ثمينة هاتها عندنا ولو عايز تروح الريف تعالى عندنا نخبيك، فرفض، ما أعرفش كان عندنا ثقة جامدة إن روميل مش حيكمل، وإن الانتصار حيكون، فيه ناس راحوا الصعيد، وناس كتير مشيو، وفي 48 برضه ما اتحركناش، كنا قلقانين بس، كان عنده أصدقاء كتار مصريين فما تأثرش، بعد ما المحل اتحرق كان عنده انتماء ما يسيبش البلد، أبويا أول واحد باع جينز في مصر، أنا ابتديت اشتغل معاه سنة 48 فمرة سافر فرنسا وقاللي فيه حاجة جديدة جاية من أمريكا، وابتدوا ينتجوها بتوع الملابس، وفيه قماش مخصوص، وجاب جينز، وفي الوقت ده كان سالوبيت، فقلت إيه القرف ده؟ قاللي ده المستقبل، وأنا كنت حمار.

لما قامت الثورة كان إيه شعوره؟

في بداية الثورة كان محمد نجيب بيحب اليهود، وحتى

الباقوري خلاه يعتذر للحاخام، كان فيه اتجاهين في الجالية اليهودية اتجاه انتماء لمصر، واتجاه يسيب البلد، بس لازم نقول إن معظم اليهود المصريين معظمهم ما سافروش إسرائيل، يا أمريكا يا فرنسا أو استراليا، الهجرة بدأت مع اليهود، وبعدين مع الأقباط، وبعدين مع المسلمين، وأنا قاعد في مصر 40 واحد من قرية واحدة غرقوا في البحر الأبيض كانوا رايحين إيطاليا، شوف إحنا وصلنا فين من عدم الانتماء للبلد.

غير 52 شفت بعينك مظاهر عنف ضد اليهود؟

في 48 كان فيه جو عدائي من الإخوان المسلمين، أنا كنت بأبيع أدوات رياضية للإخوان المسلمين، والمرشد الجديد صاحبي، طبعًا عاكف أعرفه كويس قوي هو مدرس تربية رياضية في مدرسة فؤاد الأول الثانوية، وأعرفه كويس جدًا، واتحبست معاه 11 سنة وكان زميلي في السجن، حتى رفعت السعيد بيتريق عليا لأني صاحب المرشد.

العيلة بتاعتكم هل افكارها انقسمت لما كل واحد راح له مكان؟

أنا ليه أخت واحدة سافرت فرنسا سنة 46 بقت أستاذة في

الجامعة، هي من أحسن الخبراء في تاريخ الأندلس، هي في الأكاديمية الملكية الأسبانية، عاشت في تونس سنين طويلة، كانت تدرس اللغة العربية، وكانت زميلة حسين مؤنس، هي تعرف كويس حسن حنفي وأخوه والدكتور مكي.

مين جندك للفكر الماركسي؟

في سنة 42 كان فيه محاولات يجندوا أختي، وكان عندي واحدة قريبة أبويا كانت بتشتغل في مكتبة الميدان، كانت في الحركة المصرية، بس دي ما كانش لها تأثير. أختى هي كانت بتروح في النوادي الاولى، الاتحاد الديمقراطي قدام القنصلية الفرنسية، كان عمري 12 سنة لما قريت مكسيم جوركي، الجيل بتاعنا كانت السياسة في دمه، مش ممكن دلوقتي تلاقي كده، كان فيه واحد يعرف أختي، وكان ساعات يشوفني في الشارع ومرة سنة 45 شفته، كنت ماشي في شارع ثروت، كان طالع من عمارة كان فيها جريدة الأهالي زمان، أما اصطدته وقلتله عايزين نقعد، عايز أسمع عن الماركسية، هوه كن في الحركة الشيوعية، بعد كده هوه سافر سنة 48 ومات من كام سنة، كان من زعماء حزب الخضر، ساب الماركسية وبقى أخضر.

اليهود المصريين نسبة الماركسية فيهم كانت أعلى؟

أنا مختلف، يعني مازادوش عن الميات أنا رأيي ولا الشيوعيين ولا الصهاينة، أنا رأيي كانوا هامشيين، كانت طبعًا أرض خصبة، كان طبيعي المنافسة على مين حيسيطر، بس ولا همه ولا إحنا سيطرنا.

إيه رأي حضرتك في المشكلة اللي وقع فيها جمال عبد الناصر مع اليهود؟

تكوين عبد الناصر تكوين بورجوازي صغير ضيق الأفق، التناقض إنه في السياسة الخارجية كان very broad minded كان سياسي بس تكوينه داخليًا بتاع very narrow minded تكوينه الطبقي كده، وده أثر على سياسته، أنا رأيي هو لعب دور كبير، الضباط كانوا مش ضد اليهود بس، ما كانش عندهم ثقافة، كان فيه واحد بس مثقف حطوه في مؤسسة الأسماك، يعني كان دوره هامشي.

إيه رأي حضرتك في دور إسرائيل في خروج اليهود من مصر؟

هم حاولوا كتير، بس أنا رأيي أساسًا 56 كانت سبب أساسي والعدوان الثلاثي الناس خافت، أنا قعدت 11 سنة في السجن،

من 53 طلعت 64 مع رفعت السعيد، في الشهر اللي جاي حكون اتعرفت على رفعت من 50 سنة.

طبعًا السجن ما كانش له علاقة بالدين، كان عشان الشيوعية؟

طبعًا، الحاجة الوحيدة، كنا مستغلين الدين في السجن ودي النكتة، في أوسخ الفترات كانوا بيحترموا صيام اليهود إن ما يأكلوش عيش، وكنا في ليمان طرة كذا واحد يهودي فقلنا لأ لازم يجيلنا أكل مخصوص بتاع اليهود، فكانوا بيحترموا جدًا، كان الضباط عايزين يموتونا، واحد كانت مراته يهودية كان بطل كرة سلة اسمه ألبير تادرس كان رجل كويس.

الشيوعيين اللي راحو فرنسا وانتوا في السجن إيه كان علاقتكم بيهم؟

كان فيه يهود قليلين في مصر.

واللي سافروا على حسب، كان الناس اللي في الحركة الديمقراطية، كان فيه علاقة، لما سافرت فرنسا كان يوسف حزان بقابله، بس علاقتي باللي سافروا العاديين ما كانتش كده، بس بعد كده لما سافرت في 68 قابلت ناس كانوا معايا في المدرسة.

إيه تقديرك لمستقبل الشرق الأوسط؟

long term حيكون فيه سلام ده حاجة تكسف، يعني بعد 50 سنة مش ممكن أرض واحدة لشعبين، ومش ممكن شعب يطرد التاني، وفي نفس الوقت اللي بتعمله عصابة شارون بيعقدوا المشكلة أكتر، وعمليًا بيقضوا على الدولة اليهودية. العرب حيبقوا أغلبية في إسرائيل ده مؤكد، آجلاً أو عاجلاً حيكون فيه سلام يوم ما، الإسرائيليين والفلسطينيين حيتفقوا مع بعض، حيكونوا قوة يكتسحوا العرب لأن الفلسطينيين أكثر العرب ثقافة وشطارة في التجارة وكل حاجة.

هل فيه علاقة بين اللي حاصل في الصراع ده والنمو الفظيع للتيار الديني في مصر؟

طبعًا الإسرائيليين لعبوا دور كبير، لولا إسرائيل، حماس ما كانش لها وجود، ما ساعدوا في الأول خالص الإسلاميين، ورابين قال لمبارك إن من الأخطاء الفظيعة إننا ساعدنا الإسلاميين، آه هما الليكود هما اللي عملوا حماس في الأول، والعمل كمان، كلهم ولاد كلب، بس أنا حأقولك حاجة، آجلاً أو عاجلاً إسرائيل مش ممكن تعيش بالطريقة دي، سيبك من كل حاجة، الإسرائيليين بيدمروا نفسهم، والفلسطينيين بيدمروا نفسهم بالهجمات الانتحارية.

شحاتة هارون (القاهرة)

مع جزء من حوار صحفي سبق نشره مع السيدة ماجدة هارون

شحاتة هارون يهودي مصري ماركسي الفكر، التصق بوطنه وعاش فيه، ورفض الهجرة إلى الخارج تحت أي ظرف من الظروف، وكان يعلن دائمًا أن إسرائيل دولة عنصرية، وهو شيوعي قديم قبض عليه عدة مرات، وكان عضوًا في اللجنة المركزية لحزب التجمع حتى وفاته، ودفن في القاهرة، ورفض في وصيته أن يأتي حاخام من إسرائيل للصلاة عليه، ونشر شحاتة هارون كتابًا صغيرًا فيه خطاب أرسله إلى عبد الناصر في فبراير عام 1967، يطالبه فيه بإعطاء اليهود المصريين حقوقًا مساوية لبقية المصريين، وفي نفس الوقت كان يؤيد عبد الناصر في سياسته، ويعتقد هارون أن القبض عليه بعد يونيو 1967 كان بسبب هذا الخطاب، ونشر أيضًا في الكتاب نفسه مقالة كتبها في مجلة (الطليعة) في أكتوبر 1974 ويعتقد أن لها علاقة بالقبض عليه في يناير 1975 تحدثت المقالة عن السياسة الخارجية الأمريكية والاحتكارات العالمية ومخاطرها.

وعند التحقيق معه قال شحاتة أنا يهودي يساري، لكن الأهم أنه قال: أنا مصري، وقال إنه لا يؤمن بتفوق الجيش اليهودي، ومصر لا تعرف ما يسمى بمعاداة السامية، وأي شعور عدائي لليهود هو رد فعل للعدوان الإسرائيلي، وقال إنه لن يترك مصر ولو قطعوا رقبته، وقد قال شحاتة هارون في حديث صحفي: أنا دائمًا منذ عام 1947 من المنادين بقبول التقسيم.

ويجيب شحاتة هارون عن سؤال: كيف يكون يهوديًا ومعاديًا للصهيونية؟ فيقول: أليس الأغرب أن تكون مسلمًا وترفض الإخوان المسلمين، أو أمريكيًا أبيض وترفض التفرقة العنصرية؟ أنا أرفض الصهيونية لأنها حركة عنصرية عدوانية، ويقول هارون إن الأفكار اليسارية أنقذته من أي تعصب ديني أو طائفي.

وتؤكد نادية شحاته هارون المحامية التي تدير مكتب والدها أن يوم جنازة والدها يلخص شخصيته وحياته ونضاله، وكانت (الأهرام) قد رفضت نشر النعي الذي كان أشبه ببيان سياسي، يقول: أنا مصري حين يضطهد المصريون، ويهودي حين يضطهد اليهود، وفلسطيني حين يضطهد

الفلسطينيون، وأسود حين يضطهد السود، لكن نادية قابلت إبراهيم نافع ووافق على نشر النعي.

وقد حضر حاخام من فرنسا لأداء الشعائر في الجنازة التي حضرها عدد كبير من الأصدقاء، معظمهم من المسلمين، منهم أسامة الباز وراوية ابنة أنور السادات من زوجته الأولى، وكانت جارة العائلة، وتحدثت نادية شحاتة هارون عن العائلة، فقالت إن جدها كان متدينًا، ولم تشعر بأي شيء في المدرسة، إلا أثناء حصة الدين، حين كانت تذهب أحيانًا مع الأقباط وأحيانًا مع المسلمين، وأحيانًا تلعب وحدها في الحوش.

وتقول ماجدة هارون إن دعوات التفرقة بين الصهيونية بوصفها مذهبًا سياسيًا استعماريًا استيطانيًا، واليهودية بوصفها دينًا سماويًا، ضاعت وسط الخطاب المتداخل من جانب صحفيين وإعلاميين.

وتقول عن أسرتها الصغيرة إن أباها وأمها من اليهود، لذا فهي يهودية، ثم تزوجت مسلمًا وأنجبت طفلة عمرها الآن 18 سنة، وحدث الطلاق وتزوجت مسيحيًا وأنجبت طفلة أخرى، وأصبح لديها بنتان إحداهما مسلمة والأخرى مسيحية

والأم الآن يهودية.

وتقول أومن بقاعدة أن الدين   والوطن للجميع، ونحن في حالة تعايش جميلة وتقول ماجدة إنها تشعر أحيانًا بإحساس روحي ورغبة في الصلاة والتواصل مع ا ، فتذهب إلى المعبد، وعليها أن تثبت أنها يهودية حتى يمكنها الدخول، وتجد المعبد فارغًا، وتمكث بضع دقائق، وتشعر بالحزن، لأنه كان في هذا البلاد الآلاف من اليهود مثل بقية المصريين بدون تفرقة، لكن السياسة حطمت كل شيء، وعندما سألهما الصحفي: هل ذهبتما إلى إسرائيل صاحتا في صورت واحد ـ ماجدة ونادية هارون ـ طبعًا لا.

الخاتمة

اليهود المصريون ليسوا طائفة واحدة، ولا مجموعة متجانسة، وإنما هم مجموعة من البشر، بعضهم عاش في مصر منذ زمن سحيق، والبعض هاجر إليها في القرن الخامس عشر هربًا من الاضطهاد في أسبانيا، والبعض الآخر هاجر إليها في القرن الثامن عشر أو التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من حوض البحر الأبيض المتوسط، ومن أوروبا الشرقية، هربًا من الاضطهاد وسعيًا وراء

الرزق.

هؤلاء اليهود المصريون كانوا يتكلمون عدة لغات، فالمصريون الأصليون كانوا يتكلمون العربية فقط، والمهاجرون القدامى كانوا يتكلمون العربية والفرنسية واللادينو، والمهاجرون من أوروبا الشرقية كانوا يتكلمون اليديش، وبعضهم كان يتكلم أكثر من لغة، ولم تكن العبرية بين اللغات التي يعرفها اليهود المصريون، وقبل مغادرة مصر كانت اللغة التي تجمع اليهود المصريين هي الفرنسية.

وكان معظم اليهود المصريين من الربانيين، والأقلية كانت من القرائين، وكانت الفوارق الاجتماعية كبيرة جدًا بين كبار الأغنياء من ملاك المصانع والمتاجر الكبرى والأراضي، وبين يهود يأكلون لقمة العيش بالكاد، ولم يجمع بينهم شيء غير الديانة اليهودية، ومما لا شك فيه وأجمعت عليه جميع المصادر أن مصر استقبلت اليهود الهاربين والنازحين من كل مكان بصدر رحب، ورعتهم وساعدتهم، وأصبح لهم وضع متميز في المجتمع المصري، والسؤال الكبير لماذا خرج اليهود من مصر؟

هل إنشاء دولة إسرائيل هو السبب الأساسي في خروج

اليهود؟ أعتقد أن هذا بالطبع سبب مهم، لكنه ليس السبب الرئيسي، فقد قامت إسرائيل عام 1948 وكانت بوادر قيامها واضحة للجميع قبل ذلك بعدة سنوات، ومع ذلك هاجر إلى الخارج عشرون بالمائة فقط من اليهود المصريين خلال السنوات العشر منذ عام 1946 حتى عام 1956 وذهب أقل من نصفهم إلى إسرائيل، وعاشت الأغلبية العظمى من اليهود ثماني سنوات كاملة بعد إقامة إسرائيل حتى عام 1956 حين خرج معظمهم بعد العدوان العسكري الإنجليزي الفرنسي الذي اشتركت فيه إسرائيل.

والسؤال: لماذا خرج اليهود بعد 1956 ولم يخرجوا بعد 1948؟ والإجابة سهلة، خلال الفترة منذ عام 1949 بدأ تطبيق قانون إلغاء الامتيازات الأجنبية، وكذلك أعطى قانون العمل الجديد حقوقًا وأفضلية للمصريين، وحيث إن اليهود المصريين كان معظمهم يحمل جنسية أجنبية، وأو بدون أية جنسية وأصبح اليهود في الظروف الجديدة في وضع غير مميز، ومن لم يحمل الجنسية المصرية وجد صعوبة في الحصول على وظيفة، وتأثر بذلك محدودو ومتوسطو الدخل. أما الأغنياء وكبار الرأسماليين فقد شاهدوا بأعينهم رياحًا

جديدة تهب في محاولة للحد من سلطة رأس المال الخاص وتوسيع ملكية الدولة وسلطتها، ولم يكن هذا الأمر موجهًا ضد اليهود، بل كان ضد كل الرأسماليين الأجانب والمصريين، بغض النظر عن ديانتهم، في مثل هذه الظروف بدأت الجالية اليهودية ـ فقراؤها وأغنياؤها ـ في التفكير في الهجرة، لكنهم لم يتخذوا هذا القرار الصعب، لأنه كان لديهم أمل في أن يحدث شيء ما في نظام الحكم المصري، وفي هذه الحالة تعود الأمور كما كانت بالنسبة لهم.

وخلال تلك السنوات ضغطت إسرائيل على اليهود المصريين، ليهاجروا من وطنهم عن طريق القوة الهائلة للصهيونية العالمية، وعن طريق إثارة الفتنة والكراهية ضدهم من الشعب المصري، بأحداث مثل فضيحة لافون التي حرضت فيها الموساد بعض اليهود المصريين على القيام بتفجيرات وعمليات إرهابية على أهداف مدنية في مصر، وتلا ذلك الهجوم على غزة، وفي النهاية كان عدوان 1956، ومما لا شك فيه أن كل هذا خلق جوًا غير ودي تجاه اليهود المصريين، مما سهل اتخاذهم قرار الهجرة.

بقيت نقطتان، الأولى: هل طرد اليهود من مصر عام

1956؟ والإجابة نجدها بأقلام كبار الدارسين، مثل بنيين الذي يوضح أن قلة من اليهود ذوي الارتباطات الصهيونية قبض عليهم لفترات قصيرة، وذلك في نفس الوقت الذي قبض فيه على عشرات الآلاف من المسلمين والأقباط، الذين ذاقوا الأهوال في السجن، مقارنة بما حدث لليهود، مما يعني أن الأمر لم يكن ضد اليهود، لكن له أسباب سياسية وأيديولوجية واقتصادية.

إذن ماذا حدث ولماذا خرج اليهود؟ في تقديري أنه قد مرت على اليهود المصريين نحو عشر سنوات شعروا فيها بأن الظروف السياسية والاقتصادية تغيرت في غير صالحهم، ولم يصبحوا هم المميزين بين أفراد الشعب المصري، وكان اشتراك إسرائيل في العدوان العسكري على مصر ضربة نفسية قاصمة لليهود المصريين، حيث شعروا بأن هذا العدوان فك أواصر علاقتهم بالوطن، لذا قرروا الهجرة، وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الغالبية العظمى من اليهود لم يطردوا ولم تصادر أملاكهم عام 1956، وقد صودرت أموال الإنجليز والفرنسيين الذين كان بينهم بعض اليهود، بالإضافة إلى أعداد قليلة من الصهاينة الناشطين، وقلة قليلة

من اليهود الذين كان لهم نشاط صهيوني هم الذين قبض عليهم، أو صدرت الأوامر برحيلهم، ورحلوا بالفعل إلى خارج مصر، أما الباقون فقد غادروا برغبتهم، وباع معظمهم ممتلكاتهم في مصر، وتسببت الرغبة ـ غير المبررة في الهجرة فورًا ـ في تسرع البعض في بيع ممتلكاتهم بأسعار أقل من سعر السوق. وأعتقد أنني بعد أن قابلت عددًا من اليهود الذين غادروا مصر في تلك الفترة وسجلت أحاديثهم في هذا الكتاب، عرفت أن الخوف هو السبب الأساسي في الهجرة، وذلك بالرغم من عدم تعرض اليهود لأي أذى أو ضغط، ويبدو أن حالة من الرعب العام انتابت الجميع، وكان من أسبابها التاريخ اليهودي القريب للأحداث في أوروبا، وما ترسب من التاريخ اليهودي القديم في أعماق اليهود، وساعد على ذلك ما قامت به الصهيونية العالمية من تشجيع وتخويف اليهود المصريين، بالإضافة إلى كل التسهيلات التي قامت بها لتهجيرهم، وخلاصة الأمر أنه كانت هناك حالة من الهيستريا ساعدت على انتشارها الشخصية اليهودية والدعاية الصهيونية وطبيعة الحكم العسكري في مصر، وكل ذلك لم يكن من الممكن أن يعطي الأمان لليهود المصريين.

والسؤال المهم الثاني: أين ذهب اليهود المصريون؟ لقد ذهب أكثر من نصفهم إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا الجنوبية واستراليا، والأقلية ذهبت إلى إسرائيل، وكان من ذهب إلى إسرائيل هم الفقراء والأقل تعليمًا والذين كانوا بدون جنسية.

والسؤال الأخير: لو لم تكن هناك دولة إسرائيل ولا الصهيونية العالمية ولا النزاع العربي ـ الإسرائيلي كيف كان سيصبح مستقبل اليهود المصريين ومصيرهم؟ في تقديري أن ما حدث كان شيئًا لابد من حدوثه، فمعظم اليهود المصريين حضروا إلى مصر سعيًا وراء الرزق والمستوى الأعلى من المعيشة، وهو ما أعطته مصر بسخاء، لكن بعد الحرب العالمية الثانية وتنفيذ مشروع مارشال في أوروبا، كان واضحًا أن الموقف الاقتصادي والسياسي سوف يكون أفضل في أوروبا من الموقف في مصر، وكان الخوف والهلع من أوروبا قد ولى بنهاية النازية والفاشية، لذا قرر معظم اليهود أن مصلحتهم في الهجرة إلى أوروبا، وقد هاجروا إلى هناك، أما الذين لم يكونوا يملكون أموالاً ولا جنسية ولا تعليمًا متقدمًا، فكانت إسرائيل هي الوجهة

الطبيعية لهم، وهكذا ترك اليهود المصريون بلادهم الذي عاشوا فيها معززين مكرمين سنين طوالاً، باستثناء قلة من اليهود الشيوعيين الذين فضلوا البقاء في وطنهم، مصر واتضح لي من الأحاديث الشخصية مع يهود مصريين هاجروا إلى أوروبا وأمريكا أنهم يعتزون بمصر وأيامهم الجميلة فيها ويذكرونها بكل خير، ولا يحملون أي ضغينة لمصر والمصريين، وهو ما يختلف تمامًا عن الصورة القاتمة الموجودة في موقع الجمعية التاريخية لليهود المصريين وبعض الكتب: أما من ذهبوا إلى إسرائيل فقد تكلموا لأول مرة بوضوح عن وطنهم الأول بعد توقيع معاهدة السلام مع مصر، وتذكروا أيامهم الجميلة فيها، بقيت قلة من اليهود المصريين النشطاء في نيويورك ممن لهم مواقع على الإنترنت ينشرون من خلالها أحداثًا غير حقيقية، ويحملون مشاعر عدائية تجاه مصر والمصريين لكن في المقابل هناك مواقع دولية لليهود المصريين الذين يحملون ذكريات طيبة عن مصر، ويتكلمون عن تاريخهم من وجهة نظر معقولة، وأخص بالذكر اليهود الشيوعيين المقيمين في فرنسا الذين يتميزون بالحب الشديد والإخلاص لمصر التي

يعدونها وطنهم الأول، والحقيقة أن اليهود استمروا في العيش في مصر بوصفهم قومية منفصلة، ولم ينصهر معظمهم في الشعب المصري، مثلهم في ذلك مثل الجاليات اليونانية والإيطالية والفرنسية، التي عاشت أجيالاً في مصر محتفظة بلغاتها ومدارسها وكنائسها وفي النهاية حين تغيرت ظروفهم إلى الأسوأ، أو تحسن الوضع في أوروبا، قرروا الهجرة من مصر، وهاجروا بالفعل، وما حدث لهذه الجاليات مشابه لما حدث لليهود المصريين، وأعتقد أن ما ذكره إحسان عبد القدوس في إحدى رواياته يمثل الحقيقة والصدق، حيث قال: إن اليهود هم الذين طردوا أنفسهم، وإن يهود مصر لم يخْتَطَفُوا، لقد اختاروا، ومن حق كل إنسان أن يختار وطنه.

المراجع الأجنبية:

Culture, politics. The dispersion of Egyptian jewery 1, Joel Beinin and formation of a modern Diaspora university of California Press 1998.

2. The Jews in modern Egypt 1914 – 1952. Gudrun Kramer B. I. Co. and Tauris. Ltd. London. No. 4 on publication 1989, Near East Univeristy of Washington.

A Mediterranean Society in mod The Jews

of Egypt West View Press, Edited by Shimon Shamir, ern times Boulder and London 1987.

Gabasso, E Carasso. G. Images et texts. 4. Juifs d' Egypte A Cohen, M Deloro-Q? eré, E Gabby, E Harari, J Hassoun, M Lehman, L, Mizrahi, A Morabia, M Sofer, I Stambouli, R Second Edition 1984. Stambouli, A Zivie

Riverhead. André Aciman. 5. Out of Egypt: A memoir USA 1994. Y. N. books.

André Aci - . 6. False papers: essays on exile and money, USA 2001. Y. N. Farrar, Strausaud Girou man

7. The Jews of Egypt, 1920 – 1970: In the midst of Zion- Michael ism, anti- Semitism and the middle east conflict New York Univeristy Press 1992. Laskeir

8. The Kariate Jews of Egypt 1882 – 1986. Mourad El-, USA 1987. Y. N. WilPrint Inc. Kodsi

The history of Cam – 9. A Jewish archive from old Cairo Cur – Reif, Stefan C bridge Univeristy's Genizah Collection Richmond Surrey 2000. zon Press

10. Alexandria 1860 – 1960. The life of a cosmopolitan Bafra. Edited by Robert Ilbert and Illio Yannakakis. Society Alexandria, Egypt 1992. Graphics.

11. Maadi 1902 – 1962 society and history in Cairo sub- Cairo Palm Press 1994. Samir Raafat, urb

Manchester Uni-. Row Ley 12. Israel's sojourn in Egypt versity Press UK 1938.

Ada Aharoni 13. The second Exodus, A historical Novel Dorrance and company USA 1983.

Albert Oudiz 2004. 14. Je viens d' un pays qui n' existe plu

المراجع العربية:

1 ـ اليهود والحركة الصهيونية في مصر، أحمد غنيم وأحمد أبو كف، كتاب الهلال عدد 219 يونيو 1969.

2 ـ اليهود والماسون في مصر، علي شلش، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1986.

3 ـ اليهود في مصر (1882 ـ 1948) سعيدة محمد حسني، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1993.

4 ـ يعقوب داود الإسكندراني في الصهيونية ورعايا من اليهود الشرقيين في رافائيل شابيرو، دار الحمراء، بيروت 1991.

5 ـ اليهود في مصر، قاسم عبده قاسم، دار الشروق، القاهرة 1993.

6 ـ الجنيزا والمعابد اليهودية في مصر، محمد خليفة حسن والنبوي جبر سراج، مركز الدراسات الشرقية جامعة القاهرة، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية، 1999.

7 ـ تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية (1517 ـ 1914) تحرير يعقوب لانداو، ترجمة جمال الرفاعي وأحمد حماد، وتقديم ومراجعة محمد خليفة حسن، المجلس الأعلى

للثقافة، المشروع القومي للترجمة 2000.

8 ـ يهود مصر منذ عصر الفراعنة حتى عام 2000 عرفة عبده علي، الهيئة المصرية للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين 2000.

9 ـ الحياة الاقتصادية والاجتماعية لليهود في مصر (1947 ـ 1956)، نبيل عبد الحميد السيد، القاهرة، مكتبة مدبولي 1991.

10 ـ ملف اليهود في مصر الحديثة، عرفة عبده علي، على نفقة المؤلف، القاهرة 1993.

11 ـ اليهود في مصر بين قيام إسرائيل والعدوان الثلاثي (1948 ـ 1956) نبيل عبد الحميد سيد أحمد، الهيئة المصرية للكتاب، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر (1991).

12 ـ يهود مصر: دراسة في الموقف السياسي (1897 ـ 1948) محمود سعيد عبد الظاهر، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية، القاهرة (2000).

13 ـ نحو فهم طريق مصر الاقتصادي والاجتماعي،

عاصم دسوقي، دار الكتاب الجامعي (1981).
14 ـ اليهود المصريون ـ صحفهم ومجلاتهم (1877 ـ 1950) سهام نصار، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة (1980).
15 ـ الصحافة الصهيونية في مصر (1897 ـ 1954) عواطف عبد الرحمن، دار الثقافة الجديدة (1980).
16 ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (1897 ـ 1917) سهام نصار، الهيئة المصرية للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين (1991).
17 ـ الصحافة الإسرائيلية والدعاية الصهيونية في مصر، سهام نصار، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة (1991).
18 ـ تاريخ المسألة المصرية، تيودور روثشتين، ترجمة عبد الحميد ومحمد بدران (1923).
19 ـ الأجانب في مصر: دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي، محمود محمد سليمان، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية (1996) القاهرة.
20 ـ اليهود. جمال حمدان، كتاب الهلال، القاهرة فبراير (1996).

21 ـ من أرشيف اليسار ـ المجموعة الكاملة، رفعت السعيد، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة (1999).
22 ـ تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، د. رفعت السعيد، مجموعة مجلدات صدرت منذ 19723) دار الغرابي، بيروت وأعيد طبعها عدة مرات.
23 ـ وثائق ومواقف من تاريخ اليسار المصري (1941 ـ 1957) أبو يوسف يوسف، على نفقة المؤلف، شركة الأمل للطباعة والنشر، يناير 2000.
24 ـ أوراق هنري كورييل والحركة الشيوعية المصرية. دراسة رؤوف عباس وترجمة عزة رياض، سينا للنشر، القاهرة (1988).
25 ـ هنري كورييل: رجل من طراز فريد، جيل بيرو، ترجمة كميل داغر، دار النضال، بيروت، 1986.
26 ـ من أجل سلام عادل في الشرق الأوسط، هنري كورييل، دار الثقافة الجديدة 1999.
27 ـ الكاتب المصري (1945 ـ 1948) المجموعة الكاملة، رئيس التحرير طه حسين، دراسة وتقديم عبد العزيز شرف، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1998).

28 ـ القضية الفلسطينية بين مصطفى النحاس وعبد الناصر، عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 2002.

29 ـ مذكرات مناضلة، رسائل إلى حبايبي الجزائر وفلسطين، ديدار فوزي روسانو، ترجمة مراد خلاف، دار العالم الثالث، القاهرة، 2004.

30 ـ سبع سنوات في بلاد المصريين، موشيه ساسون، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة (1994).

31 ـ يهودي في القاهرة، شحاتة هارون، على نفقة المؤلف (1987).

32 ـ مصر في قلبي، إسحاق بار موشيه، وزارة التعليم والثقافة في إسرائيل ـ دائرة الثقافة العربية الناصرية، إسرائيل (1994).

33 ـ ليلى مراد، صالح مرسي، كتاب الهلال، القاهرة (1995).

34 ـ الرجل الذي ولد مرتين: قصة يهودي مصري هاجر إلى إسرائيل، فيكتور نحمياس، طبعة على نفقة المؤلف في مطبعة المعارف، إسرائيل (2004).

35 ـ العودة للإسكندرية: روبير داسا، مركز الراية، القاهرة (2003).

36 ـ يهود لكن مصريون، سليمان الحكيم، دار الأمين القاهرة (1999).

37 ـ الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس، د. رشاد عبد ا الشامي، كتاب الهلال، القاهرة (1992).

الفهرس